شعر صفي الدين الحلي

جواد أحمد علوش

كلية التربية

ساعدت على نشره وزارة المعارف

مطبعة المعارف ـ بغداد

١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م

الإهـــداء

ومن أحق بالإهداء من والدىّ العزيزين ؟

أبى الذى كدّ وتعب من أجلى

وأمى التى قاست ما قاست فى سبيلى ..!

فأنا ثمرة أتعابهما ، وهذا الكتاب ثمرة جهودى ،

فهل أقدم ثمرة أتعابى إلا لمن كنت ثمرة لأتعابهما ..!

ج

لستُ (كالبحتريّ) أفخر بالشعر وأثني عطفيَّ في الايراد
وإذا ما بنيتُ بيتاً تبختريت كأني بنيت (ذات العماد)

(صفي الدين الحلي)

حبذا من إمام لفظٍ وفضلٍ نشر الذكر في البلاد دعاته
ناظم يشتكي (الوليد) قعوداً حين تتلو رواته أبيـــاته

(ابن نباتة المصري)

تصدير

هذا بحث متواضع دأبت على عمله في كلية الآداب بجامعة القاهرة خلال أكثر من عامين ، وقد تقدمت به للحصول على درجة الماجستير في الآداب في أواخر كانون الأول من عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف للميلاد (١٩٥٣) وبعد مناقشة علنيـــة ، نلت الدرجة بتقدير (جيد جداً) وقد كانت لجنة المناقشة مؤلفة من (١) الاستـــاذ المشرف الدكتور شوقي (رئيساً) (٢) الاستاذ مصطفى السقا (عضواً) (٣) الدكتور محمد كامل حسين (عضواً) .

ولا يسعني اليوم إلا أن أشكر أعضاء لجنة المناقشة المحترمين لحسن توجيهاتهم ، وصائب ملاحظاتهم ، ولما بذلوا في قراءة الكتاب ونقده من جهد مشكور ، ويحقّ لي أن أفخر بأنني ، قبل أن أقدمه للمطبعة ، استطعت أن أحقق معظم رغباتهم ، وأن أعمل بكثير من توجيهاتهم ، وأن أسدّ الثغرات التي سلطوا عليها ضوءهم أثناء المناقشة فظهرت واضحة وبهذا يكون هذا الكتاب المتواضع بين يدي القارئ الكريم ، في شكله الأخير ، بعد إجراء شيء من التنقيح والزيادة ، ولكنها ـ والحق يقال ـ زيادة بسيطة ، وتنقيح يسير ، لا يمس أصل البحث ولا يغير شيئاً من منهجه . . وهذا ما قاله لي أساتذتي الأجلاء وقد أرادوا أن يكون الكتاب خالياً ، إلى حد ما ، من العيوب والهنات ، والكمال لله وحده ! ولا بد لي أن أشير هنا إن « كتاب العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي » لصفي الدين كان مخطوطاً إلى وقت قريب ، وقد طبع أخيراً فلزم أن أشير إلى طبعه في الموضع المناسب ،

كما ان ديوان صفي الدين قد أعيد طبعه سنة ١٩٥٦ في النجف ، فوجب أن أبين هذا ايضاً .

هذا ولا يمكن أن أعتبر هذا البحث - الآن - قد استكمل من جميع الوجوه ، فلا بد أن هناك الكثير من العيوب التي تحتاج إلى الاصلاح ، ولعل هذا من العوامل التي عجلت في طبعه وإخراجه للنور ، فأنا لا أعتبر طبع الكتاب خاتمة المطاف ونهاية البحث ، وإنما اعتبره بداية الشوط ، إذ يلقى - وهو بين يدي القراء الأفاضل - من التوجيه السديد ، والنقد الشديد ، ما يقوّم اعوجاجه ، ويصلح خطأه ، ويكمل نقصه ولهذا فأنا أرحب بكل نقد وكل توجيه

وختاماً لا يسعني إلا أن أشكر وزارة المعارف الجليلة التي كانت المحفز الرئيسي في طبع هذا الكتاب إذ شملته برعايتها ، وقدمت له مساعدتها ، وهذا جهد محمود للاسهام في خدمة الأدب والثقافة من وزارة العلم والمعرفة .

والله أسأل أن يعيننا ويهدينا سواء السبيل

المقدمة

لا شك أن حب الوطن غريزة سامية يغرسها الله في نفس كل كائن حي منذ تدب فيه الحياة ؛ فالطير يحنّ إلى وكره ، والأسد يعتز بعرينه ، والظبي يأنس بكناسه ، والانسان ، لما وهبه الله من عقل مفكر وقلب شاعر ، يحب وطنه ويفديه بروحه هذا الوطن الذي يضمه وإخوانه المواطنين ، فيلم شعثهم ويهيئ لهم ما يحتاجون اليه من مطالب الحياة الكثيرة فيؤمن لهم الغذاء والكساء في أحوال تلائمهم وترضيهم وهم يترعرعون فوق ربوعه ويستظلون بسمائه ويستنشقون هواءه ويرتوون ماءه فوجب على الانسان ألا يشعر بعاطفة حب الوطن فحسب بل عليه أن يقوم بخدمته حتى يكون أبناء الوطن جميعاً كالبنيان المرصوص ، يصدون عنه كل إعتداء ، ويعالجون فيه كل داء ، للدفاع عنه في كل حين وبذل المساعدة لجميع المواطنين وقديماً قال الشاعر العربي

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وقومي وإن شحوا عليّ كرام

ومن تلك الخدمات التي يقدمها الانسان إلى وطنه ، بل من الواجبات التي على المرء أن يؤديها نحو بلده ؛ إظهار المواهب الأدبية المطمورة فيه فالأدب هو حياة الأمة ، وقلبها النابض ، لا تحيا بدونه ؛ لأنه غذاء الروح والوجدان والركن الوطيد من أركان بناء النهضة وهو المرآة التي تنعكس عليها ثمار العقل والقلب فتظل تحفظها الأجيال تلو الأجيال

وقد تمر بالانسان ظروف تجعله يحس إحساساً دقيقاً بواجبه نحو وطنه ، ويشعر شعوراً عميقاً بحبه وحنينه إلى بلاده ، ويفكر تفكيراً صادقاً في

تقديم ما يستطيع من مساعدة لأبناء قومه ومن هـــذه الظروف إبتعاد الانسان عن وطنه مدة من الزمن ، طالت أم قصرت ، فهنا يتجسم في قلبه حبه لوطنه واعتزازه به ، وهنا يتجلى شوقه لمواطنيه وخدمته إياهم وهنـا يعرف حق المعرفة خير بلاده ويدرك تمام الادراك فضل أبنائها

وقد شعرت بكل هذا منذ اليوم الذي غادرت فيه أرض وطني الحبيب لأنهل العلم من مصر ، رأيت لزاماً عليّ أن أخدم وطني في إظهار آدابه العظيمة للناس، وإخراج آثار أدبائه الخالدين للنور ، وتعريف الناس بتلك النهضات الأدبية الرائعة التي مرت بالعراق عامة والحلة خاصة . وهأنذا اليوم أقدم هذه الدراسة لشاعر الحلة ومفخرتها العظيم ، الذي طبقت شهرته الآفاق في زمانه ، وذاع صيته بين الناس ، وصار الملوك والسلاطين يتمنون مديحه ، حتى قال فيه جميع الذين كتبوا عنه إنه شاعر عصره على الاطلاق

وليس هذا فقط ما حدا بي إلى دراسة (صفي الدين) ، بل هناك أسباب أخرى هامة ؛ فبعض الظروف التي مرّ بها الصفي مررت بها أنا أيضاً وعلى ذلك فاني أستطيع أن أتفهم البيئة التي عاش فيها الصفي، وأعرف أثرها في ترجمة حياته وشعره فالحلة التي ولد فيها الصفي ولدت فيها ، وقد عاش فيها الصفي عقدين من حياته وغادرها بعد ذلك طلباً للنجاة ، وعشت فيها مثل ذلك وغادرتها طلباً للعلم وجاء الصفي إلى مصر وبقي فيها مدة غير قصيرة ، وقد أثرت فيه كثيراً وأحبها حباً صادقاً ، وجمع ديوان شعره فيها وهأنذا في مصر أتلقى الدرس وأنهل العلم وقد زار الكثير من المدن العربية التي زرتها أنا أيضاً ورأيت فيها ما رأى فانتقالي هو بعض انتقال الصفي وعلى هـــذا سأستعين بمعلومات شخصية كثيرة لتفسير كثير من الظواهر التي سببها انتقاله بين هذه البلاد ، وان كان الزمن بيني وبين الصفي بعيداً

وقد جعلت موضوع رسالتي هذه « شعر صفي الدين الحلي » ومعنى ذلك أنني سوف أدرس الشعر فقط دون أن أتعرض للنثر أو أهتم به ، هذا

صحيح ، ولكن . . . هناك شيء آخر أبعد من هذا فاني سأحاول أن أدرس حياة الصفي وثقافته وعقيدته من شعره نفسه ، فالمرجع الأول لهذه الفصول هو الديوان . وإني على طول بحثي وتنقيبي ، وكثرة تسآلي وقراءتي ، لم أجد من المراجع ما أستعين به على كتابة شيء ذي بال عن حياته ، وكذلك ثقافته وعقيدته ، فكل ما هناك نتف بسيطة متفرقة هنا وهناك ، لا تسمن ولا تغني من جوع ، فوق ما فيها من تضارب واضطراب ولا أبالغ إن قلت إن خير وثيقة عن حياة الشاعر ديوانه ، خصوصاً إذا كان الشاعر قد جمعه ودوّنه بنفسه ، كما فعل الصفي ، ولهذا فديوانه أهم الوثائق التي تبنى عليها أحكام دراستنا لحياته وثقافته وعقيدته . وهو فعلاً غني بالمعلومات التي تضيء لنا الطريق وتهدينا السبيل ففيه نسبه وبلده وذكر أيام صباه ورحيله عن وطنه وحنينه اليه ورحلاته المختلفة وكل ما يتعلق بحياته وشعره كالمرآة يعكس لنا ثقافاته المتنوعة من علوم العربية وآدابها وعلوم الدين وغيرها ويظهر شعره كذلك تحزبه للاسلام واهتمامه بأمور المسلمين ، واستنهاضه السلاطين للذود عن الاسلام والذب عن حياضه ، ويجلي مذهبه وتشيعه ، وحبه لعلي وآل علي

ولكن . . . هل الديوان يغنينا عن أي مرجع آخر فلا نحتاج لغيره ؟ وهل يجيب عن كل سؤال يمكن أن يثار ، أو يرد على كل اعتراض يمكن أن يقف في الطريق ، فلا يترك ناحية لا يوضحها تمام التوضيح ؟ أفلا توجد بعض النواحي ، قليلة كانت أم كثيرة ، في حياته لم يشر اليها الديوان ؟

في الحقيقة أنه لا يمكن أن نعتمد على الديوان فحسب دون أن نرجع إلى مراجع أخرى ، ولو من باب التأكد والاستعانة ، ولهـــذا رجعت إلى مراجع وراء الديوان لتساعدني على كشفه وتوضيحه ، وأكثر هذه المراجع مراجع عامة في التاريخ والأدب ، استعنت بها على دراسة عصر الصفي أو بيئته ، حيث البيئة الطبيعيه والحياة السياسية والحياة الاجتماعية وغيرها

واستطعت بواسطتها أن أرسم صورة تقريبية لهذه البيئة فمراجع العراق في هذا العصر قليلة نادرة لأن المغول أحرقوا وأتلفوا المكتبات العظيمة في بغداد وغيرها من مراكز العلم وبعض هذه المراجع قديم مثل الكامل في التاريخ لابن الأثير ، والحوادث الجامعة لابن الفوطي وغيره وبعضها حديث كان لابد أن أرجع اليه أما المصادر الخاصة للصفي وسيرته فقليلة وليس بها سوى بضعة سطور لا تكاد تصوّر شيئاً ومن أجل ذلك كله كان الديوان هو المرجع الأول والأخير .

وقد جعلت بحثي هذا في تمهيد وبابين :

التمهيد ويشمل البيئة الطبيعية ، والحياة السياسية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة الاقتصادية ، والحياة العلمية ، والحياة الأدبية

والباب الأول في سيرة الصفي من شعره ، وهو فصلان الأول في حياته والثاني في ثقافته وعقيدته

والباب الثاني في شعره وهو خمسة فصول ، الأول في آثاره الشعرية وهي : ديوانه ، وكتاب دور النحور ، والبديعية والثاني في مراحل شعره وهي ابتداء صنعة الشعر ، ظهور التعقيد ، اشتداد التعقيد ، صفات عامة . والثالث في موضعات شعره وهي الحماسة والمديح والرثاء . . . الخ والرابع في الفنون المستحدثة وهي الموشح والمسمطات والأزجال والموالي وغيرها ، والخامس في منزلته في الشعر العربي ، ودرست فيه تقليده وإبداعه ومنزلته وأثره في أخلافه .

وذيلت البحث بخاتمة بينت فيها ملخص الرسالة ، وأشرت فيها إلى الجديد الذي استحدثته بنفسي وأوجدته بدراستي الشخصية .

والله أسأل أن يجعل هـــذا البحث بداية بحوث أستطيع بها أن اظهر ما لبلدي من فضل في الأدب ، وأن أطلع الناس على آثاره الأدبية والعلمية ، فأكون بذلك قد استطعت أن أرد بعض الجميل ، والله المستعان

* * *

تمهيد

١ – البيئة الطبيعية :

ولد الصفي في الحلة ، وهي مدينة من أمهات مدن العراق ، كانت في عصر من عصور التاريخ قبلة العلماء والأدباء ، وطلبة التجار وسائر أرباب الحرف وأصبحت لها مكانة مرموقة بين مدن العالم الاسلامي ونافست بغداد في مركزها وسطوتها وجاهها

هذه هي مدينة الصفي ، ففيها ولد ، وبين أهلها ترعرع ، ووسط جوها المعطر بشذا العلوم والآداب تثقف واكتسب علمه وأدبه ، وباسمها يلقب فيقال صفي الدين الحلي .

وتقع الحلة على بعد أربعة وستين ميلاً إلى الجنوب الغربي من بغداد ، وعلى بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من الكوفة وعلى بعد بضعة أميال من أطلال بابل العظيمة ، وعلى موقع جميل من نهر الفرات . وتكتنف هذه المدينة بساتين النخيل الباسقة ، واشجار الفاكهة الشهية . وقد وصفها ياقوت الرومي بقوله : « مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت تسمى (الجامعين) ، طولها سبع وستون درجة وسدس وعرضها اثنان وثلاثون درجة ، وتعديل نهارها خمس عشرة درجة ، وأطول نهارها أربع عشرة ساعة وربع وكان أول من عمرها (سيف الدولة صدقة الأسدي) سنة (٤٩٥ هـ) . وكانت أجمة تأوي اليها السباع فنزل بها بأهله وعساكره وبنى بها المساكن الجليلة والدور الفاخرة »[١]

---

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٢٢

وقال عنها (ابن بطوطة) : « . . . مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو شرقيها ، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات ، وهي كثيرة العمارة وحدائق النخيل منتظمة بها داخلاً وخارجاً ودورها بين الحدائق »[1] فهي تمتد مع الفرات فيكسبها جمالاً رائعاً ، ويجعلها منظراً ساحراً من مناظر الطبيعة الفتانة ، ويصلها بالمدن الشمالية والجنوبية . كما تصل بينها وبين المدن الأخرى طرق برية حسنة « فالطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالاً ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب وتسقيها »[2] وكان للمدينة « جسر عظيم معقود على مراكب كبار متصلة إلى الشط تحف بها وبجانبيها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظماً ترتبط إلى خشبة مثبتة من كلا الشطين »[3] ومناخها جميل وهواؤها عليل ، تهب عليها الأنسام التي يلطفها نهر الفرات ، وتنقيها الأشجار الكثيفة التي على ضفتيه وفي شتائها شيء من البرودة تنسيك قسوتها أيام الربيع الدافئة الرائعة ، وكثير من المطر الغزير تجففه حرارة الصيف الشديدة وشمسه الساطعة وفي صيفها حرارة تكسر من حدتها الظلال الوارفة تحت الأشجار النضرة

أرضها خصبة وتربتها غنية بالمواد اللازمة للزراعة وماؤها وفير يزيد عن الحد المطلوب في كثير من الأحيان ، فالسماء تدر عليها الكثير في كل عام ، والفرات ماؤه لا ينضب وإن كان غالباً ما يغضب فيفيض ويدمر . وماؤه عذب كاسمه ، قال عنه ابن جبير : « هو من أخف المياه وأعذبها » . بساتينها الواسعة ملأى بشتى أنواع الفواكه والخضروات والحبوب ويربى الكثير من الحيوان في المراعي الشاسعة التي تحيط بها فتجعلها ذات ثروة عظيمة

* * *

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٣٣

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢١٣

(٣) المرجع السابق ص ٢١٣

وحين سقطت الخلافـــة العباسية في أيدي المغول سنة (٦٥٦ هـ) وحلت الـكوارث في أكثر مدن العراق ، نجت الحلة من هذا الدمار ، لأن أهلها أرسلوا وفداً إلى هولاكو يسألونه حقن دمائهم ، وكان مكوناً من كبار رجال البلد وأعيـــانه وعلمائه والعلويين ، ومعهم الهدايا والأموال الـكثيرة فأجابهم هولاكو إلى طلبهم[1] ، وعين لهم شحنة فازدهرت الحلة ازدهاراً عظيماً وارتقى الحليون أسمى المراتب وتقلدوا أعلى المناصب في الدولة ، واتسعت النهضة الأدبية والعلمية في الحلة وحين ولد الصفي في هذا المجتمع أفاد منه كثيراً ولـكن حين تفاقت الأحوال في العراق في أواخر أيام حكم المغول سنة (٧٠ هـ) ، واضطرب الأمن اصاب الحلة ما اصاب غيرها من مدن العراق وكثر فيها القتل والاغتيال ؛ فقتل (أبو المحاسن خال صفي الدين غيلة فأخذ الصفي بثأره سنة (٧٠١ هـ) وهاجر إلى (ماردين) فقضى فيها كثيراً من أيام شبابه

• • •

و (ماردين) مدينة ذات قلعة حصينة تقع على قنة جبـــل في الجزيرة وقد لعبت دوراً عظيماً في تاريخ الاسلام في القرن السادس والسابع والثامن للهجرة ، فـكانت عاصمة لمملـكة إسلاميـــة قوية ، كانت تحكم مساحات واسعة امتدت إلى الموصل وحلب ، واستطاعت أن ترد هجمات الافرنج مرات عديدة وتتوغل في أراضيهم

وهي تقع على جبل حصين ، تشرف على (دينيس) و (دارا) و (نصيبين) - في جنوب تركيا اليوم - وتطل على فضاء فسيح يمتد فيه البحر إلى مدى بعيد ، ذلك هو سهل الجزيرة الذي يدهش الناظرين ويبلغ ارتفاع هذه الهضبة خمسمائة قدم في الجنوب الغربي من ديار بكر وتمتد هذه المرتفعات الصخرية البازلتية نحو الشرق في اتجاه (جزيرة ابن عمر) وتنساب من

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٣٠

المنحدرات الجنوبية لهذه الجبال المجاري المائية الكثيرة التي ما يلبث تهعبها بعد مسيرها قليلاً أن يتصل بعضه ببعض فيكون أنهاراً صغيرة تختلط فتكون نهر الخابور[١]

وقد وصف ياقوت دور أهلها بقوله : « ودورهم فيها كالدرج كل دار فوق الأخرى وكل درب فيها يشرف على ما تحته من الدور »[٢] فهي كغيرها من المدن الجبلية مبنية على هيئة مدرجات تضم الدور والدكاكين والأبنيه الأخرى ، ويشرف بعضها على بعض ، وطرقها تلتف وتلتوي حول هذه الدور .

وتحيط بماردين بساتين واسعة ، تخترقها وديان كثيرة منها (وادي باغ الفراه) و (وادي الشيخ) و (وادي شجالا) وغيره . وكل هذه الاودية تروي البساتين الملأى بالكروم والفواكه المتنوعة[٣] وماردين نفسها قليلة الماء فأكثره من ماء المطر لأنهم يجمعونه في صهاريج كبيرة ويحتفظون به للاستعمال وهناك أيضاً بعض القنوات التي تسق المدينة بالماء الذي تأخذه من العيون المنتشرة حول المدينة

وماردين جميلة المناخ لطيفة الهواء ، وكان حسن مناخها سبب اختيار الأطباء لها كمصحة (لماردين) ابن ملك الفرس[٤]

وقدر (الاصطخري) مرتقى ماردين بفرسخ بينما (ابن حوقل) قدره بفرسخين[٥] وتتصل ماردين بما حولها من مدن بعدة طرق من أهمها : طريق ديار بكر - نصيبين الذي ينعطف في اتجاه جزيرة ابن عمر والموصل وهي في موقع مهم تتقاطع فيه عدة طرق هامة وكانت تعتبر مركزاً هاماً للقوافل التجارية إلا أنها فقدت مركزها[٦]

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية - النسخة الانجليزية ج ٣ ص ٢٧٣

(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٣٩٠

(٣) تاريخ ماردين لعبدالسلام المارديني (خ ورقة ١٠٢) .

(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة

(٥) دائرة المعارف الاسلامية - بالانجليزية ج ٣ ص ٢٧٤ .

(٦) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة

وقد تأسست ماردين قبل ظهور الاسلام ، وفتحها المسلمون في زمن الخليفة (عمر بن الخطاب) وحكمها أمراء وولاة عديدون حتى جاء الارتقيون سنة (٤٩٧هـ) فحكموها

وكان مجيء الصفي اليها في زمن مليكها (المنصور) ثم ابنه الملك (الصالح) بعده وكانت تتمتع يومذاك بهدوء وطمأنينة .

٢ - الحياة السياسية :

جاء القرن السابع الهجري والخلافة العباسية قد تناهى بها الضعف واستبد بها الهرم ، وغدت البلاد الاسلامية يتنازعها الأتراك السلاجقة في الشرق والاكراد الأيوبية في مصر والشام ، والبربر في المغرب والأندلس . ورأى ذلك أعداء الاسلام ففرحوا به لأنهم يريدون أن ينقضوا على البلاد الاسلامية فأغار الكرد والأرمن من الشمال للسلب والنهب ، وهجم الفرنج والصليبيون من الغرب هجوم الفاتح الغازي ، أما من الشرق فقد جاء التتر المغول المتوحشون وهم قبائل بدوية كانت تقطن شرق آسيا ، ثم تكتلت واستطاعت أن تغزو معظم آسيا في فترة وجيزة ، وأن تدخل العراق بقيادة (هولا كو) وتسقط الخلافة العباسية وتحتل بغداد وتقتل الخليفة (المستعصم بالله) سنة (٦٥٦هـ) وهكذا أصبح العراق إمارة تابعة للمغول بعد أن كان قلب العالم الاسلامي النابض وكان هؤلاء المتوحشون يحكمون بكل وحشية وقسوة ، فهم عتاة غلاظ القلوب ، وكان من آدابهم الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة(١) ، فالسلطان حاكم مستبد يخضع له الجميع وليس عنده من النظم والقوانين ما يسير عليه إلا ذلك القانون العرفي الذي وضعه أبوهم الأكبر

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير خ ج ١٣ ورقة ١١٨ .

(جنكيز خان) ، ويتميز بروح القسوة والعنف ويقضي بقتل من يرتكب أبسط الأمور[1]

ولد الصفي في كنف هذا الحكم ، وشب فرأى الاضطراب السياسي ، والانحطاط الشامل لكل مرافق الحياة . فبعد أن انتهى حكم الخلافة العباسية وحل محله حكم المغول لمعظم هذه البلاد العربية والاسلامية لم تعد هناك أيُّ رابطة تربط بينها سياسياً ، ولا أي صبغة توحد بين ألوان الحكم فيها ؛ وقد أصبح في كل دولة أمير يحكمها مستمداً سلطته من قوته فاذا جاء من هو أقوى منه نحاه وجلس مكانه . وحاول هؤلاء الحكام تطبيق نظام وراثة العرش فلم يفلحوا لأن الحكم للأقوى . وكانت هذه المنازعات تقع حتى بين الاخوة وأبناء العمومة ، وبين الأبناء والآباء ، وكثيراً ما أدى هذا إلى القتل بالطرق الوحشية الفظيعة والسلب والمصادرة ولهذا كان الشك يملأ القلوب ويشحن الصدور شك السلطان في حاشيته وحتى في أهله وأقرب الناس إليه ، فهو لا يأمن خيانتهم وغدرهم وشك الحاشية في أميرهم فهم لا يأمنون غضبه ، ولا يعرفون في أي ساعة يثور فيقضي عليهم جميعاً وشك الأمير في رعيته فلا يدري متى تثور عليه وتنحيه وهكذا

لهذا كان القلق سائداً كل شيء في هذا العصر ؛ الناس في قلق فهم لا يعرفون هدوء العيش ، والحكم في قلق فليس فيه استقرار ، والحكام في قلق إذ أنهم لا يعرفون الهدوء السياسي ، فكثيراً ما ينقل الأمراء أو موظفو الدولة وكثيراً ما يعزلون ، وكثيراً ما يقضي عليهم بالقتل والمصادرة ، وكانوا قبل لحظات في أعلى المناصب وتبعاً لهذا الاضطراب السياسي اضطرب الأمن ، فالسلطة غير قادرة على حكم البلاد ، والحكام والموظفون لا يعرفون مصيرهم في غد أو بعد غد .

* * *

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ورقة ١١٨

ولم يكن نظام الحكم في الامصار الاسلامية منتظماً على أسس سليمة أو يتبع قوانين معينة ، فالحكم إذاً استبدادي ، والسلطان حاكم مطلق يفعل ما يشاء ويأمر بما يريد ، دون أن يوجد من يحاسبه أو يعارضه لأنه أقوى من حوله . وكان أكثر هؤلاء السلاطين يبررون حكمهم باسم الدين بالرغم من أن القوة لا غير هي التي أوجدتهم في مناصبهم ، فكانوا يجمعون حولهم الكثير من رجال الدين ولا يعملون عملاً إلا ويجدون له ما يبرره أو يحلله في الدين . وبذلك يجب على الشعب أن يرضى به ، لأن علماء الدين قد ارتضوه . واستغل السلاطين هذا وصاروا يجبرون علماء الدين على إعلان الرضى عن أعمالهم فكان الكثير يرضخ لحكمهم والقليل هو الذي يقاوم فيلقى الاضطهاد والعذاب وقد كان ذلك لارضاء الشعب ، فهل معنى هذا أن الرأي العام كان قوياً ، أو لم يكن يحسب له أي حساب عند السلاطين ؟ لقد كان السلاطين يرعون بعض النواحي التي تهم الشعب . فهم إن أرادوا جمع المال خافوا عصيان الشعب أو ثورته فأشاروا على علماء الدين أن يفتوهم بأمر هذه الضريبة ويحللوها ليرضخ الشعب لهم فرضى العامة وسخطهم ليس مهملاً ، ولكنه ليس مهماً كذلك بالدرجة التي كان يخافها السلاطين ، فالسلطان يحكم وهم مطيعون ، دون أن يكون له مجلس شورى يعبر له عن رأيهم عند الفصل في الأمور وكان أكثر هؤلاء السلاطين المتظاهرين بالتدين لا يتورع عن ارتكاب أعظم المنكرات في المجالس الخاصة ، يصرفون فيها الأموال الطائلة على لذائذهم ومباهجهم دون الالتفات إلى المشاريع التي تنفع الشعب وهم يكنزون الذهب والفضة والمال والسلاح يستعينون به عند الملمات .

* * *

وفي (ماردين) كان الأرتقيون ، وكانوا أيضاً يحكمون ديار بكر وحصن (كيفا) و (خربوط) منذ أواخر القرن الخامس فقد استطاع جدهم (ياقوتي) حفيد (أرتق بن أكسب) مملوك السلطان (ملكشاه السلجوقي) ، أن

يستولي على (ماردين) سنة (٣٩٧ هـ) ويؤسس فيها ملكاً للأرتقيون[١] واتسعت أملاكهم وقوى نفوذهم وحين قضى المغول على الخلافة العباسية أصبحت (ماردين) تابعة لهم إسمياً ويخطب لهم على المنابر ، لكن السلطان الفعلي ظل بيد الأرتقيين لذا كانت تتمتع بهدوء وطمأنينة لا مثيل لها في البلاد الاسلامية الأخرى ، خصوصاً في عهد الملك المنصور وقد ظل يخطب للمغول ورحل في خدمة السلطان (غازان) المغولي إلى الشام ، لكنه كان يناصح الملك الناصر محمد بن قلاوون سراً وتزوج ابنته[٢] وهو الذي التجأ اليه صفي الدين الحلي فآواه وأحسن وفادته ومات سنة (٧١٢ هـ) فملك بعده ابنه الملك الصالح وكان من أجل ملوك (ماردين) حزماً وعزماً ورأياً وكرماً ودهاءً كان حسن السياسة يحب المديح ويجيز عليه[٣] وهو الذي قطع الخطبة للمغول واستقل بالحكم سنة (٧٣٧ هـ) وتوفي سنة (٧٦١ هـ)

وهذه الدولة حربية منذ تأسيسها سنة (٤٩٧ هـ) وظلت كذلك حتى انقرضت سنة (٨٠٢ هـ) وملوكها كلهم فرسان شجعان وكانت جيوشهم من التركمان ولا غرو فالعائلة المالكة تركمانية ، وكان الجندي شديد المراس قوي البطش عظيم الصبر لذا استطاع الملوك أن يطبقوا نظام وراثة العرش وحين خضعوا للمغول لم يغيروا شيئاً من حكمهم سوى الخطبة لهم على المنابر .

٣ - الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع الاسلامي في هذا العصر مجتمعاً مفككاً في غاية التدهور والانحطاط ، فكما كانت الحياة السياسية فاسدة مضطربة كانت الحياة

(١) الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٦

(٢) المنهل الصافي ـ مخطوط ـ ج ٢ ورقة ٥٠٢

(٣) المنهل الصافي ـ مخطوط ـ ج ٢ ورقة ٢١١

الاجتماعيـــة كذلك فاذا كانت السياسة مضطربة والحـكم فاسداً فـكيف يكون المجتمع صالحاً وحياة الناس هادئة طبيعية ؟

فالمجتمع الاسلامي إذاً كان مضطرباً كل الاضطراب ، منحلاً أسوأ الانحلال ، اجتمعت فيه مساوئ الأمم المختلفة فأصبح خـــير مثال لشر فساد وتفـكك .

واضطراب الأمن واختلال النظام كان يسود البلاد الاسلامية ، فـكثرة القتل كانت متفشية تفشياً عجيباً بين جميع الناس وفي كافة الطبقات ومختلف المجتمعات : فقتل (عماد الدين القزويني) أحد حكام بغداد سنة (٦٦٠ هـ) وقتل (علي بن بهادر) شحنة بغداد سنة (٦٦١ هـ) . وقتل (نجم الدين يحيى) سنة (٦٦٩ هـ) إلى آخر ذلك من القتل الشنيع وفي مصر قتل من المماليك (إيبك) و (قطز) و (كتبغا) و (سلار) و (لاجين) وغيرهم وكانوا يبتـكرون للقتل والتمثيل أبشع الطرق وأشنع الصور ؛ فهذا (مجد الملك) يسلم إلى الصاحب (علاء الدين) فيقتله وتحمل أطرافه إلى البلاد ويسلخ رأسه وتحمل إلى بغداد ويشوي أتباع (السلطان خربنده) لحمـــه ويأكلون منه ويشربون الخمر في قطعة من رأسه[(١)] وكثر الانتحار أيضاً ، ففي سنة (٦٧٨ هـ) وجد في قبة المؤذن بالمدرسة النظاميـــة جثة رجل صلب نفسه . وفي سنة (٦٧٩ هـ) صلبت امرأة نفسها في دارها بمحلة الجعفرية وفي سنة (٦٨٠ هـ) طولب (نجم الدين) كاتب الجريد بالحساب على بقايا وجبت عليه فلما عجز وخشي العقاب قتل نفسه ، وكان شاباً حسن الصورة[(٢)]

وهناك حوادث أخرى متنوعة تدل على فساد المجتمع . ففي سنة (٦٨٨هـ) دخل الأعراب يوم الجمعة إلى الجامع بالمحول فأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم قصدوا ناحية الحارثية وكبسوها ليلاً وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة

---

(١) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٣٩١

(٢) نفس المرجع ص ٤٠٨ — ٤٥١

من أهلها ، فلم يزل شحنة العراق يبحث عنهم حتى ظفر بأكثرهم وضرب أعناقهم ، وبنى رؤسهم في قبة الجسر ، وجعل وجوههم ظاهرة ليعتبر بها كل مفسد[١] . ولو لم يكن ذلك شائماً لما اضطر شحنة العراق إلى بناء رؤوسهم في الجسر ليخيف أمثالهم . وفي مصر كثر فساد العربان فقطعوا الطرق وفرضوا الأتاوات على التجار وأرباب العيش بالصعيد ، واستخفوا بالولاة ولبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون فاضطر السلطان للخروج لقتالهم[٢] .

ومن مظاهر هذا الاضطراب ظهور الشطّار في بغداد وغيرها ؛ ففي سنة (٦٧٧ هـ) ظهر صبيان من الشطار يعرف أحدهما (بابن الحماس) والآخر (بالتاج الكفني) وانضم اليهما جماعة من الجهال فقويت شوكتهم وانتشر ذكرهم فاحتال صاحب الديوان حتى أحضر (ابن الحماس) إليه وعين عليه والياً من الشرطة فبقي على ذلك أياماً ثم استعفى فأعطاه وجعله ملازماً باب داره . . . ثم ثبت إفسادهما فأمر بقتلهما وطيف برأسيهما ، فكبس بعض رفاقهما على (قتادة) نائب الشرطة وهو جالس على شاطيء دجلة في الرقة فقتله وبعض أصحابه ، فأمر صاحب الديوان أن ينبش (ابن الحماس والكفني) وتحرق جثتاهما[٣] وهذه بلا شك حيلة العاجز

وكان هذا المجتمع يزخر بشتى الأجناس ، ويموج بأخلاط مختلفة من الناس ، فقد التقى فيه أناس من أقصى الشرق بأناس من أقصى الغرب واختلطت هذه الأجناس المتباينة فكونت هذا المجتمع الجديد الذي لا تعرف له لوناً ولا جنساً ولا شخصية خاصة فقد امتزجت في الحروب الصليبية وحروب المغول وغيرها شتى الحضارات والديانات والأفكار والعلوم والعادات والتقاليد ، وتداخلت وكونت هذا المجتمع الجديد . فوجدنا عادات المسلمين بجانب عادات الوثنيين دون تحرج أو توقف .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٥١

(٢) النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ١٤

(٣) الحوادث الجامعة ص ٤٠٣

فليس هذا المجتمع بمجتمع عربي ، تغلب عليه العروبة ، وليس الناس كلهم من العرب بل ليس معظمهم عرباً ، وإنما كان هناك فرس وترك ومغول وغير ذلك من الأقوام . وكانت الغلبة في العراق للمغول لأنهم الفاتحون المسيطرون ، وكانت الغلبة في مصر والشام للماليك الأتراك لأنهم حكام البلاد ، كذلك في (ماردين) ، فالحكام ترك لا شك في ذلك ضعف إذاً شأن العربية ولم تبق لها تلك الصولة ولم تعد صاحبة السطوة ، لأن الحكام أو معظمهم لا يتكلمون بها فعلى الشعب أن يخاطبهم بلغتهم التركية وعليه أن يتعلمها فتزاحم العربية في كل ميدان . ولكن بالرغم من هذا بقي للعربية شيء من الأهمية لأنها لغة القرآن ولغة الدين الذي يدين به أغلب السكان ويدين به معظم الحكام ، وحتى حكام المغول فيما بعد .

ولم يكن هؤلاء الناس جميعاً من طبقة واحدة ، فكانت هناك طبقات متفاوتة يختلف بعضها عن بعض وهي أربع طبقات : الأولى طبقة السلاطين والحكام والأمراء وهي الطبقة العليا المتميزة في كل شيء والثانية طبقة علماء الدين ويلون الحكام في المنزلة وكانت لهم مكانة بين الناس لذا كان السلاطين يحترمونهم ويقربونهم اليهم ويستشيرونهم في الأمور والثالثة طبقة كبارالتجار ، وهم المثرون من الأغنياء ، ويرتقون إلى منزلة الخاصة ويجالسون الأمراء والسلاطين وكانت لهم مميزات خاصة ويحاكمون أمام الحكام لا أمام القضاة كما يحاكم سائر الناس . والرابعة طبقة العامة وهم الصناع والزراع وصغار التجار وبقية الناس وهم أقل الطبقات .

وهناك من يقسم الناس تقسيماً آخر حكى أن السلطان (هولاكو) لما كان بوطأة حران وقف له جمع من الفقراء فقال لنصير الدين : ما هؤلاء ؟ قال : فضلة في العالم فأمر بقتلهم فقتلوا وسأله عن معنى قوله فقال : « الناس أربع طبقات : بين إمارة وتجارة وصناعة وزراعة فمن لم يكن منهم

كان كلاً عليهم »[1] فهو يقسمهم إلى : (١) الأمراء (٢) التجار (٣) الصناع (٤) الزراع . ولا يجعل لعلماء الدين طبقة ، وربما كان ذلك تواضعاً منه لأنه من علماء الدين وأكبر علماء عصره ويعتبر غير هؤلاء الأربعة ليسوا من الناس ويجب أن يقضى عليهم .

فليس المجتمع إذاً وحدة شاملة وقوة متراصة ، وإنما هو مجزء مفكك ، وليس هذا التقسيم الطبقي هو الظاهرة الوحيدة لهذا التفكك فهناك ظواهر متعددة ؛ فكل طبقة من هذه الطبقات مفككة هي الأخرى فطبقة الحكام مقسمة إلى أحزاب تتناحر وتتنافس ، كل يريد أن يستأثر بالسلطة ، وكل يريد أن يجمع حوله الأنصار ، وكل يريد أن يفرق عن غيره الأعوان ، وطبقة العلماء منقسمة على نفسها ، فهؤلاء علماء يسيرون في ركاب السلطان ويؤيدون كل أعماله ويوجبون على الشعب طاعته مهما تكن الظروف ، وأولئك علماء يخالفون هذا ولا يرضون بكل أعمال السلطان ويكفرون العلماء الذين يؤيدون السلطان . والطبقات الأخرى مجزأة أيضاً .

وليس عسيراً أن نعرف أسباب هذه الفرقة ، فقد عرفنا أن في المجتمع أخلاطاً مختلفة ، وأن الأحوال مضطربة وأن الروابط بين أجزاء الأسرة قد اندرست ، وحتى الأسرة تفككت وكادت تمحي معالمها ، فقد رأينا الحروب والخلافات بين الاخوة والأبناء والآباء . وقد سبب ذلك أشياء كثيرة قوي خطرها في هذا العصر ؛ فالرق وتعدد الزوجات من مختلف الأجناس ، من عربيات وروميات وتركيات ، وانتشار التسري انتشاراً فظيعاً ، وظهور الكثير من الشذوذ الجنسي كاقتناء الغلمان وغيره من اللهو والعبث وكثرة إنتشار الخمر والمكيفات الأخرى وهذا (ابن الفوطي) يروي حادثة تبين أثر تعدد الزوجات فيقول « تزوج رجل يعرف (بابن البيضاوي) إمرأة مغنية ببغداد ونقلها إلى قريته وأسكنها مجاور دار زوجته وكانت ابنة عمه

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٤٣

فدخلت اليها وضربتها بدبوس فقتلتها ، وخرج عمه اليه فضربه بنشابه فمات من ساعته ، فعلم ولده بذلك فضرب عم أبيه بسيفه فقتله »[1] كل هذا يدعو إلى انحلال الأسرة وتفسخها لعـــدم وجود الروابط التي تربطها وتحافظ على كيانها ، ففسدت الأجيال وفسدت أخلاقها أيّ فساد ، فلم يعد للفضيلة أي وجود ولم يبق للأخلاق الحميدة أيُّ أثر وانتشرت الخلاعة والمجون والدعارة والفسق ، وتفشت بين الناس أخلاق جديدة فيها الخداع والمكر والدسيسة والغدر والكذب وحب الاعتداء على الغير وغير ذلك من شرور .

ولم لا يكون هذا والناس لا رادع لهم من سياسة أو دين ؟ فالسياسة فاسدة ، والدين لم يعـــد ذلك العامل القوي الذي يسيطر على قلوب الناس ويوجههم في كل أعمالهم ، فقد تغيرت الحال وأصبح الانسان أضعف من أن يوجههم ؛ فالخاصة تتظاهر بالدين تظاهراً فحسب أما في الباطن فتأتي كل ما ينهى عنه الدين ولا تعمل شيئاً مما يأمر به ، أما العامة فقد أصبح الدين عندهم أضعف من أن يصل إلى أعماق النفس وأهون من أن يسيطر على الضمائر وأعجز من أن يوجه الأعمال ، سواء أكانت من علاقة المرء بربه أو علاقته بأخيه فلم يبق من الدين عندهم إلا القشور لذا رأينا إنتشار الموبقات وتفشي المنكرات وعمل المحرمات ؛ فالخمرة مباحة بشربها الجميع ، واللهو والعبث يقام في وضح النهار دون تحرج .

وقد كثرت الخرافات وانتشرت انتشاراً عجيباً حتى شغلت الناس عن كل شيء وقليل من علماء الدين من أحس بالخطر وشخص الداء وعرف الدواء لكنهم كانوا أضعف من أن يعملوا ، فاكتفوا بأضعف الايمان ، وكثير منهم انساقوا في ركاب الأمراء ليجزلوا لهم العطاء وليمتعوهم بدار الفناء لهذا رأينا كثرة الفرق الدينية والمذهبية وكثرة تطاحن هذه الفرق مما لا طائل تحته ومما يؤدي إلى المنازعات والعراك ، ووقعت الحروب الكثيرة بين هذه

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٥٢ .

الفرق الاسلامية وهذا بلاء ما بعده من بلاء ، كان السبب في هدم كيان الأمة وهدم المجتمع الاسلامي فالتعصب للمذهب لحسب هو أساس المناظرات ، وكان سببه عمى البصيرة وظلام القلب وخمول العقل فقد قامت الفتن بين الشافعية والحنابلة ووقعت الحروب بين الشيعة والسنة ، وكانت السلطة بدورها تنصر فريقاً على الآخر وتفضل مذهباً على الثاني مما يزيد النار اشتعالاً

هذا هو المجتمع الذي عاش فيه صفي الدين فكان لا بد أن يتأثر به ، وكان لا بد أن يظهر ذلك في حياته وفي شعره ، فقد نقم على هذا المجتمع ونقم على كثير مما فيه من فساد ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يقاوم التيار الشديد فانساق فيه على نحو ما سنرى فيما بعد

٤ـ الحياة الاقتصادية :

لم تكن الحياة الاقتصادية بأحسن حظاً من الحياة السياسية والاجتماعية ، وأقل فساداً واضطراباً منهما ، فالفساد في السياسة والمجتمع لابد وأصل الحياة الاقتصادية في كل مظاهرها ، فليس هناك أدنى شك في أن الحياة الاقتصادية في كل بلد تتوقف على الأمن والسلم والعدل في ذلك البلد من حيث الشدة والرخاء وليس هناك أدنى شك أيضاً في أن الحروب تجر البلاد إلى انهيار اقتصادي ؛ فتكثر المجاعات ويحل القحط فيضطر الناس إلى أكل ما لا يؤكل وعمل ما لا يعمل والحروب التي جرت في معظم البلاد الاسلامية في هذا العصر وما سبقه من العصور حروب مدمرة لا تبقي ولا تذر ، فاضطربت الأحوال الاقتصادية في سائر هذه البلاد وحلت المجاعات المخيفة التي اضطرت بعض الناس إلى أكل أوراق الشجر ونبات الأرض وورق القصب والحلفاء وتجرع أكل لحوم الفيران والقطط وذبح الأطفال وبيع لحومهم ، وباع الفقراء

أولادهم ، وانتحر أناس كثيرون « حتى أن إمرأة ألقت بنفسها إلى دجلة لأنها كانت تطلب فلم يعطها أحد شيئاً فآثرت الموت »[١]

ونتيجة لهذه المجاعات كانت الأسعار ترتفع ارتفاعاً فاحشاً مما لا يدع في استطاعة الناس العاديين ومتوسطي الحال شراء حفنة من طعام (فابن الفوطي) يذكر لنا من غلاء الأسعار ما يفوق كل تصور في الأعوام : ٦٦٨ و٦٧٨و٦٧٩و٦٨٤و٦٨٥و٦٨٨هـ ... الخ ويضرب الأمثال لغلاء الأسعار فيذكر في سنة (٦٦٨هـ) أنه بلغ الكر من الحنطة ١٥٠ دينار[٢] وفي سنة (٦٨٤هـ) بلغ الكر من الحنطة ١٨٠ دينار والشعير ١٠٠ دينار ، وبيع الخبز ثلاثة أرطال بدرهم[٣] وفي دمشق بلغ رطل اللحم عشرة دراهم ورطل الخبز درهمين ونصف وأوقية الجبن بدرهم وكل خمس بيضات بدرهم[٤]

وكأن الطبيعة كانت عوناً لهذه الحروب ، فكانت تصيب الزروع والنبات بأنواع الآفات ، فتتلف المحاصيل وتزيد في غلاء الأسعار فتارة يظهر الجراد فيأكل الغلات ويقضي حتى على خوص النخل وورق الشجر[٥]، وتارة تفيض الأنهار فتغرق الزرع وتتلف الضرع ، فكم مرة فاض نهر دجلة فأغرق عدة مدن ووصل الماء إلى (الحبانية) - في الصحراء - وتهدمت جدران البساتين وهلكت الأشجار وظهر بعد ذلك ذباب كثير[٦] وكان الفرات يفعل فعل دجلة أيضاً ، فقد زاد مرة في سنه (٦٨٤هـ) زيادة عظيمة فغرقت أعمال الكوفة والحلة ونهر الملك وعيسى والانبار وهيت وذهب من

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٤٧ .
(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٦٦ .
(٣) البداية والنهاية مخطوط ج ٤ ورقة ١٨٧
(٤) نفس المرجع ص ٤٤٩
(٥) الحوادث الجامعة ص ٣٨١ .
(٦) نفس المرجع ص ٤٤٢

الاموال شيء كثير(١) هذا مع ملاحظة أن هذه المدن تقع في البادية التي يمكنها أن تستوعب مقادير عظيمة من المياه ومرة كانت تهب الأعاصير الباردة القارسة فيتجمد الماء ويتلف الزرع وتموت المواشي والأغنام والطيور(٢) ويسقط الثلج والبرد فيميت الحيوان ويتلف النبات ، فكان يتعذر على كثير من الناس الحصول على القوت ، لندرة الغذاء والحاجة والفاقة مع غلاء الاسعار فكان يحتالون بكل طريق للحصول على الدراهم حتى نسب إلى جماعة من أهل بغداد ضرب الدراهم المزيفة ، فأخذ بعضهم وضرب فأقر على ذلك وكان بين هؤلاء (نجم الدين حيدر) وهو من أعيان المتصرفين(٣) وكانت السلطة تضطر في كثير من الاحيان إلى إبطال النقود وتغييرها وسرعان ما تعودواليها ثم تستبدلها بجديدة فيسبب ذلك قلقاً عند الناس واضطراباً في معاشهم . ووضع (صدر الدين) صاحب ديوان المال بتبريز سنة (٦٩٣هـ) (الجاو) وهو العملة الورقية ، بدلاً من الدنانير والدراهم وأمر الناس أن يتعاملوا بها قسراً ، فاضطربت أحوالهم وتعذرت الأقوات عليهم فلما عرف ذلك السلطان (كيخاتو) أمر بابطالها(٤) وهكذا كان يحل بالناس كل بلاء من فقر مدقع ، وجوع شنيع ومرض مريع .

ولم يكن الحكام ليصلحوا هذا الفساد ويرعوا هذا الحال ، بل على العكس من ذلك كانوا يرهقون الأمة بالضرائب الفاحشة التي تزيد عن الحد المعقول ؛ ففي سنة (٦٧٧هـ) « ورد تقدم الى (علاء الدين) صاحب الديوان لاستيفاء خمسين ألف دينار من بغداد وأعمالها على وجه المساعدة ، فشرع في استيفاء ذلك من الناس بالعسف والقهر ، ثم أمر باثبات الدور في بغداد فأثبتت جميعها

(١) نفس المرجع ص ٤٤٩

(٢) نفس المرجع ص ٣٨٤

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٩٥ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٧٧

فطالبوا أربابها بالأجرة عنها عن شهرين ، وانفرد (مجد الدين بن الأثير) باستيفاء ما قرر على الناس فأغلقت الاسواق واختفى أكثر العالم ، وطولب النساء بما قرر على رجالهن ولم يتخلص من هـذا أحد حتى العلويين والقضاة العدول استوفي منهم بالقهر والمضايقة »(١) وفي مصر كان (قطز) وغيره من المماليك يضطرون إلى جمع المال فيفرضون الضرائب الجديدة على غير سند ، فكانوا يجبرون علماء الدين على الافتاء بصحة هذه الضرائب وشرعيتها

هكذا كان الحكام يرهقون الشعب في جمع المال بالعسف والقوة والعنف دون مراعاة لضعف حاله ، وقلة ماله ، وندرة غذائه . وكانت هذه الاموال تكنز وتصرف على ملذات الأمراء ومجالس لهوهم وبناء قصورهم الشامخة وشراء الخيل والعبيد والحلي والجوهرات وليقع للشعب ما يقع فلن يضيرهم أي شيء ما داموا رافلين في نعيم مقيم ، لهذا كانت هناك طبقتان من الناس طبقة الأغنياء المترين وهم قلة ، ويملكون أموالاً طائلة ويعيشون في حياة أشبه بالأحلام ، وطبقة الفقراء المعدمين وهم الأغلبية الساحقة ، ويعيشون في فقر مدقع وبؤس عظيم ، فمنهم من يضطرون إلى بيع فلذات أكبادهم دفعاً لغائلة الجوع والفاقة . ومن أولئك الاغنياء من يموت فيخلف الآلاف المؤلفة من الذهب والجوهرات والخيل والعبيد فالامير (سلار المصري) خلف بعد موته ثمانمائة ألف ألف دينار عدا الجوهرات والحلي والخيل والسلاح(٢)

* * *

وتحسنت الحالة الاقتصادية في السنوات الأخيرة ، نوعاً ما ، وإن كان هذا التحسن بسيطاً ، وخصوصاً في الأيام الأولى لحكم السلطان (غازان) . فقد جاء العراق سنة (٦٩٦هـ) وشمل الناس بالعدل والاحسان ولم يتعرض أحد لما جرت عليه العادة من رعي الزروع وغير ذلك وأمر للعلويين بمال كثير

(١) نفس المرجع ص ٣٩٨ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠ .

في النجف وكربلاء وغيرها [١] وفي سنة (٦٩٨ هـ) أمر أن يصفى الذهب والفضة من الغش ويبالغ في ذلك ، وأن تضرب الدراهم والدنانير متساوية الوزن ليتعامل بها الناس عدداً . وأمر أن يعمل ذلك في جميع الممالك[٢]

وبدأت الاصلاحات العمرانية تأخذ طريقها أيضاً فأعيد بناء أكثر العمارات التي هدمت عند هجوم التتار . وبنيت كذلك عمائر جديدة كالأربطة والمدارس والجوامع والمساجد والمآذن وغيرها فهدأ الناس بعض الهدوء والتفتوا إلى الزراعـــة واهتموا بالعمارة بعض الاهتمام . وأما التجارة فقد ازدادت حركتها شيئاً فشيئاً ، خصوصاً أن المغول يهتمون بالتجارة ، ويحافظون على الطرق التجارية ، ويرسلون الجنود لحراسة القوافل التجارية . فقد كانوا منذ أيام (جنـكيزخان) يحترمون النظم الاقتصادية ويسعون إلى توطيد العلاقات التجارية مع جيرانهم . وحرص (جنـكيز خان) على حراسة القوافل التي تسير عبر بلاده ، واستمرار هذه العلاقات التجارية بينه وبين جيرانه وأكبر دليل على هذا تلك المعاهدة التجارية التي قامت بينه وبين (علاء الدين خوارزم شاه) والتي لم يحترمها الخوارزميون فغضب جنكيزخان[٣] وقد سهل حكمهم اتصال شرق آسيا بغربها تجارياً فصار التجار يتجولون في طول آسيا وعرضها يبيعون ويشترون .

* * *

ولابد من الاشارة هنا إلى أن الحياة الاقتصادية في مصر كانت أحسن منها في أيّ بلد آخر ، وبخاصة في أيام (الملك الناصر محمد بن قلادون) ، فقد نعمت البلاد برخاء اقتصادي ، وكانت الخزانة ملأى بأكداس مكدسة من المال وهذا مما تأخذه الحـكومة من : الخراج وضرائب استخراج المعادن

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٩٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٩٨

(٣) الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ حمدي ص ٢٥٨

والزكاة والتركات الحشرية وضريبة الجوالي والمكوس[1] وما دامت هذه الضرائب تعود على الخزانة بمال وفير إذاً فلابد من وجود رفاه اقتصادي نوعاً ما ، وكانت خزائن أمراء المماليك غاصة بالأموال حتى صارت حياتهم الخاصة والعامة حافلة بكثير من ألوان البذخ والترف والنعيم ، يظهر ذلك من عنايتهم بالصيد والسباق والرماية وتربية الخيل والموسيقى والغناء ، ومن فرش منازلهم بأنفس الطنافس والبسط وتزيين أبوابها وسقوفها بالعاج وتطعيم الأواني بالذهب[2] ، فالأمير (بيسري بن عبدالله الصالحي) كان له دار عظيمة بين القصرين ، وكان عليه رواتب لجماعة من مماليكه ومواليه وخدمه ، وكان يرتب لبعضهم في اليوم سبعين رطلاً من اللحم وما تحتاج إليه من التوابل ، وسبعين عليقة وكان ما يحتاج اليه في كل يوم اسماطه ولدوره ثلاثة آلاف رطل من اللحم وثلاثة آلاف عليقة[3]

فحالة مصر الاقتصادية في ذلك العصر حسنة بدليل الانتعاش الذي شمل جميع مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة فقد اهتم معظم سلاطينهم بالزراعة فعنوا بأمر مقاييس النيل ، وأمروا بانشاء الجسور في كافة أنحاء البلاد[4] وارتقت كذلك بعض الصناعات في مصر وأصبحت لها شهرة عظيمة كصناعة النسيج من أقمشة وفرش وبسط . وازدهرت حركة التجارة فقد كانت تمر بمصر تجارة الهند إلى الغرب وبذلك تحسنت تجارتها وراجت أسواق صناعاتها وزادت ثروتها وصار التجار يقصدونها من جميع أنحاء العالم .

* * *

وكان الصفي من هؤلاء التجار الذين قصدوا مصر ، فقد جاء اليها مرتين ، وبقي فيها زمناً غير قصير وهو تاجر ذو ثروة عظيمة كان يجوب البلاد المختلفة للتجارة .

(١) تاريخ المماليك البحرية — علي ابراهيم حسن ص ٣٢٢
(٢) تاريخ المماليك البحرية ـ علي ابراهيم حسن ص ٣٣٠ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٦
(٤) تاريخ المماليك البحرية ـ علي ابراهيم حسن ص ٣٣١

٥ - الحياة العلمية :

ليس هناك أدنى شك في أن الحرب تحدث هلعاً في النفوس ، وبلبلة في الافكار ، وخمولاً في العقول ، مما يجعل الحياة العقلية مضطربة إن لم تكن متدهورة وهذا العصر الذي اصطبغ بالهول والذعر ، عصر المذابح والتدمير ، أحدث اضطراباً عنيفاً في الحياة العقلية في العالم الاسلامي كله ، فكم قتل هولاكو من العلماء ، وكم أتلف من المكتبات ، وكم أحرق من الكتب ، وكم خرب من المدارس ودور العلم والجوامع ، وكم قضى على معالم المدنية والعلم والعرفان ! ولكن بالرغم من هذا كله لم يقض على الثقافة العربية الاسلامية القضاء التام وكل ما حصل هو أن مراكز العلم انتقلت من الشرق إلى الغرب ، من العراق وخراسان إلى مصر والشام فبعد أن بسط المغول نفوذهم على الأراضي الواسعة من بلاد المسلمين هاجر الكثير من العرب المسلمين إلى مصر وكان من بينهم العلماء العظام والصناع المهرة ، وكان كثير منهم يحمل معه الكتب الثمينة والمخطوطات النفيسة لكي يحافظ عليها من الحرق والفناء . وهكذا قضي على العلم والعرفان في البلاد الاسلامية التي سيطر عليها المغول ولم يعد هناك من يشجع العلم والادب ، ويرعى العلماء والأدباء ، بل لقد قتل المغول من أهالي البلاد من كانوا نواة الحضارة الاسلامية وتركوا البلاد بين شرذمة من الأتراك لا يعرفون للحضارة طعماً (١)

أما مصر فقد أصبحت مركز الثقافة الاسلامية ، وكعبة العلماء والادباء ، يحجون اليها من كل حدب وصوب ، لاهتمام المماليك - أو بعضهم - فيها بالعلم والأدب ورعايتهم العلماء والأدباء وقد تكاثرت المدارس فيها وفي الشام حتى صارت تعد بالمئات ، وأهمها في القاهرة ودمشق وأول من أنشأ

(١) الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ حمدي ص ٢٦٦ .

المدارس في الشام السلطان (نور الدين زنكي) واقتدى به من جاء بعده من الملوك والسلاطين وتنوعت المدارس حسب أغراضها ومذاهبها ، فللتفسير والحديث ، والفقه للشافعية والحنفية ، والمالكية والحنبلية ، وللطب والفلسفة والرياضيات وتخرج في هذه المدارس الكثير من العلماء [1] ، فطالب العلم إذاً يجد في المدرسة كل العلوم ؛ علوم الدين واللغة والطبيعة وغيرها . يجد كل ذلك في المدرسة ويحصل عليه بسهولة ودون أيّ عناء ، لأن الأساتذة في المدرسة منصرفون إلى العلم والتعليم ، والطلبة منكبّون على الدرس والتحصيل وحتى وسائل العيش كانت مكفولة للطالب والأستاذ ، فكانت توقف أوقاف كثيرة للصرف على المدرسة ، وترتب للأساتذة والطلاب المرتبات الوافرة ، والجراية الدارّة ، والأغذية من اللحم والحلوى والفاكهة والصابون وكان للمدرسة أطباء وصيادلة ومكتبة [2] ، وقد اتسعت المكتبات واحتوت أنفس الكتب ، واقتنى السلاطين وغيرهم الكثير من الكتب المفيدة ، فأصبح من السهل الحصول على الكتب ونسخها والنقل منها وهكذا أصبح طلب العلم سهلاً ميسوراً في مصر وكثرت مراكز العلم فيها ، فصارت في القاهرة والاسكندرية والفيوم وغيرها بعد أن كانت في بغداد وبخارى ونيسابور والري [3]

* * *

وقد تحسنت الاحوال في العراق فلم تستمر كما كانت عند ما سقطت بغداد وهوت الحضارة العباسية ، فبعد أن استقر المغول في البلاد الاسلامية استطاعوا أن يتفهموا تدريجاً كنه الحضارة التي وجدوها في هذه البلاد ، فدعاهم ذلك إلى العناية بالعلماء ، وخاصة بعد أن تأسست أسرة (إلبخانات

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ ص ١١٥

(٢) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٥٨

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ ص ١١٣

المغول) في فارس ، إذ تطبع أفرادها بالطابع الاسلامي ، وكانوا في الوقت نفسه يرتبطون باخوانهم المغول في شرقي آسيا برابطة الدم ، وأدى ذلك إلى سهولة تبادل الثقافات بين شرقي آسيا وغربها [١]

أجل ، فان الحروب والغزوات تصحبها فترات خمول في النفوس واضطراب في العقول ، ولكن هذا الاضطراب والخمول لا يلبث أن يزول ، إذ أن بالتقاء الشعوب تحتك الحضارات فيؤثر بعضها في بعض ، تؤثر حضارة الغالب في المغلوب ، وتأخذ حضارة الغالب من حضارة المغلوب وبعد فترة صراع بين الحضارتين تنتج حضارة جديدة مطعمة من هاتين الحضارتين تحتوي على مزايا عديدة وبعد أن استقر المغول لم يدم ذلك الخمول العقلي والركود الفكري في البلاد الاسلامية إلا فترة محدودة ، إذ أن النشاط في الميدانين العلمي والأدبي لم يلبث أن عاد بعد أن هدأت عاصفة المغول ، ويرجع ذلك إلى أن بعض المؤلفات العلمية نجت اتفاقاً من أيدي المغول وخاصة ما كان منها في المدن الجنوبية من الدولة الخوارزمية ، ثم أن المغول أخذوا يتقبلون آراء المسلمين وأفكارهم ، ورغبوا تدريجاً في اعتناق المدنية الاسلامية والدين الاسلامي ، فبرز الكثير من العلماء والادباء بفضل تشجيع المغول[٢] (فنصير الدين الطوسي) العالم الفلكي العظيم كانوا يحترمونه ويرعونه ، وأسرة (الجويني) أسبغوا عليها أكبر الفضل فكان لها قصب السبق في نشر العلم وبرز منها أمثال (علاء الدين عطا ملك)، وكذلك (رشيد الدين) صاحب كتاب « جامع التواريخ » وهكذا انتج هذا الاختلاط بين العرب والمسلمين وبين المغول حضارة جديدة ظهر فيها طابع الحضارة الصينية ، فما لا شك فيه أن المغول تأثروا بالصينيين ونقلوا الكثير من معالم حضارتهم واقتبسوا منهم الشيء الكثير مما غيّر طبائعهم

(١) الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ حمدي ص ٢٦٨ .

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

الوحشية وهكذا استطاع المسلمون - ولو بعد حين - أن يستعيدوا بعض ما فقدوا ، وأن يعيدوا بنـــاء بعض ما هدم المغول وأن يصلحوا ما أفسدته أيديهم ، ليعيدوا حضارتهم العظيمة ، ونهضتهم المباركة ، ولـكن المـكانة الأولى بين الدول الاسلامية بقيت لمصر وحدها .

* * *

ومما لا شك فيه أن اضطراب الحياة في كل مظاهرها كان يفعل فعله في الحياة الفـكرية والعلمية ، فهي مرآة تنعكس عليها شتى مظاهر الحياة المختلفة فـكانت الحيـاة الفـكرية إذاً ، بعد تلك المذابح المخيفة والمعارك الدامية والدمار المبيد ، متشعبة متضاربة تشعبت فيها المناهج واختلفت الطرق ، وتناحرت فيها الآراء واصطرعت الأفـكار . فالعلماء اختلفت مناهجهم وتضاربت آراؤهم وتباينت مبادئهم ، فاشتبكوا في مجادلات عنيفة ، والتحموا في معارك فـكرية حامية وامتدت هذه المنازعات إلى جميع الفرق من دينية وعلمية وسياسية ، فـكان النزاع على أشده ، كل فريق يؤيد رأيه بالحجج والبراهين ولـكن أساس هذه المجادلات لم يكن الاقناع الصحيح ، ولم يكن الجدل علمياً بحتاً مبنياً على الحقيقة وطلبها ، بل كان أساسه التعصب لفـكرة معينة أو التشبث برأي خاص ، لذلك فقد هذا الجدل أهم فوائده ، فما كان ينتج إلا العداوات والمنازعات والمشاحنات والتفرقة بين الناس ، وصاروا فرقاً وأحزاباً ، وجرهم هذا إلى الدس والوقيعة والمؤامرة والخديعة ولـكن قد لا تخلو هذه المنازعات والمنافسات من فائدة ، فقد ساعدت على نشر العلم والمعارف بين الناس ، لأن كل جماعة تريد أن تنشر مبادئها وعلومها وآراءها ، فترغب الناس في التعليم وتساعدهم عليه ، وقد اهتموا بعمل الموسوعات الـكبيرة التي تضم أشتاتاً مختلفة من العلوم والمعارف والآداب ، فهي كتب جامعة تبحث في كل شيء (كنهاية الأرب في فنون الأدب للنويري) ، و (صبح الأعشى للقلقشندي) ، و (مسالك الأبصار للعمري) وكانت هذه الموسوعات

أشبه بدوائر المعارف ، يجد فيها طالب العلم والأدب كل ما يحتاج اليه .

ولا جدال في أن العلوم طرأ عليها شيء من التغيير فبعضها قد تطور وبعضها قد توسع ، ومنها ما ضعف الاهتمام به ، ومنها ما زادت العناية به . ومال الكثير من الناس إلى العلوم الدينية لأن الاضطراب الذي حدث والمذابح التي وقعت في هذا العصردعت الناس إلى الالتجاء إلى بارئ الخلق مبتهلين إليه أن ينقذهم من هذه المحن ويخلصهم من هذه الكوارث ، وتقربوا إليه بالعبادة وترتيل القرآن والاهتمام بعلوم الدين والتعمق في التصوف ، وحتى العلوم الأخرى أخضعوها للدين ، ولكن لا شك أن هناك من خلط حقائق الدين وأصوله بقشور لا صلة للدين بها ، وهو منها براء

فكانت هناك علوم التصوف والتفسير والقرآن والحديث والفقه ، وقد ألفت فيها المجموعات الضخمة ونبغ فيها الكثير من العلماء وكان هناك علوم اللغة ؛ من نحو وصرف وعروض وبيان وما إلى ذلك ، وقد كتبت فيها الكتب العظيمة ونبغ فيها كثير . وهناك العلوم الأخرى كالتاريخ والجغرافيا وعلوم الكلام والطب والهندسة والفلسفة . . .

* * *

وكان في الحلة نهضة علمية عظيمة بدأت منذ تأسيسها واستمرت حتى عصر المغول وقــد حملت طوال هذه العصور مشعل الحضارة إلى جانب بغداد ، وكانت مركزاً عظيماً للثقافة العربية الاسلامية ، خاصة لعلوم الشيعة الامامية . وظلت جذوة العلم لا تنطفيء في الحلة بالرغم من الكوارث التي مرت بالعالم الاسلامي ، والمحن التي حلت به وقد ساعد على هذه النهضة عوامل عديدة أهمها :

١ ـ إن الأمراء المزيديين الذين أسسوها كانوا محبين للعلم فشجعوا العلماء وساعدوا على انتشار العلوم والمعارف وبذلوا الاموال الطائلة لهذا الغرض ، فأصبحت الحلة جامعة علمية يقصدها الكثيرون من أقصى البلاد لينهلوا العلم بها .

٢ - نجاة الحلة من كوارث هولاكو ، فسلمت الثقافة ودورها ، من مدارس ومكتبات ، من دمار محتم ، واستطاعت أن تظل تتدرج في سلم الرقي والمجد فازدهرت في زمن انهيار كثير من مراكز العلم الاسلامية كبغداد وغيرها.

٣ - استطاع الحليون أن يقتنوا المخطوطات النادرة والكتب النفيسة والموسوعات الفريدة بعد المذابح التي أوقعها هولاكو بأهل بغداد ، إذ كانوا يصدرون الأطعمة إلى بغداد ويبيعونها بأثمان باهظة يشترون بها هذه الكتب ويدرسونها ، فساعدتهم كثيراً على الاطلاع على آخر ما وصل إليه العلماء من علوم وعرفان وصناعات

٤ - سهولة اتصال الحلة ، منذ تأسيسها ، بمراكز العلم الأخرى بطريق الفرات - كالبصرة وغيرها - وعن طريق البر - كبغداد والنجف - فكانت تتزود منها بالعلم وتتبادل معها العلماء والكتب ، وكانت بينها وبين تلك المدن منافسة شديدة .

كانت هذه النهضة مزدهرة أعظم ازدهار ، وظلت ترقى في زمن المغول في شتى العلوم ، فكان لعلوم الدين مكان مرموق واهتمام عظيم من تفسير وحديث وأصول وفقه ، وبخاصة فقه الشيعة وكان لعلوم اللغة أيضاً منزلة عظيمة من نحو وصرف وعروض وبيان وكان هناك اهتمام بالتاريخ وأيام العرب وأخبارهم وحروبهم ، وبالعلوم الطبيعية والفلسفية وغيرها .

وكان العلماء الذين نبغوا في هذه العلوم كثيرون ، فازدهر القرن السابع بعلماء الامامية ومؤلفي علم الكلام وغيرهم ، منهم : (الحسن بن معالي الباقلاني) وكان من أئمة العربية ، و (ابن بطريق الأسدي) وكان من المتكلمين وله مصنفات كثيرة ، و (ابن نما الربعي) شيخ فقهاء عصره ، و (رضي الدين ابن طاووس) زعيم آل طاووس أهل العلم والتقى ، و (أبو القاسم المحقق) الذي حاز من المكانة العلمية ما لم يحزه غيره وغيرهم كثيرون وفي القرن الثامن نبغ منهم : (تقي الدين بن داوود) العالم النحوي المحقق الكبير ،

و (تاج الدين بن معيه الديباجي) العالم الفاضل الفقيه الحاسب ، و (العلامة الحلي جمال الدين أبو منصور) الذي طار صيته في الآفاق وأكبر علماء الامامية ، ومنهم شاعرنا (صفي الدين الحلي) الذي تأثر بهذه النهضة المباركة .

* * *

وكان في (ماردين) نهضة علمية أيضاً حين دخلها الصفي ؛ فمع أنها ذات حضارة عريقة إذ تقلبت على حكمها أمم مختلفة من فرس وروم وعرب وأتراك ، أبقت كل أمة كثيراً من معالم حضارتها فيها فقد كان ملوكها كذلك يشجعون العلم ويرعون العلماء منذ القديم : (كأحمد بن مروان) وغيره وأنشأوا فيها المدارس الكثيرة والجوامع العظيمة ولم يدخر الأرتقيون جهداً لتشجيع العلم فرعوا العلماء وأنشأوا المدارس والمكتبات ، إذ أنشأ (حسام الدين تيمور طاش) المدرسة الحسامية ، وقد دفن فيها لحبه للعلم ، وكذلك كان (الملك المنصور) الذي عاصره صفي الدين الحلي محباً للعلم مشجعاً للعلماء يكرمهم ويعلي قدرهم ، يهتم بالمدارس والمكتبات ، وقد أكرم الصفي وأعلى من منزلته لعلمه وفضله وكان ابنه (الملك الصالح) يترسم خطاه فكان يجالس العلماء ويقربهم إليه ، ويقضي لهم حاجاتهم فلقي منه الصفي ما لقي من أبيه من تشجيع وتقدير .

٦ – الحياة الادبية :

إذا كان العلم قد استطاع أن يجد معيناً له في محنته التي أصابته في هذا العصر ، فحافظ على شيء من مستواه وأبعد عنه القضاء المحتم الذي كاد يفنيه عند هجمات المغول على العالم الاسلامي ، ووجد بعض العوامل التي حفظته وصانته ، فان الأدب لم يتهيأ له مثل ذلك ، فقد انتهى عصر عشاق الأدب

من أمراء وخلفاء وغيرهم ممن كانوا يطلبون العلم ويتلذذون بسماع الشعر ويطربون له ، وكثيراً ما ينظمون الأشعار وبينما كان الشاعر والأديب يشتهر بقصيدة أو حكاية واحدة أصبح السلاطين المغول اليوم يهتمون بتدوين حسابات دولتهم ، وخط الخرج والدخل ، وتدريب الجند وقد اهتموا بالطب لحفظ الأبدان ، والأمزجة ، والنجوم لاختيار الأوقات(١) . وكذلك كان الاهتمام بالعلوم الدينية لالتجاء الناس إلى الله هرباً مما حلّ بهم من محن وكوارث ، فارتقت هذه العلوم واستطاعت أن تحافظ على مستواها - وإن لم يكن ذلك المستوى الرفيع الذي تمتعت به في أيام العباسيين - إذاً فلأمر ما كان الاهتمام بالعلوم ، أما الأدب فلم يكن هناك من يهتم به ، ولم يكن هناك من يرعى المشتغلين به ، وكيف يرعى الحكام الأدب والأدباء وهم لايعرفون العربية ؟ فمعظمهم أتراك يتكلمون التركية ويلوون ألسنتهم بالعربية فلا يستطيعون أن يلفظوا بعض ألفاظها .

وهكذا أصاب الأدب خمول وركود ، وطغى على القرائح ضعف وهمود ، وسيطر على الأذهان عجز وخمود ، واستولى على النفوس رعب وجمود فلم تعد دولة الأدب تلك الدولة العظيمة ، ولم يعد للشعر ذلك الميدان الواسع وتلك الثروة الكبيرة ولم نعد نجد من الشعراء ذلك العدد الضخم الذي نعرفه في العصور السابقة وإن وجد عدد منهم فلم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة التي كانوا يستطيعون بها أن يفعلوا ما يشاؤون لأن كلمتهم مسموعة عند الخليفة نفسه ولم تعد تجرى عليهم تلك العطاءات السخية والأموال الوفيرة ، التي تغنيهم عن أي عمل للحصول على المال وتوفر لهم أكثر القوت - وبخاصة بعد أن أوجد لهم الخليفة الناصر (ديون شعراء الديوان) ورتب لهم المرتبات الدائمة - في حين أن شعراء اليوم لا يجدون حتى لقمة يسدون بها رمقهم إذا اتكلوا على الشعر وحده ولم يشتغلوا بعمل آخر . اللهم إلا في مصر التي كانت

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان ج ٣ ص ١١٦

أحسن حالاً وأوفر حظاً من الأقطار العربية الأخرى ، إذ كان المماليك يقربون الشعراء ويرعون الأدباء ويمنون بالشعر لكنهم صرفوهم إلى التأليف في الآداب والعلوم ، وآثروا على شعرهم أناشيد الزجالين ، لأن عجزهم عن فهم العربية الفصحى حبب اليهم الزجل فأثابوا أصحابه فكثر القول فيه وانتشر ، وصار الناس يتغنون به دون الفصيح وكثر القول أيضاً في الموشحات لقربها إلى العامية وسهولتها على العامة .

وفي هذا العصر تولد أيضاً ضرب من الشعر اقتضاه فساد الفصحى لكثرة الأعاجم فتولدت طبقة من الشعراء المستعجمة كانوا ينظمون أغراض الشعر المعروفة بلغتهم التي تخلو من الاعراب وتحتوي على كثير من الألفاظ العامية يبتدئ الشاعر في هذه القصائد بذكر اسمه ثم يستطرد إلى النسب فالموضوع الذي يريد النظم فيه وأهل المغرب يسمون هذه القصائد (الأصمعيات) نسبة إلى الأصمعي الراوية ، وأهل المشرق يسمونها (الشعر البدوي) . وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة ويسمون الغناء به (الحوراني) نسبة إلى حوران من أطراف العراق[1] وجدّت أيضاً فنون أخرى من الشعر العامي غير (الزجل) (كالموالي) و (القوما) و (الكان وكان) . وقد نشأت في بغداد وانتقلت إلى غيرها من البلدان خصوصاً مصر وقد نظم صفي الدين في كل هذه الفنون الشعرية وألف كتاباً خاصاً بها سماه (العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي) درس فيه فنونه وأنواعه .

* * *

ولما كان الشعر مرآة الحياة ، تنعكس عليه مظاهرها المختلفة ، فقد ظهر فيه الانحطاط الذي دبّ في كل مظاهر هذا العصر ، فبان الضعف فيه ، بل خرّ من عليائه إلى الحضيض ، وفقد جماله ورواءه وصار كالشجرة التي أتلفها

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٩

الخريف حين تساقطت أوراقها الزاهية فصارت مجموعة عيدان جرداء وفقد ذلك الروح القوي وتلك الحيوية المتدفقة ، وصار جسداً لا حياة فيه لا يهز قلباً ولا يحرك عاطفة ، فهو ليس صادراً عن طبع شعري وصدق عاطفي ، ويغلب عليه التكلف والتمحل ويصطبغ بالصنعة والتقليد ، فالقصيدة عبارة عن ألفاظ مرصوصة وكلمات مرصوفة ، فلا عاطفة ولا وجدان ، ولا موسيقى ولا أي ميزة من ميزات الشعر فكأن الشعر يقال للصناعة لا لغيرها كالتجنيس والطباق والمجازات الغريبة والاستعارات العجيبة ، والأبيات المعجمة أو المهملة ، والشعر الذي يقرأ طرداً وعكساً وغير ذلك من الصناعات التي لا تخطر على بال . وكان لصفي الدين وأضرابه السهم الأوفر في مثل هذه الصناعات بمختلف أنواعها ، وكان هم الشعراء في هذا العصر التقليد ، فكانوا يقلدون الشعراء القدامى فكثرت المعارضات للقصائد المشهورة وكثر التخميس والتشطير والتضمين والاقتباس وسرقة المعاني وما شاكل ذلك .

وأما أغراض الشعر في هذا العصر فهي نفس الأغراض المعروفة في الشعر العربي . إلا أن هناك بعض أغراض زاد الاهتمام بها والاكثار من النظم فيها ، فالمجون زاد زيادة كبيرة للضعف الأخلاقي الذي زاد في المجتمع ، والانحطاط العام الذي طغى على الحياة فكان الشعر الماجن الخليع الذي أوغل الشعراء به في الخلاعة ، وأسرفوا في وصف الأخبار الفاحشة ، وتفننوا في استعمال الألفاظ البذيئة التي تقشعر لها الأبدان وكثر الغزل بالمذكر وكان يمجه الذوق ويأباه الطبع السليم وإلى جانب هذا الشعر كان شعر الزهد والتصوف فهناك طبقة مالت إلى التعبد وفزعت إلى الله تشكو اليه ليدفع عنها الكرب ويرفع البلاء العظيم وكانت وسيلتها التنسك والزهد والعبادة فكثر شعر التصوف الذي يعبر به هؤلاء عما يحسون به ويفكرون فيه وكثر كذلك مدح الرسول وآل البيت وتغنى الشعراء في ذكر القصص التي دعتهم إلى نظم هذه القصائد واخترع صفي الدين (البديعية) في مدح الرسول . وبجانب ذلك

كانت الأغراض المعروفة من مدح وهجاء وغزل ورثاء وفخر وحماسة

وأما المعاني فكانت سطحية أكثرها قديم مسروق من معاني الشعراء المتقدمين . فحول القرائح قطع عليهم الابتكار والتجديد في المعاني ، فكانوا ينقبون عن شعر من سبقهم فاذا وقعوا على معنى طريف تزاحموا عليه يقلدونه فيأتي تقليدهم مسخاً مشوهاً لا روح فيه ولما كانوا يتعبون أنفسهم في الصناعة البديعية ، كانت معانيهم تخدم تلك الصناعة .

وأما الألفاظ فكانت في منتهى الضعف والركاكة ، فأصبح الشعر غاية في الاسفاف ، وكثر فيه اللفظ العامي والشبيه بالعامي ، فلم يعد اللفظ يعبر عن المعاني التي يحسها الشاعر وإنما يكمل الصناعة أيضاً

هكذا كان حال الشعر في هذا العصر ، لكن . . . يجب أن لا ننسى أن جذوته لم تنطفئ بل ظل بصيص منها متقداً لينقل الروح الشعري إلى أجيال قادمة تقوم بالنهضة الأدبية الشعرية كما يجب فلا يمكن أن يضيع أدب أمة لها ما للأمة العربية من تراث خالد ، ولها ماضٍ حافلٌ بمئات الأطواد الشامخة من الأدباء والشعراء فكان في كل بلد عدد ضئيل من الشعراء المجيدين الذين كانوا هم الشعلة التي أضاءت والنور الذي سطع في عالم الأدب والشعر وكان من هؤلاء شاعرنا (صفي الدين) الذي ظل في شعره شيء من فصاحة اللغة ورشاقة الاسلوب وجمال المعنى وحلاوة التعبير .

ولم يكن النثر بأحسن حالا من الشعر ، فكلاهما دبَّ فيه الضعف ونخره الفساد ، وكلاهما رزيءٌ بما جمله ينوء بأثقال جسام وكلاهما عُدِم فرسانه المجلين وربما كان النثر أوفر حظاً من الشعر من حيث كثرة المتطفلين الذين داسوا حرمته وأهانوا كرامته فدسُّوا أنوفهم فيما ليس لهم فيه ناقة ولا جمل . صحيح إن الذين تطفلوا على الشعر - وهو منهم براء - كثيرون ولكن الذين تطفلوا على النثر أكثر ، فقد اقتحم ميدانه كل من هبَّ ودبَّ لسهولته وخلوّه من شروط الوزن والقافية وغيرها مما يشترط في الشعر وخرَّ من عليائه

ذلك النثر الجميل الذي كان يفخر به الكتاب ، كعبد الحميد الكاتب وابن المقفع ... حتى القاضي الفاضل ، وجاء مكانه كلام أشبه باللفظ ، تختلط فيه العجمة والرطانة ويمتاز بالركاكة والتفكك ويمتلئ صناعة بديعية ، ولا يكاد يخلو من السجع الذي يريد كاتبوه أن يحلّوه به أو يقربوه من الشعر . وكان محشواً بأبيات الشعر للاستعانة بها على تجميل الأسلوب ، دون جدوى وكانت أنواع النثر هي إنشاء الترسم ، وإنشاء المصنفين ، والخطابة . والجميع سواء في التدهور والضعف والانحطاط

* * *

وكان في (الحلة) نهضة أدبية امتدت جذورها منذ تأسيسها ، وساعد على ازدهارها عوامل عديدة منها

(أولاً) أن الأمراء المزيديين الذين أسسوها كانوا يحبون الأدب ويكرمون الأدباء والشعراء ويجزلون لهم العطاء ، وقد شاركوا مشاركة فعلية في النهضة الأدبية فكان الكثير منهم شعراء وأدباء وكانوا يعقدون النوادي الأدبية ، ويستمعون إلى قصائد الشعراء وينقدون ما يستحق النقد .

(ثانياً) إن بيئة الحلة عربية خالصة لأنها قريبة من البادية موطن الفصحى الأول ، ولأن المزيديين عرب أقحاح فهم من بني أسد .

(ثالثاً) لأن الحلة تمتاز بجمال مناظرها الخلابة ، وسحر طبيعتها الفاتنة ، وهذا مما ينشط القرائح ويرهف الاحساس ويعمق الشعور ويدفع الانسان دفعاً إلى التعبير عما يحس بشعر رقيق جميل

وقد سلمت هذه النهضة الأدبية حين نجت الحلة في هجمات المغول من الدمار والخراب فظلت النهضة سائرة في طريق التقدم والرقي ، وظلت شعلة الأدب ساطعة تكشف الظلام وقد شملت النهضة هذه كل فنون الأدب وأنواعه وكان هناك كثير من الادباء والشعراء وعلى رأسهم صفي الدين ،

فقد ولد بهذه البيئة المعبقة بعطر الأدب الزكي ، فنبغ في الشعر وصار شاعر عصره على الاطلاق

• • •

وفي (ماردين) كان الملوك يعملون للنهوض بالأدب ، فكانوا يرمون الادباء ويشجعون الشعراء ويجزلون لهم العطاء ويقربونهم اليهم كما فعل ذلك الملك المنصور مع صفي الدين ، إذ آواه وأكرم وفادته وأحسن ضيافته . وكان الملك الصالح ابنه يجالس الأدباء والشعراء ويحفظ الشعر وينقده ، وله ذوق في اختيار أجود الشعر وقد سار مع الصفي سيرة أبيه فكان يجله ويوقره .

البابُ الأوّل

سيرته من شعره

لئن ثلمت حدي صروف النوائب　　فقد أخلصت سبكي بنار التجارب
وفي الأدب الباقي الذي قد وهبتني　　جزاء، من الأموال، عن كل ذاهب
فكم غاية أدركتها غير جاهد　　وكم رتبة قد نلتها غير طالب

الفصل الأول

حياته

سأظل كل صبيحة في مهمه   وأبيت كل عشية في منزل
وأسير فرداً في البلاد وانني   من حشد جيش عزائمي في جحفل
أجفو الديار فان ركبت وضمني   سرج المطهم قلت : هذا منزلي

١ – نسبه ومولده ونشأته :

صفي الدين سنبسي طائي ، وطيء قبيلة عربية تنتمي إلى قحطان في اليمن ، فقد كانت تنزل الجوف من أرض اليمن وهاجرت بعد خروج الأزد عند سيل العرم وساروا إلى الحجاز واستوطنوا الجبلين ، وكان رئيسهم يومذاك (أسامة بن لؤي بن الغوث بن طيء) وقيل بل هاجر طيء نفسه عند سيل العرم ومعه أهله وسار حتى دخل أرض الحجاز ، وظل يوغل فيها حتى استوطن الجبلين ، إذ نزلوا (فيد) و (سميراء) بجوار بني أسد ، ثم غلبوهم على (أجأ) و (سلمى) ، وهما جبلان ، فاستقروا بها[1] ثم اتسعت طيء وكثرت كثرة عظيمة وانتشرت في البلاد وكانت لها مواقف عظيمة في الفتوح الاسلامية في الشام والعراق ، لذلك تفرقت شاماً وعراقاً وحجازاً وفي الحرب بين الامام علي (ع) ومعاوية كانت كثرتهم مع علي – كثير منهم أنصار معتدلون وقليل منهم شيعة متعصبون – وكانت قلتهم مع معاوية . . . ثم كان قسم منهم مع الخوارج فيما بعد إذا كان

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤

أبناء طيْ منقصمين على أنفسهم في الرأي ، ويعلل ذلك كثرتهم العظيمة وعدم تقيد أبنائهم برأي أقاربهم وأنسابهم إذا كانوا يرون بينهم خلافاً في المبدأ والعقيدة . ولما جاء العباسيون واستندوا في دعوتهم إلى إعادة الخلافة إلى آل النبي (ص) ، استمالوا الطائيين فكانوا يساعدونهم كثيراً ويدعون لهم . ثم اعتمدوا عليهم فيما بعد في حماية الثغور .

والطائيون أبطال شجعان أشداء ، فحين جاء (زيد الخيل) إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مبعوثاً من قومه عام الوفود ، قال لعمر بن الخطاب: أما بنو حية فلوكنا وملوك غيرنا . . . وهم القادة والحماة الذادة فسأله عمر ما تركت لمن بقي من طيء شيئاً ، فقال : بلى والله ، أما بنو ثعل وبنو نبهان وجرم ففوارس الغدوة وطلاعو النجدة [1]

والطائيون قوم كرماء يجودون بكل ما يملكون وأعز ما يملكون ، ويكفيهم كرماً أن منهم (حاتم الطائي) وكان في طيء شعراء كثيرون ، وفي كتاب الحماسة لأبي تمام أسماء كثيرة جداً منهم . ويكفي أن يكون منهم : (حاتم الطائي) في الجاهلية ، و (الطرماح) في العصر الأموي ، و (أبو تمام) و (البحتري) في عصر العباسيين .

و (سنبس) فرع من فروع طيء ، وفخذ من أفخاذها ، له ما لطيء من فخار ومجد وعز وسؤدد ، وقد انتشر هذا الفرع في العراق كما انتشر في مصر منهم كثيرون وكان في سنبس شعراء منهم : (محمد السنبسي) الذي كان شاعر المزيديين في الحلة في أيام (الأمير دبيس) .

وصفي الدين من سنبس ، ورث عن أجداده الشجاعة والاقدام وورث الكرم والفضل ، وورث الأدب والشعر فليس ذلك بجديد عليه أو غريب عنه ، وإنما هو متأصل في أعماق نفسه لأنه عند آبائه الأولين أصيل

وإن أشبهتهم في الفخار خلائقي   وفعلي فهذا الراح من ذلك الكرم

---

(١) الأغاني لأبي الفرج ج ١٦ ص ٤٩

فالصفي يصرح بذلك في شعره ، ويعرف أنه وارثه عن أجداده لذلك رأيناه لا يفخر بنفسه فحسب وإنما يفخر بنفسه وبقومه معاً :

إنما مفخري بقومي ونفسي وقناتي وصارمي وجوادي
معشر أصبحت فضائلهم في الأرض تُتلى بألسن الحسّـــاد

ويظهر لنا أن أم صفي الدين طائية سنبسية أيضاً لأننا نجده يقول :

فكيف ولم ينسب زعيم لسنبس إلى المجد إلا كان خاليَ أو عمي

فما دام السنبسيون أعمامه وأخواله فأمه وأبوه سنبسيان . وليس هذا بغريب ، فالعرب يحبون الزواج من أقاربهم ليحفظوا دمهم نقياً دون أن يختلط بدم أجنبي .

* * *

وقد ولد الصفي يوم الجمعة الخامس من ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وستمائة للهجرة النبوية الشريفة (٦٧٧) الموافق السادس والعشرين من (آب) - أغسطس - سنة ثماني وعشرين ومائتين وألف ميلادية (١٢٢٨) في بيت من البيوت الكريمة في الحلة

وهذا التاريخ هو الذي أجمع عليه كل من ترجم له وكتب عنه من المتقدمين والمتأخرين ، كجمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي في النجوم الزاهرة والمنهل الصافي ، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات وأعيان العصر ، وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ، وابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة وغيرهم . إلا أن جمال الدين بن تغري بردي ينقل في كتابه المنهل الصافي رواية أخرى عن (البرزالي) ، أنه ولد سنة ثماني وسبعين وستمائة ولم يذكرها غيره ، ولم يشر اليها أحد ، ولهذا لن نستطيع أن نأخذ بها ، ورجحنا سنة سبع وسبعين وستمائة لاتفاق الآراء عليها

* * *

واسمه عبدالعزيز بن سرايا بن أبي القاسم بن أحمد بن نصر بن أبي العز ابن سرايا بن باقي بن عبدالله بن العريض السنبسي الطائي . وأما كنيته فأبو الفضل وأما لقبه فصفي الدين ، وقد كان استعمال الألقاب شائعاً في ذلك العصر خصوصاً ما يضاف إلى الدين كشمس الدين ويلقب كذلك بالحلي نسبة إلى مدينة الحلة التي أنجبته ، فكأن ذلك اعتراف بجميل البلد عليه ، ونخر للبلد الذي أنجب أعظم شعراء عصره

* * *

نشأ الصفي في مدينة الفيحاء الزاهرة ، وفي جوها العربي الصرف وطبيعتها الساحرة ، وبين أهلها الكرام الأعزاء ترعرع . وكانت نشأته نشأة مترفة ، لأنه ابن قوم هم أكبر أعيان الحلة فربوه تربية ترف ونعيم وكانت حياته حياة هناء وهدوء بال وطمأنينة نفس وكان محبوباً بين الناس ، عزيزاً بين أقرانه ، وكثر خلانه وأصدقاؤه حتى رأى ذلك أمراً طبيعياً فقال

ومن يك مثلي كامل النفس يغتدي قليلاً معاديه كثير المصاحب

وكان يلهو مع أقرانه لهو أولاد الأشراف ، فكان يخرج معهم إلى الصيد ليمتع نفسه بنزهة بريئة أو رحلة مسلية :

فقم فقد تمّ لنا طيب الهنا والدهر قد منَّ علينا بالمنى
والعيش قد رقت حواشيه لنا ومسعدي شرخ الشباب والمنى

فهو غني موفور الغنى ، شاب مملوء حيوية وصحة ، فلم لا يلهو هذا اللهو ولم لا يسري عن نفسه ؟ وإلى ذلك كله فهو يعود نفسه ، بهذه الرحلات ، على شظف العيش وخشونة الحياة ليصبح رجلاً يمكنه أن يعتمد على نفسه حين تقسو الظروف ، وليتدرب على مبادئ تنفعه عند خوض المعامع ، كالرماية وإصابة الهدف وركوب الخيل ومطاردة وحش الفلاة ، لأن عصره يتطلب من الرجل أن يكون هكذا وأكثر لما اصطبغ به من الفتن والقلاقل والاضطرابات . فأتقن الفروسية - وإن كان أولاد الأشراف يتعلمونها على

كل حال - وأصبح فارساً مقداماً ، وبرع في ركوب الخيل أيّ براعة ، وصار يشار إليه بالبنان في الشجاعة والبطولة ، حتى كان يود أن يظل طوال حياته لابساً الدرع والزرد ، لباس الحرب والقتال :

ومسرودة من نسج داود نثرة   كلمع غدير ماؤه غـير ذائب
وأسمر مهزوز المعاطف ذابـل   وأبيض مسنون الغرارين قاضب

وعندما كبر الصفي واشتد ساعده ، واتسعت مداركه ، وغدا رجلاً يمكنه أن يعتمد على نفسه ، بدأ يجرب حظه في مممان الحياة ويخوض غمرات أعمالها فاشتغل بالتجارة ، وصار يجوب البلاد متنقلاً من بلد إلى بلد آخر ، يبيع ويشتري ، يربح أو يخسر . واستفاد من هذه الرحلات في اتساع الأفق ، وعمق التفكير ، وكثرة التجارب ، ووفرة المال ، فاقتنى الخدم والمماليك ، وملك الدور والقصور .

وتزوج صفي الدين ، إلا أنه ليس لدينا ما يوضح هذا الزواج ، كيف كان ومتى تم ؟ ومن هي التي تزوج بها ؟ . . . أكبر الظن أن سبب ذلك محافظة أهلها وأهله ، فهم عرب يعطون التقاليد العربية ما توجب ، ومسلمون يحافظون على تعاليم الاسلام ، فلا يمكن أن يترك الصفي مثل هذه الأمور ، التي تُعتبر سراً عائلياً ، مشاعة للجميع . ولا نعرف كذلك ما رزقه الله من أولاد ، إلا أننا وجدناه يرثي ابناً له في سنة (٧٢٦ هـ) في قصيدة رثى بها ابني عمه وأخاه وصديقه ومملوكه معاً :

أفي الست والعشرين أفقد ستة   جبالاً غدت من عاصف الموت كالعهن
فقدت ابن عمي وابن عمي وصاحبي   وأكبر غلماني ، بها ، وأخي وابني

ولكن كم كان عمر هذا الولد وما اسمه ، وهل كان له اخوة وأخوات وأين كانوا ؟ كل هذا لا نجد ما يدل عليه أو يوضحه ! !

* * *

نشأ الصفي في جو شاعري ساحر ، وبيئة أدبية علمية ، فرقّ إحساسه ورهف شعوره ، وتهذب طبعه ، وجاشت عاطفته ، فأحب الشعر وهو صبيٌّ لم يتجاوز السابعة من عمره ، وحفظ الكثير من شعر الفحول ، كامرئِ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، والمتنبي وغيرهم وفي السنة السابعة أو بعدها بقليل قال شعراً حسناً وقد صرح بهـــذا في مقدمة ديوانه

« وبعد فاني كنت قبل أن أشبّ عن الطوق ، وأعلم ما دواعي الشوق ، لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنىً ولفظاً »[١]

فهو ينظم الشعر ولم يزل صبياً لم يدرك معنى الشوق ولم يعرف دواعيه بعد . وكان يحبه حباً جماً حتى قال :

وإني لمغرىً بالقوافي ونظمها   ويبلغ بي حدّ السرور بليغها
وأطيب أوقاتي من الدهر ليلة   تريغ القوافي خاطري وأريغها
فـــا سرّني إلا كلام أسيغه   بمسمع داعٍ أو معانٍ أصوغها

وقـــد رثى القاضي (تاج الدين بن وشاح الحلي) الذي توفي سنة (٦٩٠ هـ) بقصيدة عظيمة وكان سنه يومذاك لا يزيد على ثلاثة عشر عاماً ومطلع هذه القصيدة :

لو أفادتنـــا العزائم حالا   لم نجد حسن العزا محـــالا
كيف يولي العزم صبراً جميلاً   حين وارى الترب ذاك الجمالا

ولـكن شعره هذا لم يكن إلا في أغراض خاصة كالحماسة والرثاء والوصف والغزل ، أما غير ذلك فهو يتعفف عنه ، ويترفع عن النظم فيه .

---

(١) الديوان ص ٣

٢ - في الامصار الاسلامية :

كان لأسرة الصفي الرئاسة في الحلة ، وكان خاله (صفي الدين بن حمزة بن محاسن) (صدراً) فيها ، وكان ينافسه على هذا المنصب كثير من وجوه الناس ، فـكثر حساده وتعدد أعداء الأسرة وحين اختل النظام واضطرب الأمن في العراق في أواخر أيام السلطان (غازان) استطاع آل أبي الفضل أن يقتلوا الصدر (صفي الدين عبدالرحمن بن حمزة بن محاسن) غدراً بمسجده إشفاءً لحسدهم .

وكان هذا العمل نازلة كبيرة حلت بآل الصفي ، وهم الأعزة الـكرام الذين لا يرضون المذلة ، ويلتجيء اليهم كل خائف ، ويحمون كل طريد ، فصاروا يتحينون الفرص للايقاع بآل أبي الفضل وصار الصفي يترقب اليوم الذي يثأر فيه لخاله وجعل يحرض أخواله وأقاربه على النهوض بأخذ ثأرهم :

لا تتركِ الثأر من قوم صادهم إخفاء ذكر لنا في الناس منتشر

وظل الصفي ينفخ بوق الحرب ويضرم نار القتال ، للأخذ بالثأر محرضاً أقاربه وأنسابه ، لـكنه بُح صوته ولم يجبه أحد ، حتى الذين كان معهم في أيامهم المدلهمة فلنستمع إليه يخاطب أحد أصدقائه قائلاً :

وعدت جميلاً وأخلفته وذلك بالحر لا يجمل
وقلت بأنك لي ناصر إذا قابل الجحفلَ الجحفل
وكم قد نصرتك في معركٍ تحطم فيه القنا الذبَّـل

وكان أقاربه أول من أخلف الوعد فلم يقدموا له شيئاً من العون ، فيئس منهم وقال لخاله مشيراً إلى ذلك :

قلَّـوا لديك فأخطأوا لمـا دعوتَ فأبطأوا
وتبرعـوا حتى تصول فحـين صلت تبرأوا

دعهم فما كل الأشدة للشدائد تخبأ
فلديك منا فتية عن ثأرها لا تفتأ

فالصفي يحرض خاله على خوض الحرب بأهله الأقربين دون الالتجاء إلى الأنساب والأصهار ، وهو يخبره أن في أقاربه الأدنين فتية لا تترك الثأر أبداً .

وأخيراً وقعت الواقعة إذ جاء اليوم الموعود ، وكان يوماً له ما بعده ، فقد اشتبكوا في القتال فطحنت الحرب الفرسان طحناً ، وتحطمت السيوف بأعضاد الرجال ، وسالت الدماء غزيرة . تلك هي (وقعة الزوراء) التي وقعت في أرض قفراء واسعة قرب بغداد ، وعند قبر (عبيد الله بن محمد بن عمر العلوي) الذي يذكره الصفي بقوله :

وسائلي العرب والأتراك ما فعلت في أرض قبر (عبيد الله) أيدينا

وقد خاضها الصفي فأبلى بلاءً حسناً ، وأبدى من البطولات ما يشهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ، وقتل من أعدائه الفرسان الشجعان . قال في ذلك :

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا؟
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد دنّا الأعادي كما كانوا يدينونا
بضمّر ما ربطناها مسومة إلا لنغزو بها من بات يغزونا

ولكن الصفي بعد هذا كله أصبح مطالباً بدماء كثيرة وثأر لا ينتهي ، فلم يجد بداً من الرحيل عن العراق ، فقد كثر أعداؤه وصاروا يتربصون به الدوائر للفتك به ، وليتهم يلقونه في ساحة حرب وميدان جلاد ، لكنهم يريدون قتله غدراً كما قتلوا خاله من قبل فاضطر إلى مغادرة وطنه سنة (٧٠١ هـ) إلى (ماردين) ولسان حاله يقول :

كل الذين غشوا الوقيعة قتلوا ما فاز منهم سالماً إلا أنا
ليس الفرار عليّ عاراً بعد ما شهدوا ببأسي يوم مشتبك القنا

إن كنتُ أول من نأى عن أرضهم ... قد كنت يوم الروع أول من دنا
أبعدت عن أرض العراق ركائبي ... علماً بأن الحزم نعم المقتنى

* * *

وسار الصفي في رحلة طويلة شاقة ، يقطع الفيافي والقفار يتنقل من بادية إلى أخرى ، ويمر بوادٍ تلو الآخر ، وحيداً فريداً ليس معه إلا فرسه وسيفه وهو يصور لنا رحلته خير تصوير بقوله :

شفّها السير واقتحام البوادي ... ونزولي في كل يوم بوادي
ومقيلي ظل المطيــة والتر ... ب فراشي وساعداها وسادي
وضجيعي ماضي المضارب عضب ... أصلحته القيون من عهد عاد
أبيض أخضر الحديدة ممـا ... شقّ قِدماً مرائر الأجساد
وقميصي درع كأنّ عراها ... حبك النمل أو عيون الجراد
ونديمي لفظي وفكري أنيسي ... وسروري مأني وصبري زادي
ودليلي حسن التوسم في البيـد لبادي الأعلام والأطواد
وإذا ما هوى الظلام فكم لي ... من نجوم الظلام في الليل هادي

وتنقل في هذه الرحلة من بلد إلى آخر ، ولكنه كان يحث السير ويسرع الخطى ، لأن له وجهة يقصدها ، فهو لا يقف في البلد الذي يمرّ به إلا ليستريح ويريح مطيته ويتزود بشيء من الزاد ثم يواصل السير من جديد :

جبت البلاد ولست متخذاً بها ... سكناً ولم أرض الثريا موطنا
حتى أنخت (بماردين) مطيتي ... فهناك قال لها الزمان لك الهنا

فهو يقصد (ماردين) ، ليحتمي بكنف الملوك الأرتقيين ، فهم معشر يشتد بهم أزره ويأمن من شر الزمان :

ولكنّ لي في (ماردين) معاشراً ... شددت بهم ، لما حللتُ بها ، أزري
ملوك إذا ألقى الزمان حباله ... جعلتهم في كل نائبة ذخري

ودخل الصفي (ماردين) فاستقبله أهلها أكرم استقبال ، وتلقاه ملكها

(المنصور نجم الدين غازي بن أرتق) أعظم لقاء ، فقال يخاطبه في ذلك :

لاقيتنا ملق الكريم لضيفه ... وضممتنا ضمّ الكميّ لسيفه
وجعلت ربعك للمؤمّل كعبة ... هي رحلة لشتائه ولصيفه

ولنستمع إلى الصفي يصف رحلته إلى (ماردين) ودخوله إياها في مقدمة ديوانه

« ثم جرت في العراق حروب ومحن ، وطالت خطوب وإحن ، أوجبت بعدي عن عريني ، وهجر أهلي وخديني فلما أحسنت إليّ مساءات الزمان ، وأرضاني سخط الحدثان ، بحطّ رحالي بفناء الملوك بني الملوك ، كهف الغني والصعلوك ، فخر الأواخر والأوائل ، ملوك ديار بكر بن وائل ، الأرتق راتق فتق الدين ، جابري كسر الاسلام والمسلمين

فقيدتني عنــدهم أنعمٌ ... هنّ قيود الأمل السائح
ووكلت فكري بمدحي لهم ... مكارم المنصور والصالح

فمذ ثبتوا بالاحسان قدمي ، وصانوا عن بني الزمان وجهي ودمي ، حمدت لقصدهم مطـــايا الآمال » فهو يحدثنا كيف اتجه إليهم ، ويصور لنا إكرامهم له واستقبالهم إياه أعظم استقبال ، فاطمأن في أرضهم ، وارتاح في حماهم ، وتخلص من الهموم التي كانت تملأ نفسه ، فكتب لأهله في الحلة ساعة وصوله :

ألا بلّغ ، هديت ، سراة قومي ... بحــلة بابل عند الورود
ألا لا تشغلوا قلباً لبُعدي ... فأني كل يوم في مزيد
لأني قد حللت حمى ملوك ... ربوع عبيدهم كهف الطريد
فمن يك نازلاً بحمى كليب ... فأني قد نزلت حمى الأسود

* * *

ولعل سؤالا هاماً يثار هنا ، هو : لماذا اختار الصفي ماردين دون غيرها من بلاد المسلمين ؟

ترى أنوفق في الاجابة عنه ؟

لاشك أن هناك أسباباً كثيرة جعلت صفي الدين يختار ماردين دار هجرة ومحط رحال ولا يفكر في غيرها وهي

أولاً - كانت ماردين تتمتع بحياة هادئة هدوءاً شاملاً بالنسبة إلى البلدان العربية والأقطار الاسلامية - على الأقل - وخصوصاً في عهد الملك المنصور الذي قال عنه صاحب (تاريخ ماردين) « كان صاحب شوكة وسلطان ... يرى في زمنه الشاة والذيب ، وينسى أوطانه كل غريب ، وأصبحت ماردين به عامرة ، والأسواق كثيرة وافرة ، والأسعار رخيصة متكاثرة »[1] فهذا الوصف وإن كان فيه مبالغة لا تقبل إلا أنه دليل أكيد على الهدوء والاستقرار والرفاه الذي كانت تتمتع به ماردين ، فلم لا يتجه الصفي إلى هذا البلد البعيد عن الحلة فينعم فيه بالهدوء والاستقرار والأمان ؟ .

ثانياً - كان في هذا البلد بعض بطون طيء المنتشرين في أرض الجزيرة أيضاً ، فلمَ لا يقصدهم الصفي ليحتمىَ بهم ، والعرب يحمون المستجير وإن كان غريباً ، فما بالك بابن عمٍ لهم ؟ .

ثالثاً - كان بين الحلة وماردين صلات قوية وروابط متينة منذ عهد الأمراء المزيديين ، وازدادت هذه الروابط قوة بالمصاهرة التي تمت بين (دبيس بن صدقة) أمير الحلة (ونجم الدين إيلغازي) ، إذ تزوج دبيس الأميرة (كوهر خان) ابنة إيلغازي وكانت هناك حادثة تشبه حادثة صفي الدين ، فقد التجأ الأمير (دبيس بن صدقة) إلى الملك إيلغازي عند ما دارت عليه الدوائر في حروبه مع جيوش الخليفة العباسي (المسترشد) ولم يجد بداً من الهرب بجلده إلى ماردين وهكذا أعاد صفي الدين نفس الدور بعد قرنين أو أكثر من الزمان ، والتاريخ يعيد نفسه .

* * *

---

(١) تاريخ ماردين لعبد السلام الماردبني ص ١٢٥

لقي صفي الدين في ماردين من الحفاوة ما لم يكن يحلم به ، فقال في ذلك :

وزرت ملوكاً كنت أسمع باسمهم　　فينهضني شوقي ويقعدني أمني
فلما تلاقينا وقـــد برح الخفا　　رأت مقلتي أضعاف ما سمعت أذني

أجل ، فقد كان يسمع بهؤلاء الملوك من آل أرتق ، ويُروى الأحاديث الطوال عن كرمهم وجودهم وأخلاقهم فكان يتمنى زيارتهم ، حتى إذا اضطر إلى ذلك ودخل حماهم رأى منهم أكثر مما سمع فارتاح عندهم وهـــدأ روعه واطمأن قلبه ، وصار يتمتع بحياة ناعمة ، فيها الهدوء والسكينة وفيها الاحترام والاجلال ، حتى تبدل خوفه أمناً ، وجوعه شبعاً

به تناسيت ما لاقيت من تعب　　ولذة الشبع تنسي شدة السغب
بادرته وعقـــاب الهم يطردني　　واليومَ قد عاد كالعنقاء في الهرب

ويظهر لنا من شعر الصفي أن الأرتقيين قد رتبوا له (مرتباً) ظل يجري عليه أمداً طويلاً ، ورأى أحد نواب (الملك الصالح) أن يقطع عن الصفي هذا المرتب فعاتبه بقصيدة منها

عذرتك حين حلت وأنت بحر　　لأن البحر في مدٍ وجزر
فان أكُ قد أسأت لك التقاضي　　فلا يخفى على مولاي عـــذري
بأني لا يفي بالخرج كيسي　　ولست أضيع بالتقتير عمري

فالصفي يرينا أنه يصرف أكثر مما يكسب من عمله في التجارة ، وقد اعتاد هذا فأصبح طبيعة فيه وهو لا يستطيع التقتير ، فرتب له الأرتقيون مالاً يستعين به على قضاء حاجاته وموازنة مصروفاته .

وقد حركت هذه المعاملة الطيبة نفس الصفي ، فانبثقت عاطفته نحو الأرتقيين وقال فيهم غرر الشعر ودرر القصيد ولما كان قد آلى على نفسه ألا يمدح أحداً مهما يكن عظيماً ، فقد أصبح اليوم يقول إنه سيقف شعره ــ مديحه ــ على (الملك المنصور) وابنه (الملك الصالح) ولن يمدح غيرهما وقد نظم في

مدح الملك المنصور ديوان شعر سماه (درر النحور في مدائح الملك المنصور) وهو تسع وعشرون قصيدة مرتبة على حروف الهجاء

ويظهر أن هذا العام -٧٠١هـ- وهو العام الذي قدم فيه الصفي إلى ماردين- أغزر أعوامه إنتاجاً في الشعر ، فقد نظم فيه كثيراً من القصائد الطوال والمقطوعات القصار ، إذ كانت عاطفته متدفقـة كالسيل المنهمر وأرسل شعراً كثيراً إلى أهله وأقاربه وأصدقائه في الحلة وفي العراق يصف لهم حاله ويشتاق اليهم

وكان الملك المنصور يصحب صفي الدين في كل رحلاته ونزهاته ، ليكون معه دائماً ، يطرب سمعه بأغاريده العذبة ويطرفه بنوادره الظريفة ، وكان يصحبه كذلك في حروبه لينشد أشعاره الحماسية يلهب بها عاطفة الجنـــد ويشجعهم على القتال ، ويصف المعركة بعد أن يتم النصر فيخلده بشعر رائع رصين ؛ فحين ذهب المنصور على رأس جيش افتتح قلعة أربل سنة (٧٠٢ ﻫ) كان الصفي معه ، وبعد أن تم فتحها أنشد الصفي قصيدته التي مطلعها :

لا تخش يا ربع الحبيب همودا فلقد قد أخذت على العهاد عهودا

وكان شعره يلاقي بالاعجاب والاكرام ، فيسري على الألسنة ، ويصبح ملء الأسماع ، وينشده القاصي والداني ، فأصبحت له شهرة عظيمة وذاع اسمه في البلدان ، وطار صيته في الآفاق ، وصار الملوك يخطبون وده ويطلبون صداقته ، ويتمنون مديحه ليخلد ذكرهم بقصيده الخالد العظيم . فاذا ما جاءهم أكرموه وأدنوه اليهم حتى يصبح واحداً منهم ، فيعيش عزيز الجانب كبير المنزلة

إذا وافيت يوماً ربع ملك لي المرباع فيـه والصفـايا
تلاحظني الملوك بعين عـزٍّ وتـكرمني وتحسن بي الوصايا
أجاورهم كأني بين أهلي وكل من سراتهم سرايا

ولم يكن احتفاء الناس به وإكرامهم له بأقل من احتفاء الملوك وإكرامهم ،

فقد أحسنوا تقديره وزادوا في إعتزازه ، فكان يرى نفسه وكأنه بين أهله وإخوانه ، نخفف ذلك عليه ألم الفراق ، وأنساه الهموم السابقة والمحن الماضية ولكنه كان يحنّ إلى وطنه بين الحين والحين ، فلا يمكن أن ينسى ذلك الوطن الذي ولد فيه وترعرع ، ورباه على الترف والنعيم والعز والفخار ، فكان يرسل الزفرات الحارة والنفثات المؤلمة والأنّـات المؤثرة

فارقت زوراء العراق وإنّ لي قلباً أقام بربعه المألوف
ولأنثنينّ عن العراق أعنّتي وأطيل في تلك الديار وقوفي
فيها بدور في خلال مضارب وشموس دجن من وراء سجوف

* * *

وكان للصفي - بطبيعة الحال - بيت في ماردين ، وقد وصف هذا البيت بقصيدة يدعو بها أحد أصحابه لزيارته في البيت قائلاً

ونحن بمنزل لا نقص فيه رحيب الربع مرتفع البناء
وفي داري بخاري وخيش أعدّا للمصيف وللشتاء
فهذا فيه (شاذروان) نار وهذا فيه (شاذروان) ماء

فهذه الدار من الدور الفخمة التي يسكنها الأمراء والأعيان ، فهي مرتفعة البناء شاهقة العلو ، وهي كاملة من جميع الوجوه ، فيها كل ما يحتاج اليه المرء من حاجات ووسائل ، وهي معدة إعداداً خاصاً بحيث تلائم جميع الفصول ، فللصيف مكان فيه ما يلطف الجو ويبرد الهواء ويكسر من حدة الحر من نافورات مائية وأحواض وما شاكلها وللشتاء مكان فيه ما يساعد على التدفئة وطرد البرد ومنع الرياح القارسة من التغلغل في المكان ، ففيه مواقد نارية وشبابيك زجاجية تمنع الهواء والبرد وتدخل أشعة الشمس

الدافئة ، ولابد أن يكون مثل هذا البيت مفروشاً بأغلى الطنافس ومؤثثاً بأحسن الأثاث .

وقد وصف الصفي بيته هذا في قصيدة أخرى بنفس هذه الصفات وكان يستدعي صديقاً آخر لزيارته في بيته ومطلع هذه القصيدة

فزرنا إن مجلسنا أنيق   يكاد يعيد منظره الشبابا
يقابله بخاري تلظى   فتحسب حر آب منه آبا
له تاج يريك النار تجلى   وننظر للدخان بها احتجابا

هذا هو البيت الذي كان يعيش فيه صفي الدين في ماردين

* * *

وحين هدأ الصفي وذهب خوفه لم يجد بداً من العمل لكسب قوته ، فهو لا يرضى أن يعيش عالة على غيره ، ونفسه الأبية تأنف أن يكتفي بما يصل اليه من مال من الملوك والأمراء ، قلّ أو كثر ، فلابد إذاً من العمل ورأى أن يعود إلى عمله المحبب ، وهو التجارة ، فعاد يجوب الأقطار ويرحل إلى البلدان المختلفة وينقل البضائع من مكان إلى مكان ، فنمت ثروته وأصبح ذا غنىً وفير . وقد داعبه مرة الملك الصالح بأنه يحب جمع المال لكونه تاجراً وجمع المال من طبائع التجار فأجابه شعراً

مملوكك اليوم أبو حبة   مجتهد في خسة النفس
يزاحم الحمال في قوته   ويجمع الفلس على الفلس

وقد أثرت التجارة في نفسه وتفكيره ، وصار يفكر كما يفكر التاجر عند عقد صفقة تجارية ، يزن الأمر بميزان دقيق مقارناً بين الربح والخسارة ، وأكثر الربح وأقل الخسارة   استمع اليه يقول :

تقول لي العلياء إذ زرت ربعه   رويدك كم في الارض تشقى وتكدح؟
إذا كنت ترضى أن تعد بتاجر   هلمّ ففيه تاجر المدح يربح

وقد علمته التجارة أن ينتهز الفرص التي تواتيه ، فهي لن تعود ثانية

فانتهز فرصة الزمان فليس المـــرء من جور صرفه في أمان

* * *

وكان كثير التردد على (حماة) لاتصاله بصاحبها (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الأفضل أيوب) ، وقد كان يكرمه ويعزه ويجله ، ويقدم له الكثير من الهدايا والتحف . وكان الصفي يشكره على إنعامه لكنه لا يمدحه كمدحه للأرتقيين أهدى اليه مرة تحفاً كثيرة ، وقدم له كسوات البيت ومهامه فشكره بقصيدة مطلعها

جزاك الله عن حسناك خيراً وكان لك المهيمن خير راعي

وعنـد وفاة (الملك المؤيد) كان الصفي في حماة ، فحضر موته ورثاه بقصيدة مخمساً نونية ابن زيدون المشهورة

كان الزمان بلقيا كم يمنينا وحادث الدهر بالتفريق يثنينا

فعندما صدقت فيكم أمانينا «أضحى التنائي بديلاً من تدانينا»

« وناب عن طيب لقيانا تجافينا »

وتقلد السلطة بعد (الملك المؤيد) ابنه (الأفضل) ، فهنأه الصفي بقصيدة عصماء :

عانده في الحب أعـــوانه وخانه في الود إخوانه

وقد سلك الأفضل سلوك أبيه في احترام الصفي وإكرامه وإرسال الهدايا إليه أرسل إليه مرة تحفاً وهدايا إلى (ماردين) فشكره الصفي بقصيدة أرسلها إليه وأهداه معها مملوكاً تركياً وقماشاً من نسج (ماردين) .

* * *

وقد استطاع صفي الدين أخيراً أن يدخل العراق ، ولكن يظهر أن دخوله العراق لم يشمل الحلة ، فلم يدخلها ، وقد كان حذراً كل الحذر ، فهو لا يمكث في العراق طويلاً إذ سرعان ما يغادره إلى (ماردين) أو غيرها خوفاً من الأعداء المتربصين له وبالرغم من قصر الوقت الذي كان يمضيه في العراق

كان يرسل إلى الملوك الأرتقيين القصائد الحسان من هناك . فهذه قصيدة أرسلها إلى (الملك الصالح) يمدحه فيها :

ما بين سيفك والجفون مواعد   فيفي إذا خبرت أني راقـــد

وفي إحدى زيارات الصفي بغداد جاءها (الملك المنصور) ، وكاد الصفي يطير فرحاً ومدحه بقصيدة بدأها بقوله :

كيف الضلال وصبح وجهك مشرق   وشذاك في الأكوان مسك يعبق

وتشاء الظروف أن يموت (الملك المنصور) في (ماردين) سنة (٧١٢ هـ) بينما الصفي في بغداد ، فما كاد يسمع نعيه حتى أسرع إلى (ماردين) لحضور العزاء ، وقد أعد قصيدة عصماء يرثيه بها مطلعها :

يا بدوراً تضيء تحت التراب   وجبـــالاً تمرُّ مرَّ السحاب

إلا أنه حين وصل (ماردين) كان العزاء قد انفضَّ وعاد أولاد المنصور إلى مجالس الأنس والطرب ، فحضر الصفي أحد هذه المجالس وأنشد قصيدة بدأها بوصف الخمرة ورثى بها الملك الراحل

أدرها بأمنٍ لا يغيرك الوهم   وزفّ على الجلاس ما خلف الكرم

• • •

وجاء (الملك الصالح) فنهج نهج أبيه في احترام الصفي وإكرامه وتقديره حق قدره ، بل لقد زاد على أبيه في ذلك ، فصار يجله أعظم إجلال وصار الصفي يلازمه دائماً ويقضي معه النهار ومعظم الليـــل ، ويشاركه في مجالس الأنس والشراب ، ويخرج معه إلى الصيد ، ويعتذر اليه عندما يطول عنه غيابه   وحين يغادر الصفي (ماردين) في رحلاته التجارية يشتاق أحدهما للآخر فيرسل الصفي قصائده مبيناً هذا الشوق ومعبراً عن تلك اللهفة للقائه . أرسل اليه من دمشق هذه القصيدة

أُعدُّ ، إذا فارقت مغناك ، تاجراً   فان إبت ظنوني شريكك في الملك

وهذا البيت وحده كافٍ لتصوير ما كان يتمتع به (ابن سرايا) من حب وتقدير وإجلال عند (الملك الصالح).

وكان صفي الدين يحسن مجالسة الملوك، فهو ابن حسب تليد ومجد أصيل، يعرف كيف يعاشر الملوك والأمراء، وكيف يقضي معهم الأوقات، فلا يملونه ولا يضجرون منه، لأنه يعرف كيف يتحدث إليهم فيدعوهم إلى الانصات، ويحسن الاستماع حين يتحدثون وهو يجيد اختيار العبارات التي تدل على احترامه لهم وإجلاله إياهم.

وقد ألزم الصفي نفسه، مدة شهر، حضور مجلس (الملك الصالح) ووصفه، حين يخيم ظلام الليل ويضاء المجلس بالشموع، قال في ليلة:

أهلاً بها كالقضب في كثبانها ... جعلت شواظ النار من تيجانها
شهب إذا جلت الظلام جيوشها ... جلبت جيوش الصبح قبل أوانها

زهر حكت خد الحبيب وإنما ... تحكي فؤاد الصب في خفقانها
لهبت وقد رأت الظلام ولم تكن ... تالله لاهية لضعف جنانها

وفي ليلة أخرى:

أهلاً بشهب في سماء المجلس ... هتكت أشعتها حجاب الحندس
زهر إذا أرخى الظلام ستوره ... فعلت بها كصحيفة المتلمس
هيف القدود تريك بهجة منظر ... أبهى لديك من الجواري الكنّس

* * *

وكان يحرض الملك الصالح على قتال المغول ويستنهضه لحربهم، وهو يرى أنهم مغتصبون للبلاد الاسلامية، وأنهم غزاة ظالمون، لذا يجب مكافحتهم وطردهم وتخليص البلاد من شرهم

لا يمتطي المجدَ من لم يركب الخطرا ... ولا ينال العلا من قدّم الحذرا

ومن أراد العـــلا عفواً بلا تعب   قضى ولم يقض من إدراكه وطرا

يا أيها الملك البـــاني لدولته   ذكراً طوى ذكر أهل الأرض وانتشرا
كانت عداك لها دست فقد صدعت   حصاة جدك ذاك الدست فانكسرا
فادفع إذا غدروا سوط العذاب بهم   يظلُّ يخشاك صرفُ الدهر إن غدرا
وارعب قلوب العدى تنصر بحربهم   إن النبي بفضل الرعب قد نصرا

* * *

ولقد استطاع الصفي بحكم أعماله التجارية أن يزور أكثر البلاد العربية ، فرأى لزاماً عليه أن يزور (الحجاز الشريف) ، فهو مسلم شديد الايمان باسلامه يقـــدس دينه ويحترم تعاليمه ، وهو غني موفور المال ، والاسلام يوجب على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً فأعد الصفي العدة لهذا الحج سنة (٧٢٣هـ) وسار ميمماً شطر الحجاز فودّع ماردين وداعاً مؤثراً ، وودّع ملكها الصالح وداعاً حاراً ، وقد تألم كثيراً لهذا الفراق بالرغم من أنه كان يرحل كثيراً طوال العام ، فكأنه كان يحس من أعماق نفسه أنه سيتأخر في هذه الرحلة طويلاً ، وأن السفر سيمتد به إلى أمد غير قصير وحين وصل (مكة) ودخل الكعبة الشريفة وقف خاشعاً لله وأنشد :

يا ربّ إني دخلت بيتـــك والدّاخل بيت الكريم في حسبه
لا يختشي سخطه عليه ولا يحذر من مكره ولا غضبه

وحين دخل ضريح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقف فيه وأنشد طالباً الشفاعة :

بكم يهتدي يا نبي الهـدى   وليٌّ إلى حبّكم ينتسب
به يكسب الأجر في بعثه   ويخلص من هول ما يكتسب
وقد أمّ نحوك مستشفعاً   إلى الله مما إليـه نسب

وحين إنتهى من مناسك الحج واستعد لمغادرة الأرض الطاهرة أرسل قصيدة إلى الملك الصالح

أني ليطربني العـــذول فأنثني فيظنُّ أني عن هواكم أنثني

ونلاحظ أن الصفي لم يذكر في هذه القصيدة شيئاً من مناسك الحج وشعائره في حين أنه ذكر ذلك في القصيدة التي هنأ بها قاضي القضاة (بماردين) عند عودته من الحج سنة (٧٢٥ هـ) إذ قال

فقصدت البيت الحرام فأقصيت بسهم الردى قلوب العداة
ولكم قد حرمت ، في يوم أحرمت ، لذيذ الكرى عيون البغاة
ثم لبيت منعماً حين لبيت ندا مَن دعاك للمكرمات
وسعيت السعي الحنيف وكم قد جزت في المكرمات سعي السعاة
ورميت الجمـــار في كبد الأعداء لما رميت بالجمرات

وكأنه لم يرد أن يفخر بهذا على الملك الصالح الذي لم تكتب له حجة البيت الحرام في ذلك العام . ونلاحظ كذلك أن الصفي لم يحدد تاريخ هذه الرحلة ، متى بدأت ، وفي أي يوم انتهت . وليس هناك سوى ذكر العام الذي نظمت فيه هذه القصيدة وهو (٧٢٣ هـ) وغادر الصفي الحجاز ، ولكنه لم يتجه إلى العراق ولا إلى (ماردين) ولكنه يمم صوب مصر .

* * *

كانت مصر منذ أقدم العصور قبلة الشعراء والأدباء ، ومقصد طلاب المال والجاه ، فكان كثير من الشعراء يحجون اليها ويعيشون في ربوعها زمناً يطول أو يقصر . . .

ففي العصر الأموي وفد اليها (كثير عزة) ، و (جميل بثينة) و (عبيد الله بن قيس الرقيات)

وفي العصر العباسي الأول جاءها : (أبو نواس) ، و (دعبل الخزاعي) ،

و (ابراهيم بن العباس بن الأحنف) ، و (ابن المولى) ، و (ربيعة الرقي) ، و (أبو تمام الطائي) .

وفي العصر العباسي الثاني وردها : (المتنبي) و (الناشيء الأكبر) - أبو العباس محمد بن شرشير - و (الناشيء الأصغر) - أبو الفضل سوار ابن شراعة -

ولم يكن نصيب الحلة معدوماً في قاصدي مصر من الأدباء ، فقد أوفدت منها بعض أجلائهم في مختلف العصور (كراجح الحلي) وفي القرن السابع جاء إلى مصر من أدباء الحلة : (محمد بن علي بن الفضل الحلي مهذب الدين الخيمي) ، الذي ولد بالحلة وفيها تعلم وتثقف ثم رحل إلى مصر فعمل كاتباً بالديوان ثم مات بها و (ابن بطريق الحلي) وغيره .

إذاً فهناك اتصال أدبي بين الحلة ومصر قبل أن يجيء الصفي ، فليس الصفي بداية هذا الاتصال وإنما هو إحدى حلقاته .

وحين دخل صفي الدين مصر لقيه فيها العلماء والأدباء باحترام وإكبار . قال الصفدي « واجتمع بالقاضي فسيح الدين وبأثير الدين ومشايخ ذلك العصر ، ولما دخلت بعده وجدتهم يثنون عليه »(١) وقد كان للصفي في مصر أصدقاء أعزاء من الأدباء والعلماء والقضاة ورجال الدولة منهم (صلاح الدين الصفدي) العلامة الفاضل والأديب المؤرخ ، والشاعر المبدع (جمال الدين بن نباتة المصري) ، وقاضي القضاة (علاء الدين بن الأثير) ، وكان يجله ويحترمه ويحب شعره حباً عظيماً ، وهو الذي قدمه إلى السلطان (الملك الناصر محمد بن قلاوون) .

وحين دخل الصفي إلى هذا السلطان العظيم ، وكان السلطان قد سمع بمنزلة الصفي العظيمة عنـــد الأرتقيين واحترامهم له ، وسمع بعلمه وأدبه وفضله ،

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي . مخطوط ج ٣ ورقة ٣١٠

ورُويَ شيئاً من شعره ، أكرمه وزاد في إكرامه وأجله وأعظم من إجلاله .

وهنا يدخل الصفي طوراً جديداً من حياته وحياة شعره ، فقد اضطر إلى الحنث بأليته التي أقسم بها أن لا يمدح سوى الملك المنصور وابنه الملك الصالح ، وها هواليوم يرى لقاء الملك الناصر له واسباغه عليه أكبر الفضل وأوفرالنعم ، حتى استلب عاطفته واستولى على قياده فأوجب عليه مدحه يقول في مقدمة ديوانه : « . . . قذف بي خوف بلادي إلى الديار المصرية ، وأهـلتُ للمثول في الحضرة الشريفة الملـكية الناصرية ، وشملني من الانعام ما فاجأني به ابتداءً ولم أملك له خبراً ، ألزمتني المروءة مكافأة تلك الحقوق ، ورأيت كفرانها كالعقوق ، وأن تـكفير تلك اليمين أولى من كفران أنعم المنعمين ، فنظمت في معاليه ، ما طاب لفظه ومعانيه . . . »

فاستقبال الناصر لصفي الدين هذا الاستقبال اللائق بالأدباء الـكبار والعلماء المتازين لا شك مما يثلج صدر الصفي ، فقد كان الناصر أعظم سلاطين المسلمين وملوكهم في ذلك العصر لأنه سلطان مصر زعيمة البلاد الاسلامية ، ومحط آمال المسلمين ومهوى أفئدتهم فهي مركز الخلافة الاسلامية - وإن كانت الخلافة إسمية يومذاك - وحامية الدين ، وراعية العلم والأدب ، ومهجر العلماء والأدباء وذلك مما اضطر الصفي إلى مدح الملك الناصر مهما تـكن الظروف التي تحول دون مدحه وقد وازن الصفي بين كفتين موازنة دقيقة ، الأولى : تـكفير الأليـة التي توجب عليه أن لا يمدح غير الأرتقيين ، والثانية : كفران النعمة العظيمة التي أسبغها عليه الملك الناصر ، فرأى أن الثانية عقوق وأي عقوق ، وجحود أعظم الجحود ، وأما الأولى فهي أهون خطراً وأقل شراً ، فمدح الناصر بالقصائد العظيمة . وكانت أولى هذه القصائد معارضته لبائية المتنبي التي يمدح بها (علي بن منصور الحاجب) ومطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلاببا

وليست قصيدة الصفي بأقل من قصيدة المتنبي جودة وجمالاً ، وقد بدأها بقوله :

أسبلْنَ من فوق النهود ذوائبا فتركْنَ حبات القلوب ذوائبا

ويظهر أن الصفي ، بالرغم من أن المدة التي أقام أثناءها في مصر ليست طويلة بحيث يمكنه أن يقوم بكل ما يصبو إليه ، استطاع أن يوطد صلاته بالملك الناصر فأصبح ملازماً له ، يرافقه في تنقلاته ورحلاته . فقد ذهب معه إلى ميدان مصر لحضور اللعب بالكرة وأنشد مقطوعة مدح بها الملك الناصر ووصف اللعب قائلاً :

ملك يروّض فوق طرف فارع كرة (بجوكان) حكاه ضرابا
فكأن بدراً في سماء راكباً برقاً يزحزح بالهلال شهابا

وذهب معه إلى (كسر الخليج) فمدحه بقصيدة مطلعها :

خلع الربيع على غصون البان حللاً فواضلها على الكثبان

ورأى الملك الناصر جمال شعر الصفي وروعة قصائده ، فطلب منه أن يجمع شعره في ديوان ليمكن أن يطلع عليه مَن أحبّ ذلك ، فلم يسع الصفي إلا أن يجيب طلب الملك الذي أكرمه واحتفى به حفاوة بالغة ، بل اعتبر هذا لفتة كريمة منه إلى الصفي وشعره فلولا حب الناصر للصفي وشعره لما اهتم به إلى هذا الحد ولم يسع الصفي كذلك إلا أن يقدم مدائحه للملك الناصر على غيرها من المدائح ، مجاملة لهذا السلطان الذي جمع الديوان باشارة منه ، وتم تدوينه في بلاطه . ولنستمع إلى الصفي نفسه يتحدث عن ذلك : « ... أشار رئيس وزرائه ، وزعيم كتاب إنشائه عن إشارته العالية أن أجمع له أجزاء من جد شعري وهزله ، ورقيق لفظي وجزله ، وأن أبوبه أبين تبويب فأجبت بالسمع والطاعة واقتضى الأدب أن أسم الكتاب بوسمه ، وأشرّف باب المديح بتقديم لقبه الشريف واسمه » .

ومع كل هذا الاكرام الذي لقيه الصفي من المصريين حكومة وشعباً ،

فانه لم ينس الأرتقيين بل كان يفكر فيهم ليل نهار لم يغيبوا عن مخيلته لحظة واحدة ، ولم يبرحوا ذهنه برهة قصيرة وكيف ينسى الذين التجأ اليهم فآووه وأكرموه وحافظوا عليه من غوائل الزمان ؟ فكان يرسل اليهم القصائد وهو في مصر . يقول للملك الصالح :

أجرد كي أجرد سيف مدحي فينبو عن سواك به لساني
وأنظم مدح غيرك والقوافي تعضُّ عليَّ أطراف البنان
وأظهر حيرة في بسط عذري وأخفي ما يجن لكم جناني
فان أفعل تألمت المعالي وإن أنكل تظلمت المعاني

فالصفي يصور حاله عندما يريد مدح غير الملك الصالح ، فلا يستطيع أن يفعل ذلك لأن مديحه يجب أن يقتصر عليه ، وتتدفق المعاني في مدح فضائل الملك الصالح وذكر أخلاقه ، وهذا الشعر صادق كل الصدق لأن حب الصالح كان قد سيطر على نفسه وتحكم في هواه ، فهو في موقف حرج لأنه ليس يدري أيمدح أم يسكت . ويمدح الصالح أم غيره ؟ ومصداقاً لهذا القول نرى أن مدح الصفي للملك الناصر قليل جداً إذا قورن بمدحه الملك الصالح

* * *

وغادر الصفي مصر عائداً إلى ماردين ، وقد قضى في أرض الكنانة أوقاتاً سعيدة ، فظل يحفظ عنها ذكريات حلوة ، ويذكر لها كل فضل .

ويجب أن نذكر هنا أن معظم الشعراء والأدباء الدين وردوا مصر لم يخرجوا منها كما يجب ، أي لم يخرجوا كما جاؤا ؛ بل خرجوا وقد فسدت علاقاتهم بمن جاؤا مصر من أجلهم ، وهجوا هؤلاء الذين جاؤا ليمدحوهم .

(فدعبل الخزاعي) الذي جاء مصر طمعاً في نوال أحد أقاربه ، وهو (المطلب بن عبدالله الخزاعي) ، وكان والي مصر ، ومدحه بقصيدته التي يقول فيها :

أبعد مصر وبعد مطلب ترجو الغنى ؟ إنَّ ذا من العجب

إن كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب

فولاه المطلب إقليم (أسوان) فمكث به أياماً ثم غضب وهجا المطلب فقال :

أمطلب أنت مستعذب حميّـا الأفاعي ومستقبل

وعاديت قوماً فما ضرهم وشرّفت قوماً فلم ينبلوا

وكذلك كان (أبو نواس)، فقد جاء لمدح (الخصيب) ، ومدحه بعدة قصائد ، لكنه هجاه أخيراً ورماه بالبخل وهذا أيضاً حال (المتنبي) مع (كافور الاخشيدي) إذ مدحه بغرر الشعر ثم هجاه حين لم ينل منه ما كان يأمل ، واضطر إلى مغادرة مصر سراً هرباً منه وهو ينشد :

عيد بأية حال عدتَ يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد

غير أن موقف الصفي يختلف عن مواقف هؤلاء الشعراء ، فقد خرج من مصر معززاً مكرماً ، خرج والكل يتمنى أن يظل في مصر ، والكل يرجو أن يعود إليها . وهو نفسه يتمنى أن يبقى في أرض الكنانة ، ويرجو أن يعود إليها مرات ولعل أهم الأسباب التي دعت هؤلاء الشعراء إلى فعل ما فعلوا ، أنهم وفدوا إلى مصر للحصول على المال أو غيره من الآمال فمدحوا غير صادقين ، ولما خاب ظنهم ، أو حصلوا على أقل مما كانوا يأملون ظهرت الحقيقة سافرة ، واضطروا إلى إخراج ما في نفوسهم ، وانساقوا بالغضب مع هواهم فقالوا شططاً ، وهجوا من كانوا قبل أيام يكيلون عليه المديح أما الصفي فلم يكن محتاجاً إلى مال أو جاه ، فهو غني موفور الغنى ، مشهور ذائع الصيت ، وهو جليس ملوك ونديم أمراء يحترمونه ويقدرونه حق قدره فلم يجيء مصر لطلب مال أو جاه وإنما جاء لزيارتها وزيارة أصدقائه فيها .

وقد زار الصفي مصر مرة ثانيـة (فصلاح الدين الصفدي) يقول في (الوافي بالوفيات) وفي (أعيان العصر) إن الصفي ورد الى مصر مرتين لكنه لم يحدد تاريخ الزيارتين أو تاريخ واحدة منهما ، ولم يذكر المدة بينهما ، ولم يذكر كذلك تاريخ عودة الصفي إلى ماردين بعد أن غادر مصر للمرة

الأولى أو للمرة الثانية ولكنه ، وغيره من المؤرخين ، يقول إنه بعد أن انتهى الصفي من أداء فريضة الحج عرّج على مصر وبهذا يكون قد دخل مصر لأول مرة سنة (٧٢٣ هـ) . غير أن هناك من يقول إن صفي الدين دخل الديار المصرية سنة (٧٢٦ هـ) ولعل هذا تاريخ الزيارة الثانية ، إذ أن الصفي حين رأى إكرام (الملك الناصر محمد بن قلاوون) له واحترام الناس إياه واهتمامهم بشعره ، عاد الى مصر من جديد .. خصوصاً وهو تاجر يتنقل من بلد الى آخر ، وكانت مصر في ذلك الوقت تتمتع برخاء اقتصادي وهدوء وسلام ، ولعل المرة الثانية هي التي جمع الصفي فيها ديوانه إذ أن هذا هو المعقول .

صفاته وأخلاقه وطباعه :

لم أستطع إطلاقاً أن أعرف صورة الصفي ، حتى ولو بشكل تقريبي بالرغم من كثرة بحثي عن هذه الصورة بين ثنايا شعره الذي تحدث فيه عن نفسه ، وبين الأسطر التي كتبت عن سيرته اللهمّ إلا ذلك البصيص البعيد الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ، والذي جاء في كتاب (مجالس المؤمنين للمرعشي) وهو أن الفيروز ابادي قال « اجتمعت سنة (٧٤٧ هـ) بالأديب الشاعر صفي الدين الحلي بمدينة بغداد فرأيته شيخاً كبيراً ، ومن يرى صورته لا يظن أنه ينظم ذلك الشعر الذي هو كالدرّ في الأصداف » وهذا الخبر لا يفيدنا شيئاً على الاطلاق بل يزيد المسألة تعقيداً فهو غير واضح المعالم ولا يشير إلى شيء ملموس . فلمَ لا يظن أنه الذي ينظم الشعر المظيم ؟ أهو قبيح المنظر ؟ لا أظن ذلك . . . أهو هزيل الجسم ؟ لا أعتقد ذلك ؟ لأنه فارس عظيم وبطل مغوار . . . فلم إذاً ؟ أغلب الظن أنه كان قد كبر وصار شيخاً

ضعيفاً ، وربما كان متهدماً . فقد قال (الفيروز ابادي) إنه التقى به سنة (٧٤٧هـ) وقد ولد الصفي سنة (٦٧٧ هـ) فيكون قد بلغ من العمر يومذاك سبعين سنة . فلا عجب إن كان ضعيفاً هزيلاً وقد بدت الشيخوخة فيه بأجلى صورها وحتى لو كان الصفي قبيح الشكل ضعيف البنية ، فهل للشكل دخل في الموهبة والفن ؟

* * *

أما أخلاقه فقد امتلأ شعره بما يوضحها أحسن توضيح ، ويبينها أجلى بيان . وإلى هذا كله فقد كتب الذين ترجموا له مشيرين إلى أخلاقه موضحين ما يتمتع به من صفات عالية .

فقد كان الصفي يتمتع بأكرم الصفات وأعظم السجايا ، ولا عجب فهو ابن قوم كرام ذوي مجد عريق ، وربيب بلد يمتاز بكرم الخلق وحسن الصفات فكان إنساناً نبيلاً لا يمكن أن يعتدي على أحد ، وهو صاحب البيت المشهور:

إنّا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا

وهو بعد هذا يقول

فقل للأعادي : ما انثنيت لسبّكم ولا طاش ، في ظنّي ، لغدركم سهمي

ولهذا كان يعجب أن يكون له أعداء

ومَن يكُ مثلي كامل النفس يغتدي قليلاً معاديه كثير المصاحب

فما للعدى دبّت أراقم كيدهم إليَّ وما دبّت إليهم عقاربي ؟!

وإنسانيته هذه جعلته يلبي دعوة كل داع حتى إذا دعاه إلى اقتحام الموت ، استمع اليه يقول :

لما دعاني للنزال أقاربي لباهمُ منّي لسان المنصل

وأبيت من أني أعيش بعزهم وأكون عنهم في الحروب بمعزل

فعندما قتل خاله غدراً كان أول مجيب لداعي الثأر ، لاحقاق الحق وإزهاق الباطل

وقد جعلته هذه الانسانية مخلصاً للصديق ، مخلصاً للقريب ، مخلصاً لمن يؤدي له عملاً ، كبر أو صغر ، فهو لا ينسى ذلك ، ويحاول أن يرد الجميل بأكثر منه فالملك المنصور صاحب ماردين الذي آواه ، كان عنده بمنزلة لا تمد لها منزلة ظل يحفظ جميله طوال حياته ، ولم ير ما يجازيه به أحسن من أن يقف شعره عليه وعلى أولاده يقول مبيناً هذا الاخلاص :

مولايَ سمعاً من وليك مدحة   عن صدق ودّي في علاكم تنطق
أنا عبد أنعمك القديم وداده   وسواي في أقواله يتملق
عبد مقيم بالعراق ومدحُـــه   فيكم يغرّب تارة ويشرّق

وهو في غاية الاخلاص لأصدقائه جميعاً ، لا ينساهم حتى في ضيقه وشدته ؛ فحين غادر العراق إلى ماردين ظلّ على اتصال بجميع أصدقائه في العراق ، يكتب لهم بين الحين والحين ، ويتسلم منهم الرسائل ، ويسأل عن أخبارهم وأحوالهم ، ويعاتب من ينقطع عن زيارته من إخوانه

لا والذي جعـــل المودة مانعي   عن أن أقابل سيدي بجفائه
ما حلّــت الأيام موثق حبه   عندي ولا حالت عهود وفائـــه
ودليــــل قلبي قلبه فوداده   كوداده وصفاؤه كصفائه

وكان الصفي يتمتع بشجاعة نادرة ، ولا عجب فهو حلي والحلة عرين الأسود وموطن الأشبال ، اشتهرت بالشجاعة والنجدة والاقدام فكان الصفي من الشجعان المعدودين ، قال عنه الصفدي « وهو من الشجعان الأبطال قُتل خاله فأدرك ثأره ، وفيه آثار الجراحة » فهذا دون شك وسام البطولة ورمز الشجاعة وقد أبلى في معركة الزوراء بلاءً عظيماً ، وأبدى من ضروب الشجاعة والمهارة في القتال والحزم والعزم ما يبينه قوله

قل لليالي : ويلك ما شئتِ اصنعي   بعدي وللأيام ما شئتِ افعلي
لا تسمعنّ بأنَ أُسِرتُ مسلماً   وإذا سمعتَ بأن قُتِلتُ فعوّل
ما الاعتذار وصارمي في عاتقي   إن لم يكن من دون أمري مقتلي

وهذه الشجاعة جعلته لا يصانع في حياته حتى في الحرب وفي غمرة القتال :

هناك فجأت الكبش منهم بضربة   فرقتُ بها بين الحشا والترائب
لدى وقعة لا يقرع السمع بينها   بغير انتداب الشوس أو ندب نادب

فهو لا يصانع ولا يخادع وإنما يهجم على أقوى القوم فيضربه ضربة تقضي عليه ، علمته شجاعته الحزم والعزم فكان لا مطلب له إلا العلى يقول :

قليل إلى غير اكتساب العلى نهضي   ومستبعد في غير ذيل التقى ركضي
فكيف ولي عزم إذا ما امتطيته   تيقنت أنَّ الأرض أجمع في قبضي
على أن لي عزماً إذا رمتُ مطلباً   رأيت السما أدنى إليَّ من الأرض

فنهوضه لا كتساب العلى فحسب وعزمه الماضي يمتطيه فيقرب له السماء ويجمع له الأرض فتصبح كلها في قبضته

وكان الصفي يتحلى ، مع الشجاعة ، بعزة النفس والاباء يقول في ذلك :

سمت بي إلى العلياء نفس أبيـــة   ترى أقبح الأشياء أخذ المواهب

أو يقول :

أبيٌّ لا يقيم بأرض ذل   ولا يدنو إلى طرق الدنايا

وهـذا الاباء هو الذي دفعه إلى ترك وطنه الحبيب ، ومغادرة أهـله وأصحابه والرحيل إلى ماردين ، فهو إذاً يجشمه أشد المصاعب لدفع الضيم :

ذاك أني لا تقبل الضيمَ نفسي   ولو اني افترشت شوك القتـاد

وربما غالى كثيراً في الاباء فرأى أن يعف عن كل سؤال حتى السؤال عن الطريق

ولقد أسير على الضلال ولم أقل   أين الطريق ؟ وان كرهت ضلالي
وأعاف تسآل الدليـل ترفُّـعاً   عن أن يفوه فمي بلفظ سؤال

وكان الصفي كريماً ، ولا غرو فالحلة بلد الأجواد الكرام ، بلد صدقة ودبيس وهو ابن طيٌ قوم (حاتم الطائي) الذي اشتهر بكرمه كما لم يشتهر أحد وآباؤه وأجداده كرام مشهورون . وهو إلى ذلك كله موفور الغنى

كثير النعم ، فكان يجود على الغريب والقريب :

وإن نوالي في الملمات واصل أباعد أهل الحيّ قبل الأقارب

وجوده بلا منّ يقول في ذلك :

أيا ربّ قد عودتني منك نعمة أجود بها للوافدين بلا منّ
فأقسم ما زالت عطاياك جمة ونعماك ، لا خيبتُ ذا الظنّ بالمنّ

* * *

وكان من طبع الصفي الميل إلى اللهو ، ولا عجب فقد كان يعيش عيشة المترفين من أبناء الأمراء والأشراف ، فكان يخرج للصيد ويمارس الفروسية وألعابها ، ويلعب شتى الألعاب المسلية كالشطرنج والنرد . وكان في ماردين يعيش مع الملوك نديماً وجليساً لهم ، فشاركهم في شرب الخمرة ، ووصفها أجمل وصف .

كان الصفي يهتم بالصيد منذ صباه ، وظل كذلك طوال حياته ففي صباه كان يخرج مع أقرانه لصيد الطير والحيوانات المختلفة في ضواحي الحلة ، وفي ماردين كان يلازم الملوك والأمراء في رحلاتهم للصيد ويصف ذلك في شعره :

لم أنس في ذوب شليل برزتي بين ثقات من رماة الحلة

ويبين صفات الصيادين وما يجب أن يتمتعوا به من أخلاق وميزات في قوله

من كل مقبول المقال صادق قد قبض القوس والنفس بسط
يقدمنا فيها قديم حاذق لا كسل يشينه ولا قنط
يحكم فينا حكم داود فلا ينظر فينا خارجاً عمّا شرط

فيجب أن يكون كل منهم حاذقاً نشيطاً ، ولا يشوبه قنوط أو تردد أو فتور يقبض قوسه ويبسط نفسه .

وكان الصفي يصف الظير وغيره من حيوانات الصيد ، ويعرف طبائعها

وعاداتها ، ووصف النعام وصيده في قصيدة صور لنا فيها يوماً قضاه في هذه التسلية الجميلة :

ورب يوم أدكن المقام ممتزج الضيـــاء بالظلام
سرنا به لقنص الآرام والصبح قد طوّح باللثــام
عنّ لنا سربٌ من النعام مشرفة الأعناق كالأعلام
فاغرة الأفواه للهيــام كأينق فرت من الزمام
وحش على مثنى من الأقدام تحجم في الحرب عن الاحجام
أراقم قـد قرنَ للخصام نخـــين همٌ السرب بانهزام

إلى آخر القصيدة إذ يصف ضخامتها وطول رقبتها ، إلى غير ذلك . ويصف البازي والصيد به فيقول

غليظ خط الجؤجؤ المنـكّـب ذي عنق خصب ورأس أحدب
قصير عظم الساق ثبت الركب قليـل ريش الصفحتين أرعب
نامي الجنـاحين قصير الذنب عيونه مثل الجمان المذهب

وواضح أنه يصف البازي وصفاً دقيقاً : شكله العام ، فهو أشهب منتصب القامة عالي الكتفين . ويصف أعضاءه واحداً بعد الآخر ، فالساق قصير ، والركبة ثبتة ، وهو قليل الريش في الجانبين كثيفه في الجناحين قصير الذنب عيونه مثل اللؤلؤ المذهب . ويصف الصقر بنفس صفات البـــازي . ويرسم لنا صورة جميلة للفهد فيرينا أنه أرقط بارز الجبين أفطس الأنف الخ .

عارضته في منتهى السفحين بأرقـــط مخطط الأذنين
ناتي الجبين ، أهرت الشدقين أفطس سبط الشعر صافي العين
ينظر في الليــل بجمرتين ذي كحل سال من العينين

ويجيد كذلك وصف كلاب الصيد برشاقتها وسرعتها وصفاتها التي تتميز بها :

وتبعاً لمهارة الصفي في الصيد أصبح عارفاً بآلاته جميعها ، يعرف خصائصها ومميزاتها وصناعتها فيصف البندق وكيف يمرق في الفضاء بسرعـــة خاطفة ، والقوس ويشبهه بالهلال ؟

ولم يفارق حب الصيد صفي الدين بعد شبابه ، فقد ظـــل مغرماً به في ماردين وفي كل بلد بعد أن كبر ، فكان يخرج للصيد مع الملوك والسلاطين ؛ مع المنصور والصالح ، مع الناصر والمؤيد ، ويصف هذه الرحـــلات بشعر جميل ، فحين خرج مع (الملك المنصور) للصيد بالبندق في ضواحي ماردين سنة (٧٠١ هـ) نظم قصيدة طويلة يصف بها هذه الرحلة بدأها بقوله :

دارت على الراح سلاف القطر فرنحت أعطافه بالسكر
ونبه الورقَ نسيمُ الفجر فغردت فوق الغصون الخضر
تغني عن العود وصوت الزمر

وحين خرج للصيد في ضواحي (حماة) مع (الملك المؤيد) سنة (٧٤٠ هـ) نظم قصيدة يصف الصيد ويهنيء المؤيد بعيد الفطر :

قمْ بي فقد ساعدنا صرف القدرْ وجاء طيب عيشنا على قـــدرْ
فكم علا قدر امرئٍ وما قدر فارضع بنا درَّ الهنا إن تلقَ در
فالشهم من حاز السرور إن قدر

* * *

وكان يلعب النرد والشطرنج ويجيدهما اجادة تامة ، بحكم كونه جليس ملوك ورفيق أمراء أولاً ، وبحكم كونه من أبناء الطبقة الراقية ثانياً وقد صور لنا قصة مراهنته لأحد الغلمان في لعبة النرد وهزيمة الغلام في النهاية :

لاعبتـــه بالنرد ثمَّ وبيننـا رهن قد ارتضت النفوس بقصده

وهناك قصيدة أخرى يصف فيها قصة كاملة مشابهة لهذه القصة ، فقد لعب

الشطرنج مع غلام كان قد اتفق معه على رهان ، وكان الغلام هو الذي اقترح اللعب :

وغزال غازلته بعد بينٍ ألّفت بينه المدامُ وبيني
قال لي مازحاً وقد طفت الرا ح وجال التضريج في الخدين :
قد مللنا فهاتِ نلعبُ بالشطـ ـرنج كيما أريح قلبي وعيني
قلت : سمعاً وطاعة لك مولا ي ولكنْ لعبنا في رهين

فالصفي هو الذي اشترط الرهان ووافق الغلام ، وبدأ اللعب بتقسيم الجيشين . وهو يصف اللعب وكيف كان يصول ويجول ، يحكم الخطط ويدير خير إدارة ، وكأنه قائد محنك يخوض معركة رهيبة ، حتى انتصر فاستحق الرهان ، لكنه عفا عن الغلام عندما بكى وطلب أن يعفيه والعفو من شيم الكرام . وفي أزجال الصفي قصة مشابهة لهذه القصة .

* * *

وأما مجالس الخمر التي كان يحضرها مع الملوك والأمراء فكان يصفها وصفاً دقيقاً ، فهل كان الصفي يشرب الخمر أم كان يقول هذا الوصف محاكاة للشعراء الآخرين ؟ في الحقيقة ، إن أول ما يتبادر الى الذهن أن الصفي لا يمكن أن يشرب الخمر لأنه رجل فاضل وشيخ جليل ، درس علوم الدين وتفقه فيها ، وكانت أسرته من أكرم الأسر ، تتمتع بسمعة حسنة ومنزلة محترمة . فكيف يأتي الصفي هذه المحرمات ؟

إن الذي يبحث في الأسباب الخفية والعلل الداخلية ، يستطيع أن يعرف أن الصفي كان يشربها فعلاً ، فقد انتشرت في هذا العصر انتشاراً كبيراً ، فكان الصفي واحداً من هؤلاء الذين جرفهم تيار المجتمع ، واضطروا الى السير مع تياره الجارف أضف الى ذلك أن حضوره مجالس الملوك ومنادمته لهم في ماردين وحماة والقاهرة مما يضطره الى شرب الخمر أيضاً فهو مجبر على أن

يصنع ما يصنعون ويأكل ما يأكلون ويشرب ما يشربون ، وإلا فكيف يرضون به جليساً إن كان يمتنع عن فعل ما يفعلون ترفعاً منه أو ابتعاداً عنه لأنه دنية في نظره ؟

إذاً فالصفي يشرب الخمر فعلاً ، وقد بين ذلك في شعره ، وصرح به في أكثر من موضع

يقولون لي جهلاً : متى تترك الطلى؟ فقلت : إذا ما عاد من فوته أمسُ
وكيف اطّراحي للمدام وفعلُها جليٌّ على الأبصار ليس به لبسُ

لكن . . ألم يكن لنشأته الدينية أي أثر في هذا ؟

أجل ، لقد ظهرت آثار هذه النشأة فعلاً ، وكانت توجه تفكيره وإحساسه توجيهاً خاصاً ، وكانت هناك ومضات تلمع أحياناً في شعره تدل على ذلك ، فكان يذكر أسباب تحريم الخمر ويقول إنها محللة إذا شربت بقلة واعتدال

وأعجب أن السكر في كل ملة حرام وإن أمسى اليها محببا
وتكثر منها المسلمون بسكرها وتترك نفعاً في القليل مجربا
وإن نظروا يوماً ابيباً مداوياً بها الهمّ قالوا نافلاً متطببا

فالقليل منها ـ عنده ـ حلال ، لأنه يعتبره دواءً للهموم والدواء حلال وهو يعجب لماذا يكثر منها الناس ، ويسخرون ممن يشرب منها القليل ، ويرمونه بالبخل ؟! ويحللها أيضاً بالمزج لأنه يرى أن المزج يفقدها خصائصها ، لذلك كان لا يشربها إلا ممزوجة بالماء

جرّدَ المزجُ عليها سيفَه عندما سلّت على الليل ظباها

وإلى ذلك كله فهو يتشبث بمدح القرآن للخمر ويتعلق به أشد التعلق فيقول

جاء نص الكتاب بالنفع فيها لو خلت من مآثم الشبهات

مشيراً لقوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع

للناس » فهو إذاً يشرب الخمر ولكن بعد أن يحلل شربه لها ، وبعد أن يبين فائدتها ومنافع شربها وقد رأيناه لا يشربها في رمضان لأنه يحرّم ذلك إذ يقول :

قلت : شهر الصيام قد جاء والشر ب ، ولو في دجاه ، عندي حرام

فنشأته الدينية لم تختف حتى في مثل هذه الأحوال ، ورأيناه يعالج المشكلة علاج رجل دين ، غير أنه كان يحرم ويحلل كما تتطلب منه الظروف ويتبع هذا التحليل والتحريم .

وكان يشرب الخمر بجميع أنواعها فنراه تارة يصفها بالبياض ، وتارة يصفها بالصفرة كالذهب ، وتارة يصفها بالحمرة كالياقوت ، وتارة يقول انه النبيذ . . وهكذا

وهو لا يشربها في مكان واحد وإنما يشربها في كل مكان ، مع الملوك في مجالسهم ، وفي بيته ، وفي الحانات وغير ذلك فكان ينادم الملوك ويسامرهم ويتحدث إليهم أحاديث الأديب واسع الاطلاع على نوادر المتقدمين من الظرفاء والأدباء والمجان ، ويقرأ وصف الخمر ومجالسها وكان يصف هذه المجالس وصفاً جميلاً دقيقاً ، فيذكر الخمرة المعتقة والطعام الجيد والفاكهة اللذيذة والزهور الجميلة وغير ذلك مما يجب أن يتوفر في المجلس كالندمان والمغنين والمغنيات ويعدد شروط الندمان وشروط الشرب وانعقاد المجالس وغير ذلك

* * *

وربما جمع في المجلس بين الحشيش والخمر أو كما يقول بين الخضراء والحمراء:

في نشوة الخضراء والحمراء أمنٌ من السوداء والصفراء

فالحشيش كان منتشراً في ذلك العصر ، ومعروف أنه يدعو إلى الخمول والكسل ، ومعروف أن الخمر تبعث في النفس النشاط والقوة ، خصوصاً إذا

شربت باعتدال فهو يجمع بينهما ليفوز بمفعوليهما معاً وربما استغنى عن الخمر بالحشيش فهو يقول

في الكيس لا في الكاس لي قهوة من ذوقها أسكر أو شمّها
لم ينه نصُّ الذكر عنها ولا أجمع في الشرع على ذمّها

فعدم تحريمها نصاً هو الذي يدفعه إلى شربها بدل الخمر التي يعترف بأنها محرمة فيحتال لتحليلها .

غير أن الصفي حين كبر وانهمك في مشاغل الحياة الكثيرة ، وانقطع عن الملوك ومجالسهم ، بادر إلى ترك الخمر . ولم تك هذه التوبة بنت ساعتها - على ما يظهر من شعره - وإنما جاءت بعد مقدمات ومحاولات ، فقد بدت منه هفوة في أحد المجالس فهمَّ بالتوبة لكنه عدل عن هذا الرأي وظل يفكر في التوبة طويلاً حتى تاب أخيراً وحضر مرة مجلساً من مجالس أصدقائه فأجبروه على شربها فأثرت فيه وآذته وبدرت منه غلطة مع أحدهم ، فاعتذر إليه قائلا

ضعف رأسي وقلة الايمان أوجبا ما رأيت من هذيان
والجنون الفحش الذي صرت منه خارجاً من طبيعة الانسان
فبحقي أموت يا مالك الرق وأثني عن المدام عناني

فهو الآن تائب حقاً ، لأنه يرى أن شرب الخمر كفر ، وأن فيه خروجاً عن طبيعة الانسان . وقد صمم على تركها حتى الممات . وقد فعل

٤ - وفاته :

عاد الصفي من مصر الى ماردين لكنه لم يطل المقام إذ لم يلبث أن غادرها إلى العراق ولا نعرف الوقت الذي قضاه في ماردين حتى ولا على

وجه التقريب وأقام في العراق فلم ينس الأرتقيين وفضلهم فكان يرسل إليهم القصيد بين الحين والحين ، يحن الى ربوعهم ، ويتشوق إلى مجالسهم ، ويصبو إلى أيامهم ، ويمدح أولئك الملوك الذين أكرموه أرسل الى الملك الصالح يقول :

ما هبّت الريح إلا هزّني الطرب إذ كان للقلب في مر الصبا أرب

وكم قصدت بلاداً كي أمرّ بكم وأنتم القصد لا مصر ولا حلب
وكم قطعت إليكم ظهر مقفرة لا تسحب الذيل فيأرجائها السحب
حتى وصلت إلى نفس مؤيّــدة منها النهى واللهى والمجد يكتسب

ويظهر لنا أن عودته للعراق لم تكن نهائية ، أو أنه حين جاء العراق لم يستقر فيه تمام الاستقرار ، فكان يرحل بين الحين والآخر إلى ماردين وغيرها من البلاد فهناك قصائد قالها في السنوات الأخيرة من حياته وهو في ماردين . لكن هذا الاستقرار ظهر في أيامه الأخيرة بجلاء ووضوح إذ أدركه الموت وهو في بغداد فقد كبر وضعف جسمه وتدهورت صحته وأصيب بألم المفاصل ، وقد أشار إلى ذلك في شعره

ألمَ المفاصل قد أسأت وليس لي أبداً على تلك الاساءة مسعد

كما يقول أيضاً معتذراً عن زيارة صديق له

قد أقعدتني عنكم مفاصل وإن أقامت في انقطاعي عذري

مات الصفي سنة خمسين بعد المائـــة السابعة للهجرة (٧٥٠) المصادف سنة تسع وأربعين وثلاثمائة بعد الألف للميلاد (١٣٤٩) فارتفعت تلك الروح الزكية إلى بارئها ، ووقف ذلك القلب الكبير ، وسكت ذياك النغم العذب الذي طالما ملأ الدنيا وشغل الأسماع . مات في بغداد ، ودفن فيها ، وكأن الأقدار أرادت أن يدفن في ثرى وطنه الحبيب الذي اضطر للتغرب عنه مدة

من الزمن غير قصيرة لحزن عليه الصديق وغير الصديق ، وتألم له القريب والبعيد ، وسرى الحزن في البلاد الاسلامية كلها من أجله لأنه القيثار الذي طالما تغنى بأمجاد العرب ومفاخر المسلمين .

والعجيب أننا ـ اليوم ـ لا نعرف له قبراً ، مع عظم المركز الذي كان يتمتع به ، ولعله اندثر في ذلك العصر الذي تدهور فيه كل شيء ولكن الأعجب من هذا والآنكد أن تاريخ وفاته لم يكن مضبوطاً مؤكداً ، فبالرغم من تأثر البلاد الاسلامية لوفاته لم تضبط هذه الوفاة باليوم والشهر . فلا نعرف إلا أنه مات في سنة (٧٥٠ هـ) ولكن هذا هيّن يسير إذا عرفنا كذلك أن المؤرخين والمترجمين له اختلفوا أيضاً في السنة التي توفي فيها ، فبالرغم من أن أكثرهم حددها بسنة خمسين وسبعمائة هجرية نجد صاحب (النجوم الزاهرة) يقول إنه توفي سنة (٧٤٩ هـ)(١) ، غير أنه عاد في كتابه (المنهل الصافي) فجعلها عام (٧٥٢ هـ) أما صاحبه (صلاح الدين الصفدي) فقد قال في (أعيان العصر) : توفي الصفي سنة (٧٥١ هـ) تخميناً وهكذا ترى الخلاف في تحديد هذه السنة أيضاً غير أننا نرجح سنة (٧٥٠ هـ) لاتفاق أكثر المؤرخين عليها ومنهم زين الدين حبيب(٢) ، وهو قريب عهد من الصفي إذ توفي سنة ٨٠٨ هـ

(١) والأعجب أن ناشر كتاب (العاطل الحالي) وهو (ولهلم هونرباخ) يفضل رواية عام (٧٤٩ هـ) بالرغم من أنها لم ترد الا في (النجوم الزاهرة) ولكنه يعود فيذكر الروايات الأخرى ، كما يذكر تاريخ أحد معاصري الصفي لوفاته بقوله « الجنة مأوى الصفي » ومجموعها بحساب الجمل (٧٥٢) .

(٢) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٧١

الفصل الثاني

ثقافته وعقيدته

١ – ثقافته :

ما كنت أعلم ، والبلاغة صنعتي ، أن البديع بحسن وجهك يعلم
بكم يهتدي يا بني الهدى ولي الى حبكم ينتسب
به يكسب الأجر في بعثه ويخلص من هول ما يكتسب

بدأ تعليم الصفي بدراسة علوم الدين ، كما هي العادة لذلك العصر في جميع البلاد الاسلامية ، فقرأ القرآن وحفظه ، وعرف معانيه ودرس تفسيره ، وقد تلقى أيضاً مبادئ العربية من قراءة وكتابة ثم درس النحو والصرف والبيان والعروض . وتعلّم علوم الدين من فقه وأصول وحديث . وقرأ التاريخ وأخبار العرب وأيامهم وغير ذلك من العلوم التي كانت في عصره ولكن ، وللأسف ، لم نستطع أن نعرف أساتذته في هذه العلوم ، ولم نعرف حتى اسم واحد منهم . ولم يرو جميع الذين ترجموا له وكتبوا عنه كيف تلقى هذه العلوم وعلى من تلقاها ، وإنما قالوا : « ولما بلغ الحلم اشتغل بالعربية والأدب وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها »[1] ولم نجد في شعره ما يوضح ذلك ، إذ لم يذكر فيه واحداً من أساتذته . وعلى كل حال ، فنحن نعلم أن الحلة كانت تزخر بكثير من العلماء والأدباء والشعراء في عصره ، فكان من الهين

(١) الدرر الكامنة – ابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٣٦٩

اليسير عليه أن يتلقى ما يلذ له من العلوم ، وأن ينهل ما يطيب له من الآداب . وكانت الكتب متوفرة والمكتبات منتشرة حافلة بكل نفيس فريد من كتب العلم والأدب ومن دواوين الشعر ، فكان يستطيع أن يقرأ ما يريد بسهولة . وقد مال الصفي إلى دراسة الأدب واللغة وعلومها المختلفة ، فبرع فيها أي براعة . وكان ذكياً بارع الذكاء ، فطناً حاد الفطنة ، قوي الذاكرة سريع الحفظ ، حاضر البديهة ظريف النكتة فنبغ أي نبوغ حتى صار أكبر شعراء عصره ، كما قال عنه (صلاح الدين الصفدي) وغيره .

واستطاع الصفي أن يتثقف ثقافة قرآنية حقة ، فقد ظل القرآن مصوراً في ذهنه راسخاً في فكره ، حتى ظهرت معالم هذه الثقافة في شعره واضحة ، فتراه تارة يضمن الآيات القرآنية أو بعض أجزائها ، كقوله :

رقت إلى الصب طول الأصل راقية فقلت: «قد جئت ياموسى على قدر»

وكما يقول

سكنت مقر عقولهم وتمكنت فغدت « توسوس في صدور الناس »

وأما قوله

شـــاد في ذروة العلاء دياراً « وجنى الجنتين منهن دانِ »

والجواد السمح الذي « مرج البحرين من راحتيه يلتقيان »

فواضح أنه يضمن بعض آيات من سورة الرحمن .

وضمن قوله تعالى في سورة العصر « والعصر إن الانسان لفي خسر » قائلاً

فان كان عصر الأنس منكم قد اختفى فوالعصر إني بعد ذلك في خسر

وهناك كثير من ألفاظ القرآن وعباراته استعملها الصفي في شعره كتصعير الخد وغيره . يقول :

(تبت يدا) من تاب عن رشف الطلا والكأس متقد كخد فتـاة

ويقول أيضاً :

فلوح لي قريضك بافتخـــار وعجب جاء عن (تصمير خدّ)

أو يقول :

سارت بنا تطوي القفار فعندما (آنست نارك)قلت للركب: امكثوا

والصفي يشير كثيراً إلى قصص الأنبياء التي وردت في القرآن ، فالنبي إبراهيم (عليه السلام) وقصة نجاته من نار نمرود يشير إليها في قوله :

قلت عند الاياب : يا نار برداً وسلاماً كوني لابراهيم

ويشير إلى قصة موسى وفرعون والسحرة بقوله :

ظننت حبال السحر ما قد أتوابه وتلك عصا موسى لها تتلقف

وأما قصة النبي يونس ونجاته من الغرق بواسطة الحوت فيقول بصددها :

هدّ قلبي من كان يونس قلبي إذ نبـــذناه في العراء سقيما

وقد يجمع قصصاً وأخباراً كثيرة عن الأنبياء في قصيدة واحدة كقوله :

أنبأتنا الأنباء من سالف الدهـــر وعدّت لنا القرون القروما

وحكت كيف أصبحت فتية الـكهف رقوداً وكيف حلوا الرقيما

وبماذا تجنبتْ نـــار (نمرو د) خليـــل الالـــه إبراهيما

وغداة امتحانـــ يونس بالنو ن وقـــد كان في الفعال مقيما

وتشكى يعقوب إذ ذهبت عيـــناه من حزنه وكان كظيما

والتناجي بالطور إذ كلّم الرحـ ـمن موسى نبيّـــه تـكليما

ودعاه المسيح إذ نعش الميـــت من رمسه وكان رميما

فنرى هنا قصة أهل الـكهف ، وقصة حرق سيدنا إبراهيم (سلام الله عليه) ، ونجاة يونس (عليه السلام) ، وقصة يوسف بن يعقوب ، وحزن أبيه من أجله ، ومناجاة موسى ربه بالطور ، وإحياء عيسى للميت أمام قومه

* * *

وبعد أن درس القرآن ووعاه وحفظه تلقى علوم الدين من فقه وحديث وأصول وغير ذلك . ولم تظهر آثار هذه الدراسة في شعره كما ظهر أثر القرآن . وإنما هناك إشارات بسيطة وتعابير قليلة من تعبيرات الفقه ، ليس فيها شيء من الفقه الشيعي الامامي الذي لابد أنه تلقاه في الحلة التي كانت يومذاك منبعاً لهذا العلم ، وكعبة لقاصديه ، وإنما هي من الفقه العام ، فهو يشير إلى القياس في قوله :

يناسب يوسف الصديق حسناً ووصفاً في قياس ذوي العموم

أو في قوله :

يا سميّ الذي له خبت النـــار وكانت له سلاماً وبردا
لم عكست القياس في نار قلبي فاذا ما ذكرت تزداد وقدا

وعبارات الفقهاء تنعكس في شعره فتراه يقول :

جيلكم كان في رقّي لكم سبباً «لا يوجدالحكم حتى يوجدالسبب»

أو يقول

طبع الأنام على الخلاف وجوده في الناس « مسألة بغير خلاف »

ومن ذلك قوله

شرطي بأن حشاشتي رقٌّ لكم «والشرط، في كل المذاهب، أملك»

ويقول :

واقترضنا منها الدموع فقالت « كل قرض يجرُّ نفعاً حرام »

ففي هذه الأبيات وفي غيرها كثير من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم مثل : « لا يوجد الحكم حتى يوجد السبب » و « مسألة بغير خلاف » و « الشرط في كل المذاهب املك » و « كل قرض يجر نفعاً حرام » فهو لا شك قد تثقف ثقافة فقهية ، وتأثر بها فصار يسهل عليه أن يستشهد بعباراتها ، ولكن لم يظهر الأثر الذي كنا نرجوه في شعر الصفي ، فقـــد كان يجب أن يظهر في وضوح أثر الفقه الشيعي الذي كانت الحلة مركزاً له في ذلك العصر

* * *

وتظهر ثقافته التاريخية في شعره أيضاً ، فنراه يحلّل مواقف بعض الخلفاء العباسيين ويعلّل أسباب نجاح بعضهم وفشل البعض الآخر في الحكم، يقول :

بالبطش تمّ الملك (لابن مراجل) وتأخرّ (ابن زبيدة) المتقدّم
وعنت (لمعتصم) الرقاب ببأسه ودها العباد بلينه (المستعصم)

فابن مراجل وهو (الخليفة المأمون بن الرشيد) ، استطاع أن يستولي على الخلافة وينتزعها من يد أخيه(الأمين) بالقوة والبطش ولولاهما لما تمّ له ذلك. في حين أن الأمين كان ضعيفاً ليناً فأفلت الزمام من يده ، وفقد الخلافة وقتل شرّ قتلة وكان الخليفة للمعتصم قوي الشكيمة شديد البأس لذلك أطاعه الجميع وخضعوا له وكان المستعصم سياسياً بارعاً يعرف كيف يسلس القياد فيستميل الناس جميعاً له

وهو يكثر من ذكر أيام العرب والتمثيل بها وبأسبابها ، وما أنتج بعضها من بطولات ، وما جرّ بعضها الآخر من ويلات ، وحروب الاسلام وكيف كان الهدى يقاتل الضلال ، والايمان يحارب الشرك ويتغلب عليه ، فيستشهد بحرب البسوس وبدر وحنين والجمل وعمورية . . .

وترى بيننا وبين الملاهي وكؤوس المدام (حرب البسوس)

أو يقول :

أنت بدر التمام فاجعل لنا بينك عهداً وبينه (حرب بدر)

أو يقول

لقد فلت جموع العاشقين به في وقعة الظبي لا في(وقعة الجمل)

أو يقول :

ورأوك معتصم العزائم فاختشوا بك (يوم عمورية) المشهودا

أو يقول :

وجلي الكروب عن سيد الرسل ببدر وخيبر وحنين

ونلمس أثر التشيع في ذكره هذه الوقائع والحروب فهو حين يذكر

موقعة الجمل لا ينسى ما فعله فيها الامام علي حين فلّ جموع القوم وحصد رؤوسهم وردّهم مدحورين ولا ينسى كذلك مواقف الامام علي في موقعة بدر وخيبر وحنين ، التي ضرب بها أروع الأمثال للبطولة والتضحية والاخلاص للدين القويم والمبدأ العظيم

ونجد له اطلاعاً واسعاً في أعلام التاريخ من تاريخ عربي وإسلامي ، وغيره من تواريخ الأمم . فيذكر (بلقيس) ملكة (سبأ) وما اشتهرت به من جمال فيقول

رشأ من جآذر الترك لكنْ   حاز إرث الجمال من (بلقيس)

ومثله قوله في كسرى وقيصر :

بكأس لها أشخاص (كسرى وقيصر)   وقد أحدقت من حولها الروم والفرس

وكقوله في الخنساء وأخيها صخر ، والزباء ووزيرها قصير :

فان تكن (الخنساء) إني (صخرها)   وإن تكن (الزباء) إني (قصيرها)

ويقول :

إن كان زهوة (كسرى) بالألوف فكم   وهبت من عدد بالألف مجذور

وكان بالجوسق (النعمان) تاه فكم   من جوسق لك بالشقين معمور

في كل مستصعب الأرجاء ممتنع   تبنى القناطر فيه بالقناطير

لو مرّ (عاد بن شداد) بجنته   أقام يقرع فيها سنّ مغرور

* * *

وهو مثقف ثقافة حقة في علوم العربية وآدابها ، واطلاعه على كل شيء فيها واسع ، ولا نزاع في ذلك . ويكفي أن نعرف أنه حين أراد نظم القصيدة البديعية قرأ سبعين كتاباً في البديع ، وقد ذكر ذلك معاصروه ، كما ذكره هو في شرح البديعية وقد ألف كتاباً عظيماً درس فيه الأزجال ، يعتبر المرجع الوحيد في هذا الفن .

ودرس النحو والصرف والبديع وتاريخ الأدب والشعر وغير ذلك من

علوم العربية ، وتظهر آثار هذه العلوم كلها في شعره ، فمن يقرأ له :

يا جاعلي خبرى بالهجر مبتـــدأ لا عطف فيكم ولا لي منـكمُ بدل
رفعت حالي ورفع الحال ممتنع ، اليـكم ، وهو للتمييز يحتمل

لا يشك في أنه مثقف ثقافة نحوية جيدة فهو يذكر الخبر والمبتدأ ، والعطف والبدل ، ويذكر الحال وامتناع رفعه ، والتمييز واحتمال ذلك فيه

ويذكر أن الاسم مصروف وممتنع عن الصرف في قوله

والماء ما بين مصـــروف وممتنع والظل ما بين ممدود ومقصور
في روضة نصبت أغصانها وغدا ذيل الصبا بين مرفوع ومجرور
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها والماء يجمع فيها جمع تكسير

ونرى أنه يذكر إشارات من علم العروض ، فيشير إلى دوائره ورموزه وتفعيلاته يقول :

ذوي بيوت في المجـــد سالمة كل أفاعيلهن متزنـة

ويقول مشيراً إلى بعض أبحر الشعر

حبيبي (وافر) والشوق مـــني (طويل) والجوى عندي (مديد)

وهو يضمن الـكثير من أمثال العرب كما في قوله :

لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ولا تتم المنى إلا لمن صبرا

فهو يضمن المثل القائل « من صبر ظفر » وحين يقول :

وأغزر الناس عقلاً من إذا نظرت عيناه أمراً غدا بالغير معتبرا

يضمن المثل المشهور « العاقل من اتعظ بغيره » :

فطبق الأرضين حـــتى بلـــغ السيـــل الزبى

فيضمن المثل العربي « بلغ السيل الزبى » .

وأما الأدب العربي فهو ميدان الصفي ، لأنه أحد فرسان هذه الحلبة المجلين ، لذلك كان كثير الاطلاع على هذا الأدب ، كثير الحفظ لما فيه من غرر الشعر وفريد القصيد ، وواسع المعرفـة بأخبار الشعراء وأحوالهم وما

يشتهرون به ويتصفون . فكان يشير إلى أعلام الشعر العربي ، كل في ميدانه .
فحين يأتي ذكر الهوى والعشق يقول :

فليس (جميل) في الهوى و (كثير) و (عروة العذري) و (ابن ذريح)
بأعرف مني في الملاح توسماً ولا جنحوا للعشق بعض جنوحي

وعند الحزن يأتي بالخنساء :

أيا صخر الجنان أدمت نوحي فها أنا فيك (خنساء) الرجال

وإذا ذكر الأدب جاء بالمبرّد قائلاً :

سماحة تخفض قدر حاتم وأدب يهزأ (بالمبرد)

ويعرف غير هؤلاء من أطواد الأدب والشعر العربي المشهورين ، وكيف لا وهو قد قرأ الشعر والأدب وتأثر به وأحب الكثير منه فحفظه ، وصار يقتبس معانيه ويضمن بعض أبياته في شعره ، ضمن قول زهير

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمّر فيهرم[1]

فقال :

فما أنت إلا « خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمّر فيهرم »

وقال الصفي أيضاً :

فكن قائلاً قول السموءل تائهاً بقولك عجباً وهو منك قليل
« وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول »

وواضح أن البيت الثاني للسموءل ، وقد أشار الصفي في البيت الأول إلى ذلك وأما قول صفي الدين :

إذا بدا معناه قال الورى « كم ترك الأولُ للآخر »

فالشطرة الثانية لأبي تمام الطائي في بيته :

يقول من تقرع أسماعه « كم ترك الأولُ للآخر »[2]

---

(١) ديوان زهير ص ٢٩ ـ طبعة دار الكتب سنة ١٩٤٤

(٢) ديوان أبي تمام ص ١٤٣

وقال :

إذا ما فعلت الخير ضوعف شرُّهم « وكل إناء بالذي فيه ينضح »

وهذه الشطرة الأخيرة من شعر (الحيص بيص) يرثي بها الامام الحسين ابن علي (رضي الله عنه) في بيته

فحسبكم هـذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيـه ينضح[1]

ولما كان قد قرأ دواوين الشعراء المتقدمين وحفظ الكثير من شعرهم ، فقد ظل متأثراً بالكثير من معانيهم ، ثم اقتبس الكثير من هذه المعاني في شعره ، قال يمدح الملك الصالح :

أخفى الملوك تجلّيه لأنهم شهب إذا بزغت شمس الضحى نزحت

ولا شك أنّ هذا المعنى مأخوذ من قول النابغة الذبياني :

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب[2]

وقد أخذ معنى قول الفرزدق في (علي بن الحسين) :

ما قال (لا) قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاءه (نعم)

فقال

(نعـمٌ) لسائـله جوابٌ لم يصل يوماً إلى (لن) ولا (لا)

ويقول كذلك :

كالصلّ يظهر ليناً عنـد ملمسه حتى يصادف في الأعضاء تسكينا

يطوي لنا الغدر في نصح يشير به ويمزج السم في شهـد ويسقينـا

فتراه يضمن قول الشاعر :

إن الأفاعي وإن لانت ملامسهـا عند التقلب في أنيابهـا العطب

وهو إلى ذلك كله قد خمس الكثير من قصائد الشعراء المتقدمين ، مما كان يحس إحساساً عميقاً أنها تعبر عما في نفسه أصدق تعبير ، وتوضّح ما يجيش

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٤

(٢) ديوان النابغة ص ٥٧ . مطبعة السعادة .

في صدره أحسن توضيح ، نخمس أبيات الحماسة المنسوبة إلى (قطري بن الفجاءة) التي مطلعها

أقول لها وقد طارت شعاعاً : من الأبطال ويحك لا تراعي

فقال :

ولما مدت الأعداء باعا وراع النفس كرهم سراعا
برزت وقد حسرت لها القناعا (أقول لها وقد طارت شعاعا)
(من الأبطال ويحك لا تراعي)

وخمس قصيدة السموءل الحماسية التي يقول فيها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

فقال :

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه وطول الفلا رحب لديه وعرضه
ولم يبل سربال الدجى فيه ركضه (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه)
(فكل رداء يرتديه جميل)

* * *

وليست هذه فقط هي ثقافة الصفي ، ففي شعره ما يدل على أن له إلماماً حسناً بعلم الجغرافية وعلم الفلك فهو يعرف أن القمر يستمد الضياء من الشمس وأنه حين يبتعد عنها يكون بدراً وحين يقترب منها يدخل في المحاق فهو إذاً يعرف أوجه القمر :

حالي وحالك كالهلال وشمسه مذ أكسبته النور في إشراقه
فإذا نأى عنها حظي بكماله وإذا دنا منها رمي بمحاقه

ويذكر سبب كسوف الشمس فيقول :

مثل قول الشمس المنيرة للبد ر بلفظ العتاب والاشفاق :
أنا أكسبتك الضياء وأكملت لك النور ليلة الاشراق

وإذا ما دنوت بالقرب مني   نلت مني الكسوف حال التلاقي

ويذكر الكواكب السيارة وغيرها من النجوم في قوله :

وكأن المشتري ذو أمل   نال حظاً ومن البدر ارتشا
وحكى المريخ في صنعته   قد محبوب بلحظ خدشا
وسهيل مثل قلب خافق   مكن الرعب به فارتعشا
وبنات النعش سرب نافر   هام ذعراً ومن النسر اختشى
والثريا سبعة قد أشبهت   شكل لحيان بنحت نقشا

ففي هذه الأبيات يصف (المشتري) و (المريخ) و (بنات النعش) و (الثريا) كلاً بوصفه الخاص وميزاته التي ينفرد بها ... ويعرف أن الثريا لا يمكن أن تدرك سهيلاً فيقول :

أتمنى العراق في أرض حرّا   ن وهل تُدرِك الثريا سهيلا ؟!

* * *

وقد يكون الصفي يعرف اللغة الفارسية ـ أو شيئاً منها ـ لأنه كان يظهر في شعره بعض الآثار اليسيرة التي تدل على ذلك ، ولكن ليس هذا فقط فهو لا يؤكد معرفته للفارسية ، فربما تأثر من هنا أو من هناك ، وإنما هناك شيء آخر أهم منه ، وهو أن الصفي نظم قصيدة طويلة تبلغ خمسة وسبعين بيتاً خلط فيها بين اللغة الساسانية الفارسية واللغة العربية وقد جمع فيها غرائب الساسانيين الفرس وحيلهم ونوادرهم وفنونهم ، ومطلعها :

بتبريخ أدصاني وتربيخ مشتاني   غدت سائر الأخشان والفرس تخشاني

ولا يمكن أن ينظم الصفي مثل هذه القصيدة إلا إذا كان ذا معرفة تامة باللغة الفارسية الساسانية وألفاظها ومفرداتها ، واطلاع واسع على حيل الشحاذين الساسانيين ، وهم من الفرس ، في الكدية وما شابهها . ولا نستبعد أن يكون قد تعلم الفارسية من كثرة تجواله وتطوافه للتجارة . فقد اختلط بأناس

كثيرين من مختلف الأجناس ، وقديماً قالوا : « سافر ففي الأسفار سبع فوائد » ولِمَ لا يكون تعلم اللغات الأجنبية من هذه الفوائد السبع ؟ وبخاصة إذا علمنا تقدير الصفي للغات الأجنبية وحثه على تعلمها ، واعترافه بمزاياها استمع إليه يقول :

بقدر لغات المرء يكثر نفعه   فتلك له ، عند الملمات ، أعوان
تهافت على حفظ اللغات مجاهداً   فكل لسان ، في الحقيقة ، إنسان !

ولكن ، للأسف ، لم نجد غير هذا الدليل مما يؤكد لنا معرفة الصفي بالفارسية وإن كان ، على كل حال ، دليلاً حسناً .

* * *

فثقافة الصفي متعددة النواحي، متشعبة الفروع ، فيها علوم الدين وعلوم اللغة والأدب ، وفيها التاريخ والجغرافية ، وفيها اللغة الأجنبية . وقد ساعدته هذه الثقافة الواسعة الغزيرة على انتاج آثار علمية كثيرة ، فمؤلفاته كثيرة متنوعة منها الشعرية ومنها النثرية ، فأما الشعرية فهي ديوانه ، ودرر النحور ، والبديعية وأما مؤلفاته الأخرى فهي

١ ـ الأغلاطي ، أو أغلاطي وهو معجم للأغلاط اللغوية التي يقع فيها الكتاب والأدباء ، توجد منه نسخة مخطوطة في (الاسكوريال) ، وقد صورت الجامعة العربية نسخة على هذا المخطوط موجودة في مكتبتها .

٢ ـ وصف الصيد بالبندق : وهو كتاب يصف فيه صيد الطير بالبندق ، ولهذا الكتاب قيمة تاريخية كبيرة لأن هذا النوع من الصيد قد بطل استعماله الآن وقد سماه الصفي (الخدمة الجليلة) وتوجد منه نسخة مخطوطة في (برلين) برقم ٥٥٣٧

٣ ـ العاطل الحالي ويعتبر هذا الكتاب المرجع الأول والأخير في دراسة الفنون المختلفة للشعر العامي من زجل وموالي وغيره ، فقد درسها الصفي دراسة وافية مبيناً أنواعها وخصائص كل نوع وأوزانه وعلله . وذكر

أمثلة شعرية لكل نوع وتوجد نسخة في مكتبة جامعة القاهرة رقمها ٢٢٩٦٥ أدب[١] ، ونسخة في ميونخ برقم (٥٢٨) .

٤ - كتاب (الأوزان المستحدثة) كالدوبيت توجد منه نسخة خطية في عمان رقم ٥٥٤٢ .

٥ - رسالة الدار والفار : منه نسخة مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني ٦٢٤ ف ٨ .

٦ - ديوان صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء .

٧ - الدر النفيس في أجناس التجنيس ، القاهرة ٢٩٦

٢ - عقيدته الاسلامية :

كان الصفي مسلماً يفخر باسلامه ، ولا عجب لقد كان آباؤه وأجداده من المدافعين عن حمى الاسلام ، وممن نشروه في مختلف البلاد في الفتوحات العظيمة التي اندفعوا فيها يحاربون الشرك في بلاد كسرى وقيصر ، ويقاتلون

---

(١) لابد لي أن أشير هنا أني كنت أرغب في نشر هذا الكتاب الثمين ، ولهذا قمت بنسخ كثير من صفحاته حين رجعت الى نسخة جامعة القاهرة وهي نسخة جيـــدة واضحة الخط . . ولكن أحد المستشرقين سبقني الى ذلك قبل طبع بحثي عن صفي الدين نفسه فوجب علي أن أنوه عن طبعته هذه .

لقد نشر هذا الكتاب مجمع العلوم والآداب - لجنة الاستشراق - في ألمانيا ، وقد حققه المستشرق (ولهلم هو نرباخ) والحق انه قد بذل جهداً عظيماً يحمد عليه ، اذ قابل بين ثلاث نسخ موجودة في (استانبول) و (مونشن) و (منشاستر) ولم يكتف بهذا فقد جاء العراق ليستمع الى اللغة العامية وليعرف الشيء الكثير مما قد يشكل عليه . وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة فرانتز ورشتايم وبسبادن بألمانيا سنة ١٩٥٥ طبعاً أنيقاً جيلا على ورق صقيل وعدد صفحاته ٢١٤ صفحة ، واضافة الى هذا ما يقرب من هذا العدد الترجمة الألمانية التي أجهد المؤلف نفسه بهذا وفي الكتاب عدة لوحات زنكغرافية تصور بعض صفحات المخطوطات المختلفة .

بقوة صادقة وعزم أكيد وقد ولد الصفي في مدينة إسلامية صرفة ، أسسها أمراء مسلمون لا يغيرون على شيء قدر غيرتهم على الاسلام ، ولا يعتزون بشيء مثل اعتزازهم بدينهم ، ولا يتغلغل في أعماق نفوسهم شيء كما يتغلغل الايمان القويم ، فكانت الحلة حصناً من حصون الاسلام القوية ، ومشعلاً من مشاعل العلوم الاسلامية الوقادة

وحين ولد الصفي ورأى العلوم الدينية تلقن للأطفال والصبيان لم يجد بداً من تلقيها وتفهمها ، فأقبل عليها ملتهماً ، فقويت عقيدته وتغلغل إيمانه في أعماق روحه ودفين نفسه . حتى رأيناه يمدح ممدوحيه بالتدين والايمان والتقى والورع ومخافة الله والذبّ عن حياض الاسلام قال يمدح الملك المنصور :

ضبط لدين الله منذ علا الاسلام آمنه من الخفض
ضبطت أمور المسلمين به ضبطاً به أمنت من النقض

وقال يمدح الملك الصالح :

رعيت أمور المسلمين بهمة رأيت بها مستقبل الأمر ماضيا

وقال يمدح الملك الناصر محمد

قد عز دين محمد بسميّه وسما بنصرته على الأديان

وحين كتب إلى قاضي قضاة ماردين (شمس الدين عبد الله بن المهذب) مهنئاً أياه بالحج لم ينس أن يصفه بالايمان والتقوى قال واصفاً إياه بالصائم المصلي :

كم صيام قرنته بقيام وصلاة وصلتها بصلات

وحين هنأ الملك الصالح بالدار التي عمرها في (ماردين) ، لم يغب عن باله تدينه فلم ينس أن يذكره بأن الدار يجب أن تشيد على التقوى والايمان ، لكي لا تكون داراً الدنيا فحسب وإنما يجب أن تكون داراً للآخرة أيضاً فيقول

هكذا إن بنى المنازل باني وبناها مشيدة الأركان

كل من أسس البناء على تقـــوى إلـــه السماء والرضوان

فليشد قبله البناء كما قـــد شيدته مناقب السلطان

المليك الذي يرى المنّ اشرا كما بوصف المهيمن المنـان

ذلك لأنه لا يهاب شيئاً ولا يخاف أحداً إلا الله العزيز القـــدير الذي خلقه وصوره فأحسن صورته إذ يقول :

لا تـكن خائفاً سوى الله شيئاً إنها من شواهد التوحيد

وكان الصفي يحرّض السلاطين والملوك والأمراء على حرب المغول وجهادهم ويستنهضهم لطردهم من البلاد الاسلامية وتخليص المسلمين منهم ، وكان يصفهم بالشرك والـكفر ، ويرى أنهم أصل البلاء الذي حل بالمسلمين ، وأساس المحن التي انتابتهم وانهم هم الذين انتهكوا حرمة الدين فسببوا هذا التدهور والانحطاط وقد منعه تدينه وشعوره باعتدائهم على الاسلام أن يتصل بهم وأن يمدحهم وها هو يشكو إلى الرسول الـكريم ما يلقاه المسلمون منهم :

إليك رسول الله أشكو جرائماً يوازي الجبال الراسيات صغيرها

كبائر لو تبلى الجبال بحملها لدكّت ونادى بالثبور ثبورها

ولولا تديُّن الصفي وقوة إيمانه لما تحرّج من شرب الخمر حين اضطرته ظروفه أن يشربها في بلاط الأرتقيين ، فصار يحتال على شربها بالتحليل فيرى أن الاعتدال في شربها يحللها لأنها تعتبر دواء ، وأن مزجها بالماء يحللها لأنها تفقد خواصها . وكان لا يشربها في رمضان حتى في المساء

قلت : شهر الصيام قد جاء والشرب ولو في دجاه ـ عندي ـ حرام

وربما تاب إلى رشده وعاد إلى هاتف ضميره الحي اليقظ الذي يفيض بإيمان قوي بالاسلام ، واعتقاد صادق بتعاليمه ، فاعترف بأن شرب الخمر حرام وأن الخمر رجس من عمل الشيطان :

فاسقني القهوة التي قيل عنها : إنها من شرائط الشيطان

ويقول حين يهم بشرب الخمرة ، مضمناً قول (الطغرائي) :

« فهل تعين على غيٍّ هممت به ؟ »

وربما قال إنه ما شربها إلا لوثوقه بأن الله يغفر الذنوب جميعاً :

لا تخف معْ رجاء ربك ذنباً ⁂ إنـــه يغفر الذنوب جميعا

ويقول

وثقْ أن ربَّ العرش جل جلاله ⁂ غفور رحيم للسرائر مدرك

وما كان من ذنب لديك فانه ⁂ سيغفره إلا به حين يشرك

ولولا شعوره الديني وإيمانه القوي ، لما تاب عن شرب الخمر

فبحقي أموت يا مالك الرقّ ⁂ وأنني عن المدام عنـــاني

وتديُّن الصفي هو الذي دفعه إلى حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول الكريم ، وهناك وقف بين يدي بارئه يدعوه قائلاً

يا رب إني دخلت بيتك والـــداخل بيت الكريم في حسبه

ونستطيع أن نلمس إيمان الصفي بالاسلام وتعصبه له وتعلقه به من مدائحه الكثيرة للنبي الكريم فهو يقول :

غـــدت تتقاضانا المسير لأنها ⁂ إلى نحو خير المرسلين مسيرها

ترضُّ الحصا شوقاً لمن سبح الحصا ⁂ لديـــه وحيّا بالسلام بعيرها

إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة ⁂ إلى خير معبود ، دعاها بشيرها

محمد خـــير المرسلين بأسرها ⁂ وأولها في الفضل وهو أخيرها

فتراه يصف الرسول الأمين بالصفات التي يعتز بها كل مسلم حق الاسلام ، فهو سيد الرسل وخير المبعوثين بالحق والهدى ، وأول الأنبياء فضلاً وآخرهم وخاتمهم بعثاً وذكر كل مناقبه وفضائله وعلاماته . فحين ولد خمدت نار فارس وتزلزل ايوان كسرى وعرش قيصر :

خمدت لفضل ولادك النيرانـــ ⁂ وانشقَّ من فرح بك الايوان

وتزلزل النادي وأوجس خيفة — من هول رؤياه (أنوشروان)
فتأول الرؤيا (سطيح) وبشّرت — بظهورك الرهبان والكهان
فوضعت لله المهيمن ساجداً — واستبشرت بظهورك الأكوان
ورأت قصور الشام (آمنة) وقد — وضعتك لا تخفى لها أركان
ولو انني وفيت وصفك حقه — فني الكلام وخانت الأوزان
فعليك من رب السماء سلامه — والفضل والبركات والرضوان

أفليست هذه عقيدة المسلم المؤمن ايماناً راسخاً بدينه معتز بنبيه ؟

٣ - تشيعه :

كان المسلمون في هذا العصر قد انقسموا إلى فرق ومذاهب مختلفة ، فهناك الشيعة وأهل السنة ، وهناك المعتزلة والخوارج . . . وكان لكل فرقة فقه خاص وعلماء مجتهدون في فقهم ، ألفوا الكتب الطوال وكانت لهم الحجج والبراهين على صحة آرائهم ، وكانوا يخالفون الفرق الأخرى الرأي ، فيجادلونهم ويردون على آرائهم ، وربما كفروا غيرهم وجردوهم من الاسلام ، فوقعت بسبب ذلك الحروب الكثيرة بين المسلمين . . . فالى أي فرقة مال الصفي ؟.. وأي مذهب اعتقد ؟

كان الصفي شيعياً إمامياً لا شك في ذلك ؟ وقد قال عنه هذا معظم الذين ترجموا له ، فقد قال (صلاح الصفدي) : « . انه كان شيعياً ، وليس هذا الأمر في الحلة بدعياً » . ورأى الجميع مثل رأي الصفدي ، إلا أن (ابن حجر العسقلاني) لم يرض بذلك . فقد قال « . . . وكان يتهم بالرفض وفي شعره ما يشعر به ، وكان مع ذلك يتنصل بلسان ، وهو في أشعاره موجود »

وابن حجر هنا يعني بالرفض التشيع بصورة عامة ، فهو لا يفرق بين مذاهب الشيعة المختلفة ، لا يفرق بين الشيعة الامامية والغلاة الرافضة وغيرهم . والدليل على ذلك ، أنه قال معتمداً على شعر الصفي ، ولا نجد في شعر الصفي أي غلو ولا أي تعصب لمذهبه ، كما وجد عند غيره من الشعراء الذين كانوا يتعصبون تعصباً أعمى دون تعقل ، ويؤمنون بخرافات لا أساس لها من الصحة ، والمذهب الشيعي منها براء ، وربما كان منهم من يؤله (علياً) إلى غير ذلك مما لا يرضى به (علي) نفسه ونجد أن آثار التشيع التي ظهرت في شعر الصفي معتدلة كلها ليس فيها أي حرج ، وليس هناك أي داعٍ للتنصل عنها وما دام ابن حجر قد اعتمد على ما في شعر الصفي (لاتهامه) بالرفض والغلو ، فاننا نعتمد على شعره أيضاً لنقول إنه ما كان مغالياً وإنما كان شيعياً إمامياً . فالمذهب الشيعي لا يختلف عن المذاهب الاسلامية الأخرى في شيء من صميم الدين ، فهي متفقة كلها على أساس الدين ومبادئه العامة وأركانه ، ولا تختلف في صلب الدين فكلها تستمد تعاليمها من الشجرة المحمدية الطيبة ، وكل ما هنالك من خلاف ، فهو في المسائل الفرعية فحسب . كالخلاف بين الحنفية والشافعية ، أو بين المالكية والحنبلية . اللهم إلا الخلاف في مسألة الخلافة والامامة ، فالامامية يقولون بامامة (علي بن أبي طالب) (رضي الله عنه) بعد النبي نصاً ظاهراً وتعييناً صادقاً من غير تعريض بالوصف بل بالاشارة إليه بالعين . ولا يرون شيئاً أهم في الدين من تعيين الامام حتى لا يفارق النبي أمته دون أن يكون لها أمير يوحد كلمتها ويدير سياستها ، فلا تذهب مذاهب شتى ويتفشى فيها الخلاف[1] وليس هنا مجال البحث في ذلك أو التوسع فيه ، وإنما نريد أن نشير إلى أن المذهب الشيعي لا يختلف عن المذاهب الاسلامية الأخرى إلى درجة الاعتقاد بأن الشيعي المذهب خبيث الاعتقاد ، وأن من تشيع قيل إنه يتهم بذلك ، وأن هذه التهمة

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٢٢

يجب أن تنفى عن الرجال الفضلاء - كما يقول بعض الباحثين - وقد جاء الاسم من التشيع لآل البيت - وخاصة الامام علي بن أبي طالب - وحبهم جميعاً ، وهل حب آل البيت جريمة يتهم بها المرء ؟

ولمَ لا يكون الصفي شيعياً وقد ولد في الحلة ؟ وكانت الحلة مركزاً لعلماء الشيعة وموطناً لمدارس الفقه الامامي ، ومنبعاً لعلومهم ومعارفهم ؟ فكانت المنار الذي أضاء العالم الاسلامي ومزق سجف الظلام الدامس الذي ادلهمّ عليهم في هذه الفترة من الزمان وخرجت منها المؤلفات العظيمة تحمل بين طياتها أقوم المناهج وأوضح السبل في أمور الدين والدنيا كيف لا وإن الذين أسسوا الحلة ، وهم الأمراء المزيديون ، كانوا من الشيعة الامامية المتعصبين ، المشهورين بحبهم لعلي وآل علي ، المعتقدين اعتقاداً راسخاً أنهم أحق الناس بامامة الناس ؟ لأنهم أهل العلم والفضل والتقى والورع . فمنذ القديم ، قبل أن يستوطنوا الحلة ويتخذوها عاصمة لهم ، وقد كانوا قرب البصرة ، استطاع أميرهم (أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي) أن يسعى لدى الخليفة العباسي سنة (٣٩٨ هـ) لارجاع (الشيخ المفيد) فقيه الشيعة الامامية في بغداد ، حين أخرجه الخليفة من بغداد بعد الفتنة التي وقعت بين الشيعة والسنة ، ولم يسع الحكومة إذ ذاك إلا أن تجيب طلب الأمير المزيدي ، وتعيد الفقيه الشيعي إلى مكانه ومكانته

وحين أراد السلطان المغولي (محمد خدابنده) - خربنده - أن يعرف حقيقة المذهب الشيعي أشار عليه أحد أصحابه أن يرسل إلى أهل الحلة ليبعثوا إليه بعالم من علمائهم يبسط له مبادئ هذا المذهب . فأرسلوا له العلامة الحلي (جمال الدين أبو منصور) فاستطاع أن يحبب إليه المذهب الشيعي فاعتقده وتعصب له ، وتشيع معه جمع غفير من أقاربه وأصحابه(١) .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٣٨

وهذا الشاعر عبدالرحمن الكناني المتوفى سنة (٦٢٩ هـ) يقول في (راجح الحلي الأسدي) :

يقولون لي ما بال حظك ناقصاً   لدى راجح رب السماحة والفضل
فقلت لهم إني سميُّ ابن ملجم   وذلك إسم لا يقول به حلي(١)

ومعروف أن (ابن ملجم) هو الخارجي الذي قتل الامام علياً (رضي الله عنه) فهل هناك أحسن من هذا الدليل على تشيع الحليين ؟

وظلت الحلة على عقيدتها ومذهبها الشيعي الامامي حتى اليوم . يتعالى على مآذنها اسم علي بعد ذكر النبي الكريم ، ويتردد على منابرها ذكر آل البيت الكرام ، وتتلى في محافلها مناقبهم الكريمة وتذكر مواقفهم المجيدة في الدفاع عن الاسلام ، كذكر واقعة الطف التي استشهد فيها مع الامام (الحسين بن علي) أهل بيته الأنجاب في سبيل الحق والعدالة والحرية والواجب .

فالصفي الذي ولد في هذه البيئة لابد أن يتأثر بها ، ولابد أن يعتنق مذهبها ، وفوق هذا كله فقبيلته كانت علوية منذ القديم ، منذ الخلاف بين علي ومعاوية ـ الكثير منهم أنصار معتدلون ، والقليل منهم شيعة متعصبون ـ وهل يدهب العربي إلا مذهب الذين انحدر من صلبهم ، وهل يتبع إلا سنتهم ؟ خاصة إذا كانت مما يرضي الله ويرضي الرسول ، وماذا يرضي الرسول أكثر من حب آل بيته الكرام رعاة الدين وحفظة تراثه المجيد ؟

فالصفي يقول مبيناً حبه لآل البيت مخاطباً النبي (ﷺ) :

وآلك الغرر اللائي بها عرفت   سبل الرشاد فكانت مهتدى الفرق

ويقول :

يا عترة المختار يا من بهم   أرجو نجاتي من عذاب أليم
حديث حبي لكمُ سائرٌ   وسرُّ ودّي في هواكم مقيم

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١ ص ٢٥٧

قد فزت كل الفوز إذ لم يزل   صراط ديني بكمُ مستقيم
فمن أتى اللهَ بعرفانكم   فقد أتى الله بقلب سليم

وهل بعد هذا التصريح بتشيعه وميله إلى آل البيت من برهان ؟ فهو يرى أن دينه مستقيم بحبه لآل البيت ، وأنه سيلاقي ربّه بقلب سليم لأنه يعرف فضلهم

وقد رد على قصيدة ابن المعتز العباسي التي قالها في العلويين بحجج قوية لا تصدر إلا عن إيمان عميق واعتقاد راسخ وخاطب الصفي في هذه القصيدة العباسيين قائلاً

بكم باهل المصطفى أم بهم   فرد العداة بأوصابها

يشير الى المباهلة التي جرت بين الرسول (ﷺ) وبين بعض أحبار النصارى ، وقد خرج النبي ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين ، فرد كيد خصومه إلى نحورهم فولوا مدبرين .

فالصفي إذاً شيعي إمامي ، وقد ظهرت آثار تشيعه في شعره فكان يصرح بحبه للامام علي فيقول

توالَ علياً وأبناءه   تفزْ في المعاد وأهواله
إمام له عقد (يوم الغدير)   بنصّ النبيّ وأقواله
له في التشهد بعد الصلاة   مقام يخبّر عن حاله
فهل بعد ذكر آله السماء   وذكر النبي سوى آله ؟

فجلي أنه يصرح بأن ذكر علي وآل علي في الصلاة فرض واجب ، ويرى أن حب علي واجب على كل مسلم ومسلمة

والشيعة يقولون « لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار » والصفي يعتقد بهذا اعتقاداً جازماً وإلا لما قال :

وانثنى باكياً يقبل كفيّ   ويهوى طوراً على القدمين

قائلاً إن عفوت قيل كما قيـ ـل وما شاع عنك في الخافقين
إن في رتبة الفتوة أصلاً لك يُعزَى إلى (أبي الحسنين)

وكذلك نرى في شعره اقتباساً للأحاديث الشريفة التي تروى في فضائل الامام علي وعلمه قال مخاطباً الرسول :

مدينة علم وابن عمك بابها فمن غير ذاك الباب لم يؤتَ سورها

فنراه يشير بهذا البيت إلى الحديث الذي قاله الرسول « أنا مدينة العلم وعلي بابها . . »

ويرى الامامية أن النبي أوصى لعلي من بعده فهو وصيُّه وخليفته وهذه الوصية كانت في مواضع شتى ، منها التصريح ومنها التعريض ، وأما تصريحه ؛ فبايعته علياً في (غدير خم) بعد أن نزل عليه « يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت الرسالة » إذ قال « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق حيث دار » وقد قام عمر بن الخطاب فهنأه قائلاً « طوبى لك يا علي أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة[1] » يقول الصفي في هذا :

إمام له عقد (يوم الغدير) بنصّ النبيّ وأقواله

ويقول أيضاً

وأخيك في يوم الغدير وقد بدا نور الهدى وتآخت الاخوان

ويقول :

صاحب النصّ والأدلة والاجـ ـماع في المشرقين والمغربين

واختيار الرسول لعلي وصياً له كان بأمر الله ووحي من عنده

فوالله ما اختار الاله محمداً حبيباً وبين العالمين له مثل
كذلك ما اختار النبي لنفسه علياً وصياً وهو لابنته بعل

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٢٢

وصيّره دون الأنام أخـاً له   وصنواً وفيهم من له دونه الفضل
وشاهد عقل المرء حسن اختياره   فما بال من يختاره الله والرسل ؟

ووصفه بالصفات التي يرتفع بها عن منزلة الناس جميعاً ، ويأتي بمنزلة بعد منزلة الرسول ، فنزهـه عن كل خطأ ، ووصفه بكل وصف عظيم ، ناظماً كلام (ابن عباس) في الامام علي

جُمِعَتْ في صفاتك الأضداد   فلهـذا عزّت لك الأنداد
زاهـد حاكم ، عليم شجاع   ناسك فاتك ، فقـير جواد
شيمٌ ما جُمعن في بشر قـط   ولا حاز مثلهن العبـاد
خلق يخجل النسيم من اللطـف   وبأس يـذوب منـه الجمـاد

ويرى الشيعة أن الله قد عصم آل البيت من الخطأ ، إذ قال عز من قائل : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ولا يرون معنى لهذا التطهير غير العصمة عن الخطأ ، ويقولون إنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين فحسب ، أي ليس في غير بيت علي وقد قال الصفي في هذا المعنى :

إنما الله عنكم أذهب الرجـ   س فرُدت بغيظها الأضداد

ورأى الصفي مرة رجلاً سيء الخلق يدعي أنه علوي ، فغضب لذلك أشد الغضب وقال ساخراً منه :

قـال النبي مقـال صدق لم يزل   يجري على الأسماع والأفواه
من غاب عنكم أصـله ففعـاله   تنبيكم عن أصله المتنـاهي
وسفرت عن أفعال سوء أصبحت   بين الأنام قليلـة الأشباه
وتقول إنك من سلالة حيـدر   أفأنت أصدق أم رسول الله ؟

فتراه يدافع عن كرامة أهل البيت وحسن خلقهم وكرم أصلهم ويثبت عصمتهم

ومن عقائد الصفي الشيعية ، شفاعة آل البيت لمحبيهم عند الله واستجابته سبحانه لهذه الشفاعة :

يا عترة المختار يا من بهم　　يفوز عبد بـنـوالاكم
أعرَف في الحشر بحبي لـكم　　إذ يُعرَف النـاس بسيماهم

لهذا كان مدحه للرسول وآل بيته من باب الدعاء وطلب الشفاعة في يوم الحشر يقول :

أشكو اليك ذنوب نفس همها　　طبع عليه رُكّـبَ الانسانُ
فاشفع لعبـد شانه عصيـانُه　　إن العبيد يشينها العصيان
فلك الشفاعـة في محبكم إذا　　نُصِـب الصراطُ وعُلّـقَ الميزان
فلقـد تعرض للاجازة طامعـاً　　في أن يكون جزاءه الغفرانُ

ويقول :

وبين يدي نجواي قدمت مدحة　　قضى خاطري ألا يخيب خطيرها
أجرْني أجزْني واجزني أجر مدحتي　　بـبُرد إذا ما النار شبّ سعيرها

والصفي حين يريد أن يعلي قدر انسان ويجله يصفه بأنه علوي ، فحين رثى السيد النقيب (غياث الدين عبدالكريم) قال

وتخطو إلى عبدالـكريم خطوبه　　ويطلب منا اليوم غفران ذنبـه
سليل النبي المصطفى وابن عمـه　　ونجـل الوصي الهـاشمي لصلبه

وقال في رثاء السيد (النقيب مجد الدين أبي الفوارس) :

صروف الليالي لا يدوم لها عهد　　وأيدي المنايا لا يطاق لهـا ردُّ
سليل صفي المصطفى وابن سبطه　　لقد طاب منه الأم والأب والجَـدّ

* * *

ويجب أن نلاحظ أن الصفي كان معتدلاً في تشيعه منصفاً في اعتقاده ، فهو ليس مغالياً ولا متعصباً تعصباً أعمى ، شأنه في ذلك شأن عقلاء الشيعة الذين يسيرون على مبادئ المذهب الحقة دون أن يدخلوا فيها التعصب

والخرافات ، ودون أن يرموا غيرهم من المذاهب الاسلامية الاخرى بالكفر والخروج عن الدين ، فكان الصفي يحب الصحابة جميعاً ويقدرهم حق قدرهم إذ يقول فيهم

ولائي لآل المصطفى عقد مذهبي وقلبي من حب الصحابة مفعم
وما أنا ممن يستجيز بحبهم مسبة أقوام عليهم تقدموا

فهو موال لآل البيت ، يحب الصحابة ، ولكنه لا يستجيز بحبهم مسبة أحد ، فيذهب بهذا مذهب الشيعة الحق ، الذي لا يرضى بلعنة أحد من المسلمين فقد روي عن الامام جعفر الصادق (رض) الفقيه الأول للشيعة الامامية أنه نهى عن سب الخلفاء وغيرهم من الصحابة فقال الشاعر الشيعي في هذا المعنى :

فلا تسبّوا (عُمراً) كلاّ ولا (عثمان) والذي تولّى أولا [1]

وكان الصفي يقول في الصحابة أيضاً :

قيل لي تعشق الصحابة طراً أم تفردت منهم بفريق ؟
فوصفت الجميع وصفاً إذا ضوّ ع أزرى بكل مسك سحيق
قيل : هذي الصفات والكل كالدر ياق يشفي من كل داء وثيق
فالى من؟ قيل ، فقلت : إلى الأر بع لاسيما إلى الفاروق

ورأينا الصفي لا يظهر أثر فقه الشيعة في شعره ، بينما ظهرت آثار دراسته الفقه الاسلامي ، فقد ذكر القياس وغيره من اصطلاحات الفقهاء وتعبيراتهم المختلفة وربما كان للسنوات الطوال التي قضاها في ماردين مع أناس ليسوا من الشيعة ، أثر في ذلك فجعله يرى أن جميع المذاهب سواء وأن الاعتقاد في القلب ، وأن الدين لله وحده

وربما كان أثر ذلك أدق وأعمق فرأينا الصفي يعزف عن أهم ما يمتاز به

(١) أي الخليفة أبو بكر الصديق .

شعراء الشيعة وهو رثاء (الحسين بن علي) وأصحابه الأبطال شهداء الطف ، والتفجع عليهم ، والتغني ببطولاتهم الفذة ومواقفهم المجيدة وتصوير مأساتهم الفاجعة أعظم مآسي التاريخ الاسلامي في شعرهم ، فلم نجد لهذا في شعره أيّ أثر ، بالرغم من أنه كان يقول الشعر في شهر (محرم) بل وقد رثى من توفي في يوم عاشوراء ، كرثائه للسيد الشريف عماد الدين ناصر بن محمد الدلقندي وقد توفي يوم عاشوراء من عام (٧٤٦ هـ) فقال

اليوم زعزع ركن الدين وانهدما   فحق للخلق أن تذري الدموع دما

. . . الى أن يقول

يا ابن الأئمة والقوم الذين سموا   على الأنام فكانوا للهدى علما
مثواك في يوم عاشورا يخبرنا   بقرب أصلك من آبائك الكرما
وخالقك السبط يا ابن السبط حنّ له   فيوم مصرعه من بيننا اخترما

فهو يتألم للحفيد ، ولا يرثي الجد الشهيد !!

الباب الثاني

شعره

صغت القريض ولم أقله تكلفاً   لكنه طبع لدي غريز
أبكار أفكاري تزف كواعباً   لا كالعقار تزف وهي عجوز

الفصل الأول

آثاره الشعرية

أهدي قلائد أشعار فرائدها　　در نهضت به من أبحر عمق
نظمتها فيك ديواناً أزف به　　مدائحاً في سوى علياك لم ترق
لم أقتنع بالقوافي في أواخرها　　حتى لزمت أواليها فلم تعق

١ – الديوان :

جمع الصفي ديوانه بنفسه في القاهرة ، في بلاط الملك (الناصر محمد بن قلاوون) وقد رتبه حسب موضوعاته فجعله في اثني عشر باباً

الباب الأول　　في فصلين ـ الأول في الفخر والحماسة ، والثاني في التحريض على الرياسة .

والباب الثاني　　في فصلين ـ الأول في المديح ، والثاني في الشكر والتهاني .

والباب الثالث　　في فصلين ـ الأول في الطرديات ، والثاني في الوصف .

والباب الرابع　　في فصلين ـ الأول في الاخوانيات ، والثاني في صدور المراسلات .

والباب الخامس : في فصلين ـ الأول في المراثي ، والثاني في التعازي .

والباب السادس : في فصلين ـ الأول في الغزل والنسيب ، والثاني في طرائف التشبيب .

والباب السابع　　في ثلاثة فصول ـ الأول في الخمريات ، والثاني في الدعوة إلى الشرب ، والثالث في الزهريات .

والباب الثامن : في ثلاثة فصول ـ الأول في الشكوى والعتاب ، والثاني في تقاضي الوعود ، والثالث في تقاضي أجوبة الكتب .

والباب التاسع في ثلاثة فصول ـ الأول في الهدايا ، والثاني في أحوال شتى ، والثالث في الاستعطاف والاستغفار .

والباب العاشر في ثلاثة فصول ـ الأول في العويص ، والثاني في الألغاز ، والثالث في تقييد ضوابط العلوم والفنون .

والباب الحادي عشر في ثلاثة فصول ـ الأول في الملح المستطرفة ، والثاني في الأهاجي ، والثالث في الاحماض والمجون

والباب الثاني عشر في ثلاثة فصول ـ الأول في الأدب والحكم ، والثاني في الزهديات ، والثالث في نوادر مختلفات .

وقدّم صفي الدين هذا الديوان بمقدمة أولها : « الحمد لله الذي علم الانسان البيان ومنّ عليه ، والصلاة على نبيّه محمد الذي مدح الشعر ودعا لناظمه وإليه ، وعلى آله أهل البيت خزنة علمه الأمناء على ما لديه ، وعلى خير صحبه القافية أثره المجاهدين بين يديه . الخ »

وقد بين الصفي في هذه المقدمة شيئاً من الحوادث التي مرت به في حياته ، وافتتانه بالشعر منذ صباه واعجابه ببعض الأغراض وتركه البعض الآخر وجمعه الديوان وتدوينه . . . إلى آخر ما هنالك .

وطبع هذا الديوان مرتين ، الأولى في دمشق سنة (١٢٩٠هـ ـ ١٨٣٣م) والثانية في بيروت سنة (١٨٩٣ م) .

وعدد صفحات الطبعة الأولى (٥٧٢) صفحة في كل صفحة (٢٣) بيتاً أما الطبعة الثانية فعدد صفحاتها (٥٢٨) صفحة في كل صفحة (٢٤) بيتاً وقد ضمت طبعة دمشق كل أبواب الشعر حتى الاحماض والمجون ، لكن ناشرها أبى إلا أن يؤخر فصل الاحماض والمجون إلى آخر الديوان وقد أشار إلى ذلك في موضعه . بينما حذف هذا الفصل في طبعة بيروت . وأضيف إلى

الديوان في الطبعتين « ديوان درر النحور في مدائح الملك المنصور » - القصائد الأرتقيات - والكافية البديعية ، وبعض رسائل الصفي إلى السلاطين وبعض إخوانه وأصدقائه(١)

وكل من هاتين الطبعتين رديئة ، فالديوان مليء بالأخطاء والتحريف والتصحيف والزيادة والنقص ، مما يجعل الأوزان مكسورة والمعاني غير صحيحة وهناك كثير من الأبيات انقلب معناها إلى عكسه .

والصفي نفسه يصرح بأن هذا الديوان لا يضم شعره كله إذ يقول في مقدمته : « واستحضرت ما حضرني حسب الاستطاعة ، واخترت منه ما يجب ويبتغي » فمعنى هذا أنه قد نسي بعض هذا الشعر ، وأنه ترك البعض الآخر منه متعمداً ولكن لا ريب في أن هذا الشعر المتروك لا أهمية له ، ولا ريب أنه ليس كثيراً بحيث يؤثر فقده في الأحكام التي تستنبط من دراسة الديوان . ولا شك أن الصفي قد نظم الكثير من الشعر بعد أن جمع ديوانه سنة (٧٢٦هـ) تقريباً ، وقد ضمت هذه القصائد أو بعضها - إن لم تكن كلها - إلى الديوان . فاننا نجد فيه قصائد قالها بعد هذا التاريخ ، فهناك قصيدة في مدح الملك الصالح أرسلها إليه من دمشق سنة (٧٢٧ هـ) مطلعها :

إذا لم تمنّي في علاك المدائح فمن أين لي عذر عن البعد واضح

---

(١) وقد طبع مرة أخرى في النجف الأشرف سنة ١٩٥٦ م (سنة ١٣٧٥ هـ) في المطبعة العلمية . وعدد صفحات هذه الطبعة (٥٥٢) صفحة ، وهذه الطبعة - كسابقاتها - ملأى بالأغلاط المختلفة . وبالرغم من أن الناشر قد كتب في أول صفحة من الديوان وفي مكان بارز « قوبلت على عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة » الا أنه يخيل الي أن هذه الطبعة اعتمدت على طبعة دمشق ليس الا ، فقد شابهتها مشابهة تامة في كل شيء ، في التنسيق والترتيب ووضع (البديعية) و (القصائد الأرتقية) وتأخير فصل (الأحماض والمجون) . . وحتى الملاحظات الثلاث التي في طبعة دمشق حول الغرض من تأخير فصل المجون كتبت بالحرف الواحد وبأمانة تامة في هذه الطبعة ، مما يدل دلالة أكيدة أن المعول عليه الأول والأخير هو طبعة دمشق لا غير .

وقصيدة أخرى في مدحه أيضاً سنة (٧٣٠ هـ) بدأها بقوله

أيا ملك العصر الذي شاع فضله ... ويا ابن ملوك العرب والعجم والترك

ومدحه أيضاً بقصيدة أخرى سنة (٧٣٩ هـ) مطلعها

زُوّجَ الماء بابنة العنقود ... فاْجلت في قلائدٍ وعقود

وهناك موشحة يهنئه فيها بالعيد سنة (٧٤١ هـ) :

لما شدت الورق على الأغصان ... بين الورق

ورثى الملك الناصر عند وفاته سنة (٧٤٢ هـ) بقصيدته التي مطلعها :

وفى ليَ فيك الدمع إذ خانني الصبر ... وأنجد فيك النظم إذ خانني النثر

وله في رثاء الأمير (عماد الدين ناصر بن محمد الدلقندي) الذي توفي سنة (٧٤٦ هـ) قصيدة يبدأها بقوله :

اليوم زعزع ركن الدين وانهدما ... فحق للخلق أن تذري الدموع دما

وهذا الديوان غزير الشعر متشعب المواضيع يستحق العناية والاهتمام والدرس والتحقيق .

* * *

وفي دار الكتب المصرية أربع نسخ خطية من ديوان الصفي :

النسخة الأولى : تحت رقم (٥٣٥) أدب . وتضم (٢٤٤) ورقة أي (٤٨٨) صفحة في كل صفحة ٢١ بيتاً طول الورقة ٢٢ سم ، وعرضها ١٦ سم . طول الجزء المكتوب من كل صفحة ١٨٫٥ سم وعرضه ١١ سم . وأوراق هذا المخطوط بيضاء سميكة في حالة جيدة قد كتبت عناوينه بالحبر الأحمر وهو مكتوب بقلم معتاد بخط (عبداللطيف محمد) ، قد فرغ من كتابته في ١٤ ذي الحجة سنة (١٢٨٤ هـ) وليس فيها تعليقات على الهوامش إلا نادراً وقد أضيفت إليها القصيدة البديعية .

وأما النسخة الثانية فرقمها (١٢٦٩) أدب وتشتمل على (٣٣٦) ورقة أي (٦٧٢) صفحة ، في كل صفحة ١٥ بيتاً طول الصفحة ٢٠٫٥ سم ،

وعرضها ١٣ سم طول الجزء المكتوب ١٦ سم وعرضه ٩ سم وورق هذا المخطوط أصفر صقيل حالته جيدة ، ولم يضف إليه الكاتب الكافية البديعية ، وعليه شرح ألفاظ القصيدة الساسانية مكتوب بخط قديم معتاد الصفحة الأولى منه مزخرفة كتبت العناوين بالحبر الأحمر وفي الهوامش تعليقات وتصحيحات وشروح .

وأما النسخة الثالثة فرقمها (١٣٩٩) أدب وعدد أوراقها (٢٨٣) ورقـة أي (٣٦٦) صفحة ، في كل صفحة ٢١ بيتاً ، طول الورقة ١٩ سم ، وعرضها ١١ سم طول الجزء المكتوب من كل صفحة ١٥ سم وعرضه ٧ر٥ سم ورق هذه النسخة أصفر قاتم سميك قديم ، فيه الكثير من التلف والترقيع . لكن الناقص من الكتابة قليل جداً وليس فيها تعليقات على الهوامش إلا نادراً جداً ولم يضف الكاتب إليها القصيدة البديعية وقد شرح ألفاظ القصيدة الساسانية كتبت عناوينها بالمداد الأحمر ولم يذكر تاريخ كتابة هذا المخطوط أو الفراغ من ذلك ، ولعله من المخطوطات القديمة .

أما النسخة الرابعة : فتحت رقم (٥٠٩٥) أدب وتضم (١٩٨) ورقـة أي (٣٩٦) صفحة ، في كل صفحة ١٣ بيتاً طول الصفحة ٥ر٢٤ سم وعرضها ١٨ سم طول الجزء المكتوب منها ٥ر١٧ سم وعرضه ١٢ سم . ورقها أصفر سميك في حالة جيدة كتبت بخط نسخ بقلم معتاد قديم مشكول بالحركات وعناوينها مكتوبة كلها بالمداد الأزرق . في الصفحة الثانية بياض وبها ترقيع قليل . تناقل هذه النسخة كثير من الناس كتبوا أسماءهم عليها فيها نقص كثير في المقطوعات والقصائد كالمقطوعات التي يمدح الصفي فيها الرسول وآل البيت والصحابة ، ومقطوعات الهجاء ، وغير ذلك ، والفصل الأول من الباب العاشر غير موجود منه سوى أبيات قليلة جداً وبالرغم من هذا فان أحد مالكي هذه النسخة كتب عليها : « هذه النسخة قديمة جداً جداً »

وكل هذه النسخ تبدأ بالمقدمة وتنتهي بالفصل الثالث من الباب الثاني عشر.

ولا يوجد في واحدة من هذه النسخ الأربع شيء من رسائل الصفي أو القصائد الأرتقيات وفيها جميعاً كثير من الخطأ والتصحيف والتحريف وهناك اختلافات كثيرة بين هذه النسخ وعلى سبيل المثال أخذت رائيته في مدح الرسول وقارنتها بين هذه النسخ لتبيان تلك الخلافات

فعدد أبيات هذه القصيدة في النسخ : الأولى والثانيـــة والرابعة ٩٠ بيتاً أما في النسخة الثالثة فهو ٩١ بيتاً لأن فيها بيتاً ليس موجوداً في النسخ الأخرى حتى المطبوعة منها وهو

إلى ملك ظـــلُّ الغمامة حبره إذا ظللت صيد الملوك حبورها

وقد ورد بعد البيت

إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة إلى خير معبود ، دعاها بشيرها

وقد سقطت من ناسخ النسخة الثالثة هذه الأبيات :

نظرنا فأعدتنا السقام عيونها ولذنا فأولتنا النحول خصورها

وزرنا فأسد الحي تذكي لحاظها ويسمع في غاب الرماح زئيرها

فيا ساعـــد الله المحبَّ لأنه يرى غمرات الموت ثم يزورها

وقد كتبتها على الهامش . وسقط من ناسخ النسخة الرابعة بيتان كتبتها في الهامش أيضاً وهما :

حروف كنونات الصحائف أصبحت تخط على طرس الفيافي سطورها

إذا نظمت نظم القلائد في البرى تقـــلدها خضر الربى ونحورها

ونجد في النسخ الثلاث : الثانية والثالثة والرابعة هذا البيت :

تغار من (الطيف) المُلِمِّ حماتها ويغضب من مر النسيم غيورها

أما في النسخة الأولى فهو :

تغار من (الطرف) الملم حماتها ويغضب من مر النسيم غيورها

وهذا البيت في الأولى والثالثة :

نظرنا (فأعدتنا) السقام عيونها ولذنا فأولتنا النحول خصورها

نجده في الثانية :

نظرنا (فأعتدنا) السقام عيونها　　ولدنا فأولتنا النحول خصورها

وفي النسخة الرابعة :

نظرنا (فأعدتها) السقام عيونها　　ولدنا فأولتنا النحول خصورها

وهذا البيت في النسخة الأولى :

(وهمّت) بنا لولا غدائر شعرها　　خطى الصبح لكن قيدته (ضفورها)

وفي الثانية والثالثة :

(وهمّت) بنا لولا غدائر شعرها　　خطى الصبح لكن قيدته (ظفورها)

وفي الرابعة :

(وسمت) بنا لولا غدائر شعرها　　خطى الصبح لكن قيدته (سفورها)

وهذا البيت في النسخة الأولى :

ترضُ (الحصى) شوقاً لمن سبّح (الحصى)　　لديه (وحي) بالسلام بعيرها

وفي الثانية والرابعة :

ترضُ الحصى شوقاً لمن سبّح (الحصى)　　لديه و (حيا) بالسلام بعيرها

وفي الثالثة :

ترضُ (الحصا) شوقاً لمن سبّح (الحصا)　　لديه و (حي) بالسلام بعيرها

إلى آخر ذلك من الخلافات والتصحيف والأخطاء الشنيعة في كل النسخ مما يدل على أننا في حاجة إلى طبعة جديدة من الديوان ، طبعة علمية تقابل فيها النسخ المختلفة .

وفي مكتبة المتحف العراقي في بغداد ، نسخة مخطوطة رقمها (٢٢٤٧) وتضم (٢٦١) ورقة أي (٥٢٢) صفحة في كل صفحة (٢١) بيتاً طول الورقة ٢١ سم وعرضها ١٥ سم وأوراق هذا المخطوط بيضاء سميكة ، بعضها ممزق وفيه ترقيع ، مكتوبة بخط نسخي بالمداد الأسود ، وقد كتبت العناوين بالمداد الأحمر ، ليس فيها من التعليقات والشروح إلا النادر ، ولكن

القصيدة الساسانية مشروحة تبدأ بالمقدمة ، وقد سقطت عدة ورقات من آخرها . كتبت في أوائل القرن الثاني عشر الهجري ، لكننا لا نعرف اسم الناسخ وقد جمع الناسخ القصيدة البديعية مع مدائح الرسول إذ بدأ هذا الفصل بها ، كما أنه أضاف القصائد الأرتقيات ـ درر النحور في مدائح الملك المنصور ـ إلى فصل مدح السلاطين وهناك الكثير من الغلط والتحريف ، وقد أخذت قصيدته النونية في الحماسه على سبيل المثال فوجدته بدأها هكذا

(سل) الرماح العوالي عن معالينا (واستشهد) البيض هل خاب الرجا فينا؟
(وسائل) العرب والأتراك ما فعلت في أرض قبر عبيـــد الله أيدينا
لما سعينا (فـا ركت) عزائمنـــا عما نروم ولا خابت مساعينـــا

وهو

لما سعينا فما (رقت) عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينـــا

وأما البيت

قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة يوماً وإن حكموا كانوا موازينا

فقد جمله هكذا

قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة وإن همُ حكموا كانوا موازينا

وفي العراق كثير جداً من مخطوطات هذا الديوان تغصُّ بها المكتبات الخاصة والعامة في النجف وكربلاء والحلة والموصل(١) وغيرها من المدن . . . وهناك نسخ أخرى كثيرة منتشرة في مكتبات أوربا ، يذكر (بروكلمان) أن نسخة موجودة في باريس (٣٢٠٥) وفي برلين (٢٨٥١و٧٨٥٨) وفي مكتبة المتحف البريطاني (١٠٨٥) كما أن في ايران عدداً غير قليل منه

(١) هناك نسخة في مكتبة مدرسة الحاج حسين في جامع السلطان اويس في الموصل ، رقم (١) ونسختان في مدرسة عبدالرحمن جلبي الصائغ في مسجد الامام ابراهيم (١٥) و(٣١).

٣ - درر النحور في مدائح الملك المنصور :

حين حطّ الصفي الرحال في (ماردين) ، وقوبل بالاجلال والاكرام ، حركت هذه المعاملة الطيبة عاطفته ، فنظم للملك المنصور ديوان شعر عظيم سماه (درر النحور في مدائح الملك المنصور) التزم فيه أن يكون أول البيت مثل قافيته فحرف الروي هو نفس الحرف الذي يبدأ به البيت ، فحين يبدأ بالألف يقول :

أبت الوصال مخافـة الرقباء　　وأتتك تحت مـدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودّة　　وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحييت بزورتها النفوس وطالما　　ضنت بها فقضت على الأحياء

وفي الباء يقول

بدت لنا الراح في تاج من الحبب　　فمزقت حـلة الظلماء باللهب
بكر إذا زُوجت بالماء أولدها　　أطفال درّ على مهد من الذهب
بقية من بقايا قوم نوح إذا　　لاحت جلت ظلمة الأحزان والكرب

ويقول في التاء :

تاب الزمان من الذنوب فوات　　وأغنم لذيذ العيش قبل فوات
تم السرور بنا فقم يا صاحبي　　نستدرك الماضي بنهب الآتي
تاقت إلى شرب المـدام نفوسنا　　لا تذهـبن بطالة الأوقات

وهكذا إلى نهاية الحروف الهجائية وهي تسع وعشرون قصيدة ، كل قصيدة تسعة وعشرون بيتاً ، فيكون عدد أبياتها (واحداً وأربعين وثمانمائة بيت) وقد أتم الصفي نظمها في ثلاثة أشهر كما قال ذلك في مقدمة هذه القصائد وقد سماها أيضاً (القصائد الأرتقية) ونحدث عنها في قصيدة حين أهداها للملك المنصور فقال

أهدي قصائد أشعارٍ فرائدُها   درٌّ نهضتُ به من أبحر عمق
يضمُّها ورق لولا محاسنه   ما لقبوا الفضة البيضاء بالورِق
نظمتها فيك ديواناً أزفُّ بـه   مدائحـاً في سوى علياك لم ترق
ولو قصدت به تجديـد وصفـكم   لـكان ذلك منسوباً إلى الحق
تسع وعشرون قد عدت قصائدها   ومثلها عـدد الأبيات في النسق
لم أقتنـع بالقوافي في أواخرها   حتى لزمت أواليهـا فـلم تعق
ما أدركت فصحاء العرب غايتها   قبلي ولا أخـذوا في مثلها سبقي

وتبدأ عشرون قصيدة منها بالغزل ، وتسع قصائد بذكر الخمر ، ويتخلص بعد ذلك إلى مدح الملك المنصور وبالرغم من التزام القافيتين فان شعره مستساغ جزل ، ومعانيه جيـلة ، وأسلوبه سليم والصفي هنا يقول إنه مبتـكر هذا الفن الشعري

ما أدركت فصحاء العرب غايتها   قبلي ولا أخذوا في مثلها سبقي

وليس هذا البيت وحده الذي يشير فيه الصفي إلى سابقته في هذا الفن ، وإنما قال في مقدمة هذه القصائد « ... إلى أن أقدم بين يدي نجواي هدية ما أحاط بها سواي ولا يحيط، وألفية لا أحتاج مع التزامي بهذا إلى وسيط... » هذا في حين أننا وجدنا شاعرين متقدمين عن الصفي قد نظما مثل هذا الديوان أو مثل هذه القصائد ، الأول منهما هو العلامة الفقيه (أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد أبي سعيد يخلفتن بن أحمد الفازازي اليجفشي الأندلسي) المتوفى سنة (٦٣٧ هـ) أي قبل ولادة صفي الدين بأربعين عاماً فقـد نظم (القصائد العشريات) في النصائح الدينية والحـكم الزهدية ، وهي ثمانية وعشرون قصيدة مرتبة على حروف الهجاء والتزم في كل قصيدة أن تبـدأ أبياتها بحرف الروي وقد طبعت في مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة سنة (١٣٤٤ هـ) وله أيضاً (الوسائل المتقبلة) في مدح النبي (ص) وهي تسع وعشرون قصيدة على

حروف الهجاء أيضاً توجد منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٧١٨ أدب .

وأما الثاني فهو (مجد الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي الواعظ الشافعي المشهور بالوتري) ، المتوفى في بغداد سنة (٦٦٢ هـ) أي قبل مولد الصفي بأكثر من خمسة عشر عاماً وقد نظم الوتريات في مدح الرسول وسماها (معدن الافاضات في مدح أشرف الكائنات) وهي تسع وعشرون قصيدة مرتبة على حروف الهجاء تبدأ القصيدة بنفس حرف الروي فيها ، وعدد أبيات كل قصيدة واحد وعشرون بيتاً . وقد طبعت في بيروت سنة (١٩١٠ م) ومطلع القصيدة الأولى :

أصلي صلاة تملأ الأرض والسما على من له أعلا العلا متبوأ

ولا أدري كيف أوفق بين هذا وبين رأي الصفي نفسه الذي يعتقد أنه لم يسبقه أحد إلى هذا الفن ولا أستطيع إلا أن نقول بأن الصفي لم يطلع على هذه القصائد حين نظم قصائده الأرتقيات أو أنه اعتبر نفسه أكثر تجويداً أو أنه اعتبر نفسه أول من عمل ذلك في مدح أحد الملوك ولا يمكن أن يدعي شاعر مثل الصفي ، وله مثل مكانته ومنزلته ، ما ليس له . لأنه رجل يحب الصدق ويكره الكذب ، ويحب الاستقامة والصراحة ويكره اللف والتدليس .

وقد سمى المتأخرون هذا الفن من الشعر (الروضة) وقد وازن قصائد الصفي هذه كثير من المتأخرين وعارضوها ونظموا على غرارها في موضوعات مختلفة منهم (محمد الغلامي) ، وهو من مشاهير شعراء الموصل في القرن الثاني عشر ، وقد نظم روضة مدح بها (أحمد باشا الجليلي) في الموصل . و (الشيخ ابراهيم بن يحيى العاملي الطيبي) المتوفى سنة (١٢١٤ هـ) ونظم روضة يمدح بها (الشيخ علي بن فارس الصعبي) أحد أمراء جبل عامل والشيخ (صالح بن درويش بن الشيخ زيني التميمي البغدادي) . ونظم روضة

للشيخ (عبد علي الحويزي) سنة (١٢٣٥ هـ) والحاج (جواد بزقت) ، وهو من مشاهير شعراء كربلاء في القرن الثالث عشر ونظم روضة مدح بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . والشيخ (حسن مصبح) ، وهو من أدباء القرن الثالث عشر ، ونظم ثلاث روضات ، الأولى في الغزل والثانية في مدح الامام علي (رض) والثالثة في رثاء الحسين بن علي (رض) .

ويبدأ هذا الديوان ـ أو القصائد الأرتقيات ـ بمقدمة أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمـــد لله الذي أطلع نجوم المعاني المضيئة في آفاق خواطر الفصحاء . . . الخ »

وطبعت هذه القصائد عدة مرات ، فقد طبعت مع ديوان الصفي في طبعتي دمشق وبيروت ، وطبعت بمفردها مرتين ، الأولى باسم (القصائد الأرتقيات) في المطبعة الوهبية بباب الشعرية في مصر . آخر جمادى الآخرة سنة (١٢٨٣هـ). وهو كتيب عدد صفحاته ٣٦ صفحة في كل صفحة ٣٧ بيتاً ، يبدأ بالمقدمة وينتهي بآخر القصيدة اليائية وهي طبعة لا بأس بها من حيث قلة الخطأ والتصحيف ، وإن كانت ليست علمية دقيقة ، وغير مشروحة

وأما الثانية فطبعت ضمن مجموعة من القصائد المزدوجات ، في المطبعة الأزهرية للطوخي سنة (١٢٩٩ هـ) وتشغل هـــذه القصائد الأرتقيات ٣٩ صفحة من هذا الـكتاب ، فهي تبدأ من صفحة ٩٥ وتنتهي بآخر صفحة من الـكتاب وهي ١٣٤ وفي كل صفحة ٢٣ بيتاً وفي هذه الطبعة شيء من الدقة لأنها خالية من الخطأ تقريباً ، وحروفها مشكلة جميعاً .

وهناك مخطوطتان في دار الـكتب المصرية :

الأولى : تحت رقم (٣٩٤٨) أدب ، وعدد أوراقها ٣١ أي ٦٢ صفحة في كل صفحة ١٥ سطراً طول الصفحة ١٩٫٥ سم وعرضها ١٤ سم ، وطول الجزء المـكتوب منها ١٧ سم وعرضه ١٠ سم مكتوبة بخط نسخ معتاد مشكلة الحروف ، ليس فيها شروح أو تعليقات ، وهي هامة لأن الـكاتب

قال : فرغ من كتابتها في ١٢ جمادي الآخرة سنة (٧٤٦) أي في عصر الصفي بل في أعوامه الأخيرة لأنه توفي سنة (٧٥٠ هـ) ورقها أصفر سميك قديم ، أصابه التلف ورقعت حافاته لتآكلها

أما المخطوطة الثانية ، فرقمها (٣٧١) أدب ومعها جزء من ديوان (ابن نباتة) عدد أوراقها - وحدها - ٢٥ ورقة أي ٥٠ صفحة في كل صفحة ١٩ بيتاً ، طول الصفحة ٢١ سم ، وعرضها ١٦ سم ، طول الجزء المكتوب في كل صفحة ١٥ سم وعرضه ١٠ سم كتبت بخط نسخ بقلم قديم معتاد ، عناوينها مكتوبة بالمداد الأحمر ، فرغ من كتابتها ليلة الجمعة من شهر جمادي الآخرة سنة (١٢٦٧ هـ) ، ورقها أبيض سميك حالته جيدة وليس عليها شروح ولا تعليقات .

وفي هاتين النسختين الكثير من الأغلاط والتصحيف .

وهناك نسخ خطية أخرى ذكرها (بروكلمان) منها : نسخة في ليدن (٧٣٢) وأخرى في باريس (٣٩٥٣) وفي الاسكوريال (٤٩٨) .

٣ - البديعية :

كان الصفي مولعاً بالصناعة مفتناً بالبديع ، حتى برّز فيه ، وسيطرت الصناعة البديعية والمحسنات اللفظية على شعره وقد رأى أن الذين ألفوا في البديع لم يبلغوا الكمال ، ولم يتوصلوا إلى حصر كل أنواع البديع (فالسكاكي) لم يذكر من أنواع البديع سوى ٢٩ نوعاً ، وجمع مخترعها الأول (ابن المعتز) ١٧ نوعاً ، وعاصره (قدامة بن جعفر) فجمع منها ٢٠ نوعاً ، توارد معه على سبعة منها فتكامل لهما ٣٠ نوعاً ، ويعرف كتابه (بنقد قدامة) . ثم اقتدى بهما الناس في التأليف فكان غاية ما جمع منها (أبو هلال

العسكري) ٣٧ نوعاً في (كتاب الصناعتين) ، ثم جمع منها (ابن رشيق القيرواني) في (العمـدة) مثلها ، وأضاف اليها ٦٥ باباً في أحوال الشعر وأغراضه . وتلاهما (شرف الدين التيفاشي) فبلغ بها السبعين ثم تصدى لها الشيخ (ركن الدين عبدالعظيم بن أبي الأصبع) فأوصلها إلى التسعين ، وأضاف اليها من مستخرجاته (٣٠) سلم له منها عشرون وذكر أنه وقف على أربعين كتاباً في هذا العلم وقال الصفي طالعت مما لم يقف عليه (٣٠) كتاباً فأكملت السبعين[1] وأراد الصفيُّ أن يؤلف كتاباً في البديع يجمع كل هذه الأنواع ، إلا أنه أصابه سقم طال زمنه ، واشتدت شدته ، ولم يبرأ منه ، ورأى النبي (ص) في منامه ، ووعده بالشفاء إن هو مدحه ، فعدل عن تأليف هذا الـكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشتات البديع وتضمُّ أنواعه ، وتطرز بمدح الرسول فنظم هذه القصيدة وسماها « الـكافية البديعية في المدائح النبوية »[2] ومطلعها :

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم وأقرَ السلام على عرب بذي سلم

وهو يعارض بردة البوصيري في مدح الرسول التي مطلعها :

« أمن تذكـر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم »

والاعتقاد السائد عند معظم الدارسين أن الصفي هو مخترع هذا الفن ، وهو أول من نظم فيه ، ولـكن (السيد علي خان صدر الدين الحسيني) المتوفى سنة (١٠١٨) يقول في كتابه (أنوار الربيع) :

« كنت أظن أن أول من نظم أنواع البديع على هذا الأسلوب البديع... هو الشيخ صفي الدين الحلي رحمه الله تعالى حتى وقفت في ترجمة (الشيخ علي ابن عثمان بن علي بن سليمان أمين الدين السليماني الأربلي الصوفي) الشاعر على

---

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٤ طبعة استانبول .

(٢) ديوان صفي الدين ص ٤٩٦ طبعة دمشق .

قصيدة لامية له نظم فيها جملة من أنواع البديع وضمّن كل بيت منها نوعاً منه أولها الجناس التام والمطرف وهو :

بعض هـذا الدلال والادلال حال بالهجر والتجنب حالي

ثم قال بالجناس المصحف والمركب

جرتَ إذ خرتَ ربع قلبي وإذلاليَ صبرٌ أكثرت من إذلالي

فعلمت أن الشيخ صفي الدين لم يكن أبا عذر هذا المرام ولا أول من نظم جواهر هذا العقد في نظام لأن الشيخ أمين الدين المذكور توفي قبل أن يولد الشيخ صفي الدين بسبع سنين وذلك أن وفاة الشيخ أمين الدين سنة سبعين وستماية (٦٧٠ هـ) وولادة الشيخ صفي الدين سنة سبع وسبعين وستمائة (٦٧٧) ... »[1]

ويخيل إليّ أن الأمر يسير ، وأن البت في هذه المسألة ليس بالعسير ، فمع أن الصفي لا يمكن أن يدعي شيئاً ليس له ، ولا يجوز أن يزعم سبقه في فن سبقه إليه أحد من سابقيه أو معاصريه ، فانه من المحتمل ألا يكون قد اطلع على بديعية (الشيخ أمين الدين) ، وخاصة وهم في عصر لم تتوفر فيه وسائل النشر التي تيسرت لنا اليوم

وبالاضافة إلى هذا فان بديعية (أمين الدين) ليست في مدح الرسول وعلى هذا يكون صفي الدين أول من نظم البديعيات التي في مدح الرسول ، ويكون أمين الدين أول من نظم في فن البديعيات عموماً على أن الذين جاءوا بعد الصفي أغلبهم قلد الصفي وجاراه ونظم مثله في مـــدح النبي إلا النادر .

والغريب أن (الدكتور زكي مبارك) يرى أن الصفي ليس أول من ابتكر (فن البديعيات) وإنما هو (أبو عبدالله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسي) إذ يقول عنه : « لقد ابتكر فناً جديداً هو (البديعيات) ،

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع . مخطوط ص ٣ .

وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول ، ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع »[١] وقد نسي الدكتور أن الصفي متقدم كثيراً عن ابن جابر إذ أنه ولد سنة (٦٧٧ هـ) وتوفي سنة (٧٥٠ هـ) في حين أن ابن جابر ولد سنة (٦٩٨ هـ) وتوفي سنة (٧٨٠ هـ) هذا بالاضافة إلى أن (ابن حجة الحموي) نفسه اعترف بأسبقية صفي الدين في عدة مواضع من خزانته ومن ذلك قوله « ولكن نبدأ ببيت الشيخ صفي الدين رحمه الله لأجل الترتيب »[٢] ، فهو يبدأ به معترفاً بأسبقيته على ابن جابر الذي كان يذكر أبياته بعد الصفي ويسميه (العميان)

وعدد أبيات هذه البديعية ١٤٥ بيتاً من البحر البسيط ، وتشتمل على ١٥١ نوعاً من أنواع البديع ، وقد جعل كل بيت مثالاً شاهداً لنوع من هذه الأنواع أو نوعين أو ثلاثة حسب ما تسمح به قريحته . وقد بدأها بالغزل :

إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم ... واقرَ السلام على عرب بذي سلم
فقد ضمنت وجود الدمع عن عدم ... لهم ولم استطع مع ذاك منع دمي

وهكذا يستمر في هذا الغزل العفيف الشريف الذي يلائم غرضه وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى يبلغ به ٤١ بيتاً فيتهيأ للانتقال إلى المديح في ثلاثة أبيات هي :

إن لم أحثّ مطايا العزم مثقلة ... من القوافي تؤم المجد عن أمم
تجار لفظي إلى سوق القبول بها ... من لجة الفكر تهدي جوهر الكلم
من كل معربة الألفاظ معجمة ... يزينها مدح خير العرب والعجم

ويمدح النبي (ص) في ٣٩ بيتاً منها :

محمد المصطفى الهادي النبيُّ أجلُّ المرسلين ابن عبدالله ذي الكرم
خير النبيين والبرهان متضح ... في الحجر عقلاً ونقلاً واضح اللقم

---

(١) المدائح النبوية ص ١٦٩ .
(٢) الخزانة ص ٥٤٤

كم بين من أقسم الله العلي به وبين من جاء باسم الله في القسم

ثم ينتقل إلى مدح أصحاب الرسول في ١٢ بيتاً من مثل قوله :

من كل مبتدر الموت مقتحم في مأزق بغبار الحرب ملتحم

تهوى الرقاب مواضيهم فيحسبها حديدها كان أغلالاً من القدم

فيعود ثانية إلى مدح الرسول الكريم وذكر مناقبه ومعجزاته في ١٨ بيتاً كقوله

في ظل أبلج منصور اللواء له عدل يؤلف بين الذئب والغنم

أغرُّ لا يمنع الراجين ما سألوا ويمنع الجار من ضيم ومن حرم

ويمدح آله الغر الكرام في خمسة أبيات ، وأصحابه في عشرة أخر ، ثم يذكر أسباب نظمه هذه القصيدة في ١٢ بيتاً . ثم يختتم قصيدته بالفخر بها بقوله :

هذي عصايَ التي فيها مآرب لي وقد أهشُّ بها طوراً على غنمي

إن ألقها تتلقفْ كل ما صنعوا إذا أتيت بسحر من كلامهم

أطالتها رغم تقصيري فقام بها عذري ، وهيهات إن العذر لم يقم

فان سعدت فمدحي فيك موجبه وإن شقيت فذنبي موجب النقم

وهذه القصيدة قوية العبارة جميلة الأسلوب . لم يلتزم فيها التلميح بنوع البديع في كل بيت كما فعل ذلك من جاء بعده لكنه يأتي به حين يطاوعه كما فعل ذلك في بيت القسم :

لا لقّبتني المعاني بابن بجدتها يوم الفخار ولا برَّ التقى قسمي

وقد شرح الصفي هذه القصيدة لكننا لم نعثر على هذا الشرح ، فكل ما بين أيدينا من نسخها مطبوعتان ومخطوطتان ، فأما المطبوعتان فهما ضمن طبعتي ديوانه وأما المخطوطتان فهما في دار الكتب المصرية :

النسخة الأولى تحت رقم ١٢٨ بلاغة ، وهي ضمن كتاب (روضة الفصاحة في لهجة البلاغة في علم البديع) ، فيه كتاب البديع لابن المعتز وقصائد كثيرة وتشغل بديعية الصفي ٢٢ صفحة من هذا الكتاب كل صفحة

١٣ بيتاً طول الصفحة ١٩و٥ سم وعرضها ١٣ سم طول الجزء المكتوب ١٤ سم وعرضه ١٠ سم . مكتوبة بخط نسخ بقلم معتاد ، عناوينها مكتوبة بالمداد الأحمر ، ورقها أصفر قديم فيه ترقيع كثير وليس فيها تعليقات اسم ناسخها (عبدالوهاب بن أحمد بن موسى الجبري) فرغ من كتابتها في ٧ جمادي سنة (٩٦٩ هـ)

أما النسخة الثانية فرقمها ٥٦٧ بلاغة وهي خمس ورقات أي عشر صفحات في كل صفحة ١٧ بيتاً طول الصفحة ٢٤ سم وعرضها ١٦ سم ، طول الجزء المكتوب من كل صفحة ١٦و٥ سم وعرضه ١٠ سم ورقها أبيض سميك لكنه متآكل الحافة ، وعلى هوامشها الكثير من التعليقات وجداول الأرقام والطلاسم والحكم والفوائد ، والملاحظات وفي الصفحة الأولى كتابة كثيرة مختلفة الاتجاهات بخط دقيق جداً لا يكاد يقرأ ولم تكتب لها عناوين بأسماء أنواع البديع ، وإنما كتبت متسلسلة ولا يعرف كاتبها لأنه لم يكتب اسمه ولا تاريخ فراغه من كتابتها

وهاتان النسختان جيدتان من حيث أن الأبيات كاملة فيهما ، وأن الأخطاء تكاد تكون معدومة ، وأن الخلاف بينهما لا يكاد يوجد إلا في بعض النقط.

وتوجد نسخ أخرى كثيرة في أوروبا وغيرها فقد ذكر (بروكلمان) أن هناك نسختين في برلين (٧٣٤٩ و ٥٢) ونسختين في باريس ٣٢٩ و ٣٢٤٨) ونسختين في الاسكوريال (٢٤٠ ف٢ و٣٩٠ ف١) ونسختين في مكتبة المتحف البريطاني (٩٨٥و٩٨٦٩) ولسنا ندري أهناك نسخة بين هذه النسخ منقولة عن الأصل وفيها شرح صفي الدين نفسه لهذه القصيدة أم لا ؟ فقد ذكر أنه شرح بديعيته بنفسه

وقد قلد الصفي في هذا الفن كثيرٌ من الشعراء الذين جاءوا بعده ، زادوا على ثلاثين شاعراً ، بعضهم كان معاصراً له ، نظموا هذه القصائد في مدح الرسول (ص) وحتى أدباء النصارى قلدوه أيضاً فنظموا مثل هذه البديعية

يمدحون بها المسيح (ع) ورسله ، أشهرهم : (الخوري نيقولادس الصائغ) ، و (المطران جرمانوس فرحات) ، و (الخوري يوسف بن أرسانيوس الفاخوري)

وأما أصحاب البديعيات منذ عصر الصفي حتى العصور المتأخرة فهم :

١ ـ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن علي الهواري المالكي المتوفى سنة (٧٨٠ هـ) صاحب البديعية المشهورة بـ (بديعية العميان) التي يمدح بها النبي الأعظم وأولها :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم وانشرله المدح وانثرأطيب الكلم

٢ ـ الشيخ عزالدين علي بن الحسين بن علي بن أبي بكر محمد بن أبي الخير الموصلي المتوفى سنة (٧٨٩) ومطلع بديعيته :

براعـة تستهل الدمع في العلم عبارة عن نداء المفرد العلم

وقد شرحها بنفسه وسماها : (التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع) .

٣ ـ الشيخ وجيه الدين اليمني المتوفى سنة ٨٠٠

٤ ـ شرف الدين عيسى بن حجاج السعدي المصري الحنبلي المعروف بعويس العالية المتوفى سنة ٨٠٧ ، ومطلع بديعيته :

سل ما حوى القلب في سلمى من العبر فكلما خطرت أمسى على خطر

٥ ـ السيد جمال الدين عبدالهادى بن ابراهيم الحسيني الصنعاني اليماني الزيدي المتوفى سنة ٨٢٢

سرى طيف ليلى فابتهجت به وجدا

٦ ـ الأديب شعبان بن محمد القرشي المصري المتوفى سنة ٨٢٨

٧ ـ شرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المقري اليمني المتوفى سنة ٨٣٧

٨ ـ تقي الدين أبو بكر علي بن عبدالله بن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ ومطلع بديعيته :

لي في ابتدا مدحكم يا عرب ذي سلم   براعـــة تستهل الدمع في العلم

وقد شرح بديعيته مقارناً إياها ببديعية صفي الدين وبديعية العميان وبديعية الموصلي وسماها (خزانة الأدب) .

٩ ـ زين الدين أبو الفضل عبدالرحمن بن محمد بن سليمان الحوي الشافعي المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٨٤٠

١٠ ـ الشيخ محمد بن الشيخ خليـــل المقري الحلبي المتوفى سنة ٨٤٩ وأول بديعيته :

عجبي عراقي فمج بي نحو ذي سلم   واجنح لسكانها بالسلم والسَّلم

١١ ـ الشيخ ابراهيم الـكفعمي الحارثي . ومطلع بديعيته :

إن جئت سلمى فسل من في خيامهم

١٢ ـ جلال الدين أبو بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ، وقد استهلها بقوله :

من العقيق ومن تذكار ذي سلم   براعـــة لي في استهلالها بدم

وقد شرحها وسماها (نظم البديع في مدح خير الشفيع) .

١٣ ـ عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بن خليفة الدمشقية الشافعية الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ ومطلع بديعيتها :

في حسن مطلع أقار بذي سلم   أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

وقد شرحتها وأسمتها بـ (الفتح المبين في مدح الأمين)

١٤ ـ الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الحميدي المتوفى سنة ١٠٠٥ ومطلع بديعيته :

رد ربع أسما وأسمى ما يرام رم   وحيّ حياً حواها معدن الـكرم

وقد سماها (تمليح البديع بمدح الشفيع) .

١٥ ـ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد الحموي المـكي الحنفي نزيل مصر وقد توفي سنة ١٠١٧

١٦ - السيد علي خان المتوفى سنة ١٠١٨ ومطلع قصيدته :

حسن ابتدائي بذكرى جيرة الحرم ... له براعة شوق يستهل دمي

وشرحها فسماها (أنوار الربيع في أنواع البديع)

١٧ - الشيخ عبدالقادر محمد المكي الشافعي المتوفى سنة ١٠٣٢ ومطلعها :

حسن ابتداء مديحي حيّ ذي سلم ... أبدى براعة الاستهلال في العلم

وقد شرحها باسم (عليّ الحجة بتأخير أبي بكر بن حجة) .

١٨ - الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى سنة ١٠٤١ ومطلع بديعيته :

شارفت ذرعاً فذرعن مائها الشبم ... وجزت نملي فنم لا خوف في الحرم

١٩ - الشيخ محمد بن عبدالقادر حكيم زاده له بديعيتان مطلع الأولى :

حسن ابتدائي بذكر البان والعلم ... حلا لمطلع أقمار بذي سلم

ومطلع الثانية المسماة (اللمعة المحمدية في مدح خير البرية) :

إن رمت صنعاً فصن عن مدح غيرهم ... يا قلب سراً وجهراً جوهر الكلم

٢٠ - الشيخ أبو الوفاء الحلبي ، وأولها :

براعتي في ابتدا مدحي بذي سلم ... قد استهلت لدمع فاض كالعلم

٢١ - الشيخ عبدالغني بن اسماعيل بن عبدالغني الحنفي النابلسي الدمشقي المتوفى سنة ١١٤٣ وأولها :

يا منزل الركب بين البان والعلم ... من سفح كاظمة حييت من ديم

وشرحها ، واسمها (نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار) وله بديعية أخرى أولها :

يا حسن مطلع من أهوى بذي سلم ... براعة الشوق في استهلالها ألمي

٢٢ - الشيخ قاسم بن محمد البكرجي الحلبي الحنفي المتوفى سنة ١١٦٩ ، ومطلعها :

من حسن مطلع أهل البان والعلم براعـــتي مستهل دمعها بدمي

وشرحها فسماها (حلية البديع في مدح النبي الشفيع) .

٢٣ ـ السيد حسين بن مير رشيد الرضوي الهندي المتوفى سنة ١١٥٦ ، وقد استهلها بقوله :

حيّ الحيا عهد أحباب بذي سلم وملعب الحي بين البانـــ والعلم

٢٤ ـ الشيخ عبدالله بن يوسف بن عبد الله الحلبي المتوفى سنة ١١٩٤

٢٥ ـ الشيخ عبدالقادر الحسيني الأزهري الطرابلسي وإسمها (ترجمانـــ الضمير في مدح الهادي البشير) .

٢٦ ـ الشيخ محمد بن عبدالله الضرير الأزهري المتوفى سنة ١٣١٣ وإسمها (الغرر في أسانيد الأئمة الأربعة عشر) .

٢٧ ـ الشيخ محمد بن حمزة القستري الحلبي الشهير بابن المـــلا المتوفى سنة ١٣٢٢

٢٨ ـ المولى داود بن الحاج قاضي الخراساني المعروف بملا باشي المتوفى سنة ١٣٢٥

٢٩ ـ الشيخ طـاهر بن صالح بن أحمد الجزائري الدمشقي الموفى سنة ١٢٣٨ مطلعها :

بديع حسن بدور نحو ذي سلم قد راقني ذكره في مطلع الـكلم

٣٠ ـ الشيخ محمد صالح بن ميرزا فضل المازندراني الحـــائري ومطلع قصيدته :

من حسن مطلع سلمى مستهل دمي لله مـــ دم ذي سلم بذي سلم

٣١ ـ الشيخ عبدالله محمد بن أبي بكر ، وقد بدأ قصيدته بقوله :

يا عامل اليعملات الكوم في الأكم بالعيس بالعيس عرّج نحو ذي سلم

٣٢ ـ الواردي المقري وأولها :

إن زرت سلمى فسل ما حلَّ بالعلم   وحيِّ سلماً وسل عن حي ذي سلم

وهناك من الشعراء من نظم بديعية في غير مدح النبي ، كالشيخ أحمد بن صالح البحراني المتوفى سنة ١٣١٥ وقد نظم بديعية في مدح الامام علي ومطلعها :

بديع مدح (علي) مذ علا بفمي   براعة تستهل الفيض من كلمي

وإذا كان هؤلاء الشعراء قد نظموا قصائدهم في نفس بحر (بردة البوصيري) و (بديعية الصفي) فقد كان معظم قصائدهم في نفس قافية البردة والبديعية ، وهي (ميمية الروي) إلا أن قليلاً من هذه البديعيات كان في روي يخالف ذلك كبديعية (شرف الدين عيسى بن حجاج السعدي المصري) فهي رائية إذ يقول :

سل ما حوى القلب في سلمى من العبر   فكلما خطرت أمسى على خطر

وبديعية (السيد جمال الدين عبدالهادي بن ابراهيم الحسيني اليماني الزيدي :

سرى طيف ليلى فابتهجت به وجدا

وقد طبع كثير من هذه البديعيات في بلدان مختلفة كالقاهرة وبيروت وغيرها . وفي دار الكتب المصرية - بالقاهرة - كثير من النسخ المخطوطة لقسم من هذه البديعيات وهي مدونة في فهرس الدار - جزء اللغة العربية ، قسم البلاغة - .

وهذا العدد الضخم من ناظمي البديعيات - أو معظمه - حذا حذو الصفي وجاراه ، فابن حجة الحموي نفسه حين يتحدث عن سبب نظم بديعيته ، يذكر أن صاحب ديوان الانشاء (محمد الجهني) القاضوي الناصري قد طلب منه نظمها فيقول : « ورسم لي بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام وأجاري (الحليَّ) برقة السحر الحلال الذي ينفث في عُقد الأقلام . . . » وكان حين ينظم البيت يعرضه عليه فيقارنه ببيت الصفي فيقول له : « بيت الصفي أصفى مورداً وأنور اقتباساً » .

وعجز كثير من هؤلاء الشعراء عن الوصول إلى مرتبة الصفي التي شهد له بها

كثير منهم وهذا الحموي يقول « صفي الدين أجاد في الغالب ... »[١]
وكان كثيراً ما يمتدح الصفي حين يقارن بيته بأبيات غيره ، فعند تعليقه على
فن (تجاهل العارف) الذي يقول فيه الصفي

يا ليت شعري أسحراً كان حبكم أزال عقلي أم ضرب من اللمم ؟!

قال عن هذا البيت : « بلغ الغاية » كما قال هذا في عدة أبيات أخرى منها
بيته في فن (التوشيح) وهو

أميّ خط أبان الله معجزه بطاعة الماضين السيف والقلم

وأما بيت الصفي في فن (تشبيه شيئين بشيئين) فقد قال فيه الحموي :
« .. عامر بالمحاسن وهو منسجم » وهو

تلاعبوا تحت ظل السمر من مرح كما تلاعبت الأشبال في الأجم

وأخيراً نجد أن الحموي يقول عن بديعيته هو : « فجاءت بديعية هدمتُ بها
بديعية الموصلي .. وجاريتُ الصفي .. » فلا يجرؤ على القول بهدم بديعية الصفي
كما قال عن بديعية الموصلي وهذه شهادة قديمة وهي إلى ذلك ذات قيمة لأنها
من مختص .

---

(١) الخزانة ص ٢٧

الفصل الثاني

مراحل شعره

قطعت بها خوف الهوان سباسباً — اذا قلت: تمت، أردفت بسباسب
يسامرني في الفكر كل بديعة — منزهة الألفاظ عن قدح عائب
يترنها الشادون في نغماتهم — وتحدو بها طوراً حداة الركائب

١ – ابتداء صنعة الشعر

بدأ الصفي ، منذ صباه ، يغرم بالشعر لحفظ منه ما كان يعجب به من قصائد الشعراء المتقدمين ، أمثال المتنبي وأبي تمام وأبي نواس وغيرهم ثم بدأت شاعريته تنتج شعراً جميلاً وهو لم يتعد العقد الأول من عمره بعد وقد كان مولعاً بالشعر أيَّما ولوع ! يحب قراءته وحفظه ونظمه فكان يستفيد من هذه النماذج الشعرية التي يقرأها ويحفظها فيقتبس منها الصور ويضمّن المعاني ، ويخمّس القصائد

وهذا هو الدور الأول من أدوار شعره وهو الشعر الذي قاله في الحلة في عهد الصبا ، يوم كان يعيش عيشة ناعمة مترفة ، بين قوم أمجاد وآباء كرام وقد كان مقتصراً على أغراض معينة فلم يشأ أن يقول في كل أغراض الشعر ، فقال في الحماسة لأنه شاب مليء بالحيوية والنشاط ، وفارس تدرب على أعمال الفروسية ، وشجاع لا يهاب الموت والقتال ، وأهله وقومه شجعان أبطال لذا نراه يقول

وإني ليدمي قائم السيف راحتي ... إذا دميت منهم خدود الكواعب
وما كلُّ من هزّ الحسام بضارب ... ولا كلُّ من أجرى اليراع بكاتب
وما زلت فيهم مثل قدح (ابن مقبل) ... بقسمين أمسي فائزاً غير خائب
فإن كلموا منا الجسوم فانها ... فلول سيوف ما نبت في المضارب
وما عابني أن كلمتني سيوفهم ... إذا ما نبت عنّي سيوف المثالب
فلما أبت إلا نزالاً كأنهم ... درأت بمهري في صدور المقانب

كما قال في الرثاء لأنه مرهف الشعور يتأثر كثيراً حين يفقد شخصاً تربطه به وشائج متينة ، فلا يجد بداً من التعبير عن حزنه بشعر يرسله كالزفرات الحارة استمع إليه يرثي خاله (صفي الدين بن محاسن)

سفهاً إذا شُقّت عليك جيوب ... إن لم تُشقّ مرائر وقلوب
وتملقاً سكب الدموع على الثرى ... إن لم يمازجها الدم المسكوب

وكان الصفي يقضي بعض أوقاته في الصيد مع أقرانه وأصدقائه ، فلا عجب إن وصف هذه الرحلات وصفاً جميلاً كقوله :

فقم بنا مبتكراً يا صاحبي ... نقضي بأيام الصبا مآربي
ولا تكن تفكر في العواقب ... وخلّ خلاني ودعْ أقاربي
واقصد بنا الأحلاف والقرائبا

أما ترى الطير الجليل قد أتى ... مستبشراً يمرح في فصل الشتا
فقم بنا إن الصبا عون الفتى ... ولا تقل كيف وأنىْ ومتى
إن الأماني لم تزل كواذبا

وهذا الجمال الطبيعي المحيط به في مناظر الحلة الخلابة ، وفي كل مكان يخرج اليه للصيد وغير الصيد ، كان له أكبر الأثر في حبه للطبيعة والتغني بجمالها ومحاسنها :

ورد الربيع فمرحباً بوروده ... وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسيمه وأنيق ملبسه ووشي بروده
يا حبـــذا أزهاره وثمـاره ونبات ناجمه وحب حصيده
والغصن قد كسي الغلائل بعدما أخذت يدا كانون في تجريده

وهذا الشباب والغنى الذي يتمتع به الصفي ، وذلك الشعور المتدفق والحس المرهف الذي يمتاز به ، لا بد أن يدعوه إلى حب الجمال والتغزل به ، فـكان عنده شعر الغزل والنسيب :

ظنّ قومي أن الأُساة ستبري داء وجدي وذا العلاج يفيــد
فأتوا بالطبيــب وهو لعمري في ذوي فنـه مجيد مجيـــد
مذ رأى علّتي وقـد لاح للمو ت عليهـا أدلة وشهـــود
جسّ نبضي وقال ما أنت شا كٍ ؟ قلت : ناراً لم يطفها التبريد
فغـدا يخلص الدواء فألفى نار وجـدي مع الدواء تزيد
قال : ما كان أصل دائك هذا ؟ قلت طرفي وذاك حال شديد
قال إن الهواء أحدث بلوا ك ، فقلت المقصور لا الممدود
فانثنى حائراً وقال لأهـلي ما شفاء العشاق إلا بعيـد

فالأغراض التي قالها الصفي إذاً ، الحماسة والرثاء والصيد والوصف والغزل ، لأنه وجد أن في إمكانه أن يقول الشعر فيها فيأتي شعراً صادقاً ليس فيه أي أثر للتصنع أو الـكذب أو المجاملة الخداعة وقد رأى أن من العار عليه أن يطرق الأُغراض الأُخرى كالمدح والهجاء وغيره

وأعرضت عن مدح الأنام ترفعاً سوى معشري إذ كان مجديَ منهمُ

هكذا كان يقول .

* * *

ولم يكن شعر الصفي في هذه المرحلة يزيد على ربع ديوانه ، ومن يدري لعل الـكثير منه قد ضاع ؟! ولم يثبت في الديوان عند جمعه وتدوينه خصوصاً

وأنه قد جمع ديوانه مؤخراً ، وقد أخبرنا بأنه ضاع قدر غير يسير من شعره وأنه جمع ما وعاه فحسب وقد جمعه في القاهرة بعيداً عن وطنه ومستقره

وكان شعر الصفي في هذه المرحلة يمتاز بالسهولة والرقة ، وخلوّه من التكلف والتصنع والتعقيد ، فلم يبدأ شغف الصفي في هذا الدور بالاكثار من الصناعة البديعية أو نظم الألغاز والمعمى من الشعر ، ولم يكن مولعاً برصف الشعر الذي يقرأ طرداً وعكساً والذي يخلو من الحروف المعجمة أو المهملة ، وإنما كان شعره سهل الألفاظ ، سلس العبارة ، جميل السبك ، واضح الصور

سمت بي إلى العليـاء نفس أبيّـة … ترى أقبح الأشياء أخذ المواهب
بعزم يريني ما أمام مطـــالبي … وحزم يريني ما وراء العواقب
وما عابني جاري سوى أن حاجتي … أكلفها من دونه للأجانب
وأنـــ نوالي في الملمات واصل … أباعد أهل الحي قبل الأقارب

وفي آخر هذه المرحلة كاد شعره أن يكون حماسياً كله ، فقد قتل خاله فصار يحمس أقاربه ليهبوا للأخذ بثأره

ألم تشهدي أني أمثل للعـدى … فتسهر خوفاً أن تراني في الحلم
فـكم طمعوا في وحدتي فرميتهم … بأضيق من سم وأقتل من سم
فكم أججوا نار الحروب وأقبلوا … بجيش يصد السيل عن مربض العصم
فلم يسمعوا إلا صليل مهندي … وصوت زئيري بين قمقمة اللجم
جعلتهم نهبـاً لسيفي ومقولي … فهم في وبال من كلامي ومن كلمي

أو يقول محرضاً خاله وأقاربه على الأخذ بثأرهم

ما دام وعد الاماني غير منتجز … فطول مكثك منسوب إلى العجز
هذي المغانم فامدد كفّ منتهب … وفرصة الدهر، فاسبق سبق منتهز
واغزُ العـدى قبل تغزونا جيوشهمُ … إن الشجاع إذا ملّ الغزاة غزي
والقَ العدو بجأش غير محترس … من المنايا وجيش غير محترز

لا تترك الثأر من قوم مرادهمُ   إخفاء ذكر لنا في الناس منتبز

وتنتهي هذه المرحلة بوقعة الزوراء ، ومغادرة الصفي أرض العراق إلى (ماردين) سنة (٧٠١ هـ) .

٢ - ظهور التعقيد :

وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل شعر الصفي ، تبدأ بانتقاله إلى ماردين . ولا شك أن الأحداث التي مرت بالصفي في هذه الفترة قد أثرت في نفسه وروحه الشعرية ، فقد قتل خاله وصار يدعو الى الأخذ بثأره ، ثم وقعت معركة الزوراء بين قبيلته وقبيلة قاتلي خاله (آل أبي الفضل) وأبدى فيها من ضروب الشجاعة الكثير ، ثم ترك أهله وقومه ووطنه إلى قوم آخرين ووطن جديد وقد لقي من هؤلاء القوم كل حفاوة وتكريم ، حتى صار وطنهم وطناً ثانياً له ، يخفف عنه لوعة الأسى وألم الفراق لأهله وأوطانه . فاضطر إلى مدح الملوك الأرتقيين ، وبهذا قال شعر المديح لأول مرة في حياته ، فمدح (الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق) ثم ابنه (الملك الصالح شمس الدين صالح) . يقول في المنصور :

ولقد وقفت عليك لفظي كله   مما أحلّ به فما أنا عاقد

فاذا نظمت فانني لك مادح   وإذا نثرت فانني لك حامد

وليس المديح هو الغرض الوحيد الذي أضافه ابن سرايا إلى شعره في هذه الفترة ، وإنما أضاف اليه أغراضاً أخرى أيضاً ، فحين انهمك مع الملوك الأرتقيين وعاش معهم ، يحضر مجالس أنسهم وحفلات لهوهم ، ويشربُ الخمر وأياهم ، أبدع الكثير من قصائد الخمر ووصف مجالسها :

بدت لنا الراح في تاج من الحبب ... فزقت حلة الظلماء باللهب
بكر إذا زُوّجت بالماء أولدها ... أطفال در على مهد من الذهب
باكرتها برفاق قد زهت بهم ... قبل السلاف سلاف العلم والأدب
بل ربّ ليل غدا في الآهبات غدت ... تنقض فيه كؤوس وهي كالشهب
بذلت عقلي صداقاً حين بتّ به ... أزوج ابن سحاب بابنة العنب

وهناك القصائد التي كان الصفي يرسلها إلى أهله وأصدقائه وأقربائه بالعراق يصف لهم حاله ويشتاق إليهم ، فكان شعر الاخوانيات ، الذي يتسم بالصدق والصراحة والقوة والجمال كتب إلى ابن عمه بالحلة :

أترى البازي الذي لاح ليلا ... مرّ بالحي من مرابع ليلى
وترى السحب مذ نشأنَ ثقالاً ... سحبت من ربوع بابل ذيلا
ما أضا البارق العراقيُّ إلا ... أرسلت مقلتي من الدمع سيلا
وتذكرت جيرة بمغانيه ... وندبا من آل سنبس قيلا
وحملنا بضاعة الشكر مزجا ... ة فأوفى لنا من الود كيلا
كيف أنسى تلك الديار ومغنىً ... عامراً قد ربيت فيه طفيلا

إن وردت (الفيحاء) يا سائق العيس وشارفت دوحها و (النخيلا)
ورأيت البدور في (مشهد الشمس) بفتيان (بانة) و (الاثيلا)
مل إليها واحبس قليلاً عليها ... إن لي نحو ذلك الحي ميلا
وابلغ الرملة الأنيقة وابلغ ... معشراً لي بربعها وأهيلا
كنت جلداً فلم يدع بينكم ... للجسم حولاً ولا لقلبي حيلا
قد ذممنا بعيد بعدكم العيش فليت الحِمام كان قبيلا

ويمتاز شعره في هذه المرحلة بأنه يكاد ينطق بأن الصفي يقوله وهو بعيد عن وطنه إذ يبين في كثير من المواضع ما يحس به الشاعر من إحساس ممض ،

حين يحن إلى أهله ويتشوق إلى أقاربه ويتمنى أن يرى وطنه ، ويظهر هذا في كل شعره ففي شعر الاخوانيات ، وفي شعر المديح ، وفي شعر الرثاء إلى غير ذلك يقول في قصيدته التي أرسلها إلى الشيخ (مهذب الدين النحوي الحلي) :

وربَّ نسيم مرَّ بي من دياركم ... ففاح لنا من طيبه طيِّب النشر
فأذكرني عهداً وما كنت ناسياً ... ولكنه تجديد ذكر على ذكر
تجاذبني الأشواق نحو دياركم ... وأحذر من كيد العدو الذي يدري

وحين يمدح الملك المنصور يحس بالحنين إلى وطنه فيقول :

هبَّ النسيم عراقياً فشوَّقني ... وطالما هبَّ نجدياً فلم يشقِ
فما تنفست والأرواح سارية ... إلا اشتكت نسمات الريح من حرقي
ذر أيها الصبُّ تذكار الديار إذا ... متعت فيها بعيش غير متسق
فكم ضممت وشاحاً في الظلام بها ... ما زاد قلبك إلا كثرة القلق

وفي هذه المرحلة قويت الروح الشعرية عند صفي الدين ، وتكشفت كل مواهبه فبانت جلية واضحة ، وقلَّ تقليده للشعراء وصار يعتمد على قدرته . لكنه ظهر في شعره التعقيد وأول مظاهر هذا التعقيد نظمه القصائد الأرتقيات التي مدح بها (الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق) ، فكان يلتزم للقصيدة قافيتين إذ يبدأ القصيدة بحرف رويها فحين يبدأ بحرف الخاء ينتهي به :

خيال سرى والنجم في الغرب راسخ ... ألمَّ ومن دون الحبيب فراسخ
خطاهُ كماء البيد يجري وبيننا ... هضاب الفيافي والجبال الشوامخ
خفي الخطى وافى لينظر هل غفت ... عيوني وهل جفت جفوني النواضخ ؟

وحين يبدأ بالزاء ينتهي به أيضاً :

زار والليل مؤذن بالبراز ... وهو من أعين المدى في احتراز
زائر جاء تحت جلباب ليـل ... شفق الصبح فوقه كالطراز
زان حسن المقال بالفعل منه ... ووعود الوصـال بالانجـاز

ولا يخفى ما في هذه القصائد من تعقيد وصعوبة ، وما تتطلبه من جهد يدعو إلى التمحل والتكلف مما لم يكن يصطبغ به شعر الصفي في مرحلته الأولى، يوم كان يقول الشعر على سجيته ، دون الالتجاء إلى التكلف أو التصنع ، وقد كان يقول الشعر الذي ينطلق من قلبه قبل لسانه ، وها هو اليوم يرى نفسه مضطراً إلى شعر يمدح به أناساً أكرموه وأحسنوا إليه وحموه وعليه أن يقول فيهم كثيراً من الشعر ، ليرضي رغبته الملحة في مقابلة جميلهم بالمثل ، وعليه أن يبرز موهبته الشعرية لكي لا يبرز عليه شاعر آخر فكانت هذه القصائد الأرتقيات وكان غيرها من الصناعات الاخرى

وليس هنالك أدنى ريب في أن هذه القصائد كانت الفاتحة للصناعات الاخرى ، ولكن المرجح أن ذلك كان على قدر ، فكانت هذه الصناعات قليلة نوعاً ما ، لأن الصفي لم يهدأ بعد في هذه الفترة من حياته فهو مطارد من قبل أعدائه ، هارب من وطنه ، بعيد عن أهله ، يسكن بين قوم مهما يكن ما يلقاه عندهم من حفاوة وتكريم وأمان واطمئنان ، فهو غريب عنهم ، يحس بذلك في قلبه ويشعر به كلما خلا إلى نفسه ، فهو إذاً لا يستطيع أن يشغل ذهنه المتعب المكدود ، أو يكاف فكره القلق المشتت في نظم شعر الصناعات ، وقرض شعر الأحاجي والألغاز والمعميات ، ولا شك في أن هذا الشعر قد كثر في المرحلة الثالثة من حياته .

٣ - اشتداد التعقيد :

هدأ الصفي بعد حين وارتاح باله ، وبعد عنه شبح الموت ، وزالت عن ذهنه صور الأعـــداء التي كانت تتراءى له ، وتخلص فـكره من القلق والاضطراب ، فاستطاع أن يفرغ إلى نفسه وأن يفـكر في أعماله ، فعمل في التجارة وجال في البلاد المختلفة لهذا الغرض ، ودخل السرور قلبه وضحكت له الحياة ، فاهتم بالشعر أيما إهتمام حتى طالت قصائده وكثر قصيده ، وتنوعت نواحيه وتعددت موضوعاته ، فلم يترك غرضاً من الأغراض المعروفة إلا قال فيه ، قال في المديح والرثاء والحماسة والفخر والصيد والوصف والغزل والخمر والمجون والهجاء والزهد والتصوف وفي كل موضوع ... جاء إلى مصر فدح سلطانها (الملك الناصر محمد بن قلاوون) في عدة قصائد يقول

الناصر الملك الذي في عصره   شكر الظباء صنيعة السرحان
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره   خروا بهيبته إلى الأذقان
وإذا جرى بين الورى ذكر اسمه   تغنيه شهرته عن ابن فلان

وذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول العظيم (ص) فقال الـكثير من الشعر في مدح النبي ومناجاته :

فضل به زينة الدنيا فـكان لها   كالتاج للرأس أو كالطوق للعنق
صلى عليك إلـه العرش ما طلعت   شمس النهار ولاحت أنجم الغسق

ولم يشأ الصفي أن يخلو ديوانه من شعر الهجاء ، فقال فيه مقطوعات كثيرة ، قال يهجو طبيباً اسمه عيسى

أرى فيك يا عيسى الطبيب فضيـلة   هي الضدُّ من أفعال (عيسى بن مريم)
تميت لنا الأحياء من غير عـلة   وتضني وتفني باليدين وبالفم

ونحمي ولـكن من شفاء وصحة   ونحقن إلا للحيـاء وللدم
(فما أنت إلا خبط عشواء من تصبْ   تمته ومن تخطيءْ يعمّر فيهرم)

ولـكن شعر الهجاء هذا يقوله إجابة لطلب أصدقائه ، ولذا نجد في بداية أغلب مقطوعاته هذه العبارة « وسئل نظم شيء في ذم ... » . وقد سئل هجاء رجل كبير الأنف فقال :

لو غدا أنفك المظيم غداً وهـــو وقود للنار ذات الوقودِ
ثم قالوا : هلا امتلأت ؟ لقالت :   هو حسبي ولم ترد من مزيـد

وحين كبر ابن سرايا وأحس بقرب نهايته ، صار يحاسب نفسه عندما يثوب إلى رشده ، ويقول شعراً فيه زهد وتصوف وفيه توبة إلى الله واستغفار عما بدر منه من ذنوب وأخطاء

رب أنعمت في المديد من العمـــر ونجيتني من الأشـــرار
فاعفني اليوم من سؤال لئيم   وقني في غـدٍ عذابَ النـار

أو يقول على طريقة المتصوفة في الحب الالٓهي :

تعشقت ليلى من وراء حجابها   ولم تر عيني لمحة من جنابها
فكيف سلوّي إذ أمطت ستورها   وزحزح إذ راقبت فضل نقابها
وكم أمكنتني فرصة في اختلاسها   وبتُّ وقلبي طامع في اغتصابها
فأجللتها عن أن أراها بريبة   ولم يرضني إلا الدخول ببابهـــا

* * *

ويمتاز شعر الصفي في هذه المرحلة بأنه شعر مختلف الأوطان ، فشعر في الحجاز ، وقصيد في العراق ، ومقطوعات في الشام ، ومطولات في ماردين ، وقصائد في مصر ، وهكذا في كل بقعة يحـل فيها الصفي أنغام جديدة وفن جديد

فكل يوم لي برغم العلا   في كل أرض غربـة وانتزاح

وقد بانت آثار هذا الانتقال بجلاء ووضوح في شعره

فشعره في (ماردين) سجل للحوادث التي تحدث هناك من معارك وحروب ، إلى حفلات ورحلات ، وإلى ذلك كله رأينا صوراً كثيرة من ماردين وطبيعتها الجميلة فحين خرج متنزهاً في ضواحي ماردين ، أعجب بمناظرها الفتانة فوصف (عين الصفا) و (عين البرود) بشعر جميل يسجل الطبيعة الجميلة وشمسها القوية وأرضها الخضراء السندسية المطرزة بالأزهار الجميلة المختلفة الألوان :

عجنا على وادي الصفـا فصفا عيشٌ وولىَّ الهمُّ مرتحلا
ولنا بها والشمس في (أسد) قيظا نخلنا برجها (الحملا)
في روضة حال الربيع لها بسطاً وألبس دوحها حللا

وأما مناظر الشتاء فنجد فيها السماء ملبدة بالغيوم ، ونحس بالأمطار الغزيرة التي يتميز بها مناخ ماردين :

عين البرود برود عيني إن عز منظر (رأس عين)
أرض ينمــق زهرهـا ما فاض من نهر وعين
ويظـل يرفـدها السحاب بصوب وسمّي وعين

أو يقول :

فـكأن صوب المزن يعشقها فأقام لا يبغي بهـا حولا
ما زال يبكيها ويعتبهـا حتى توّرد خـدها خجـلا

وهو يصور لنا الهدوء والأمن الذي كان يخيم على ماردين ، والسلام والعدل الذي كان يسودها ، وكان أهلها يتنعمون به فقال مادحاً الملك المنصور :

ملك هذّب أخلاق الزمان عدله المسنون
وأعاد الناس في ظل الأمان عضبه المسنون
مهد الأرضين بالعدل فـكان أمنها مضمون
ذيبها والشاة ترعى في مكان غدره مأمون

أو يقول مثل ذلك

تجمع الأسد فيها والظباء كما | من فرط عدلك يرعى الذئب والنقد

وهو لا يفتأ يذكر (قلعة ماردين) الحصينة التي تلقب بالشهباء في أكثر شعره ، يقول مقارناً بينها وبين الشام

يا من يقايس ماردين بجلق | بعُد القياس وأين منها جلق
لم تُذكر الشهباء في سبق العلا | إلا كبت شقراؤها والأبلق
كم ماردين لماردين تواثبوا | ومن المحال طلاب ما لا يلحق

أو يقول مفضلاً إياها على (الموصل) :

ولا تقم بالموصل الحدباء | إنَّ شهاب القلعة الشهباء
يحرق شيطان صروف الدهر

أما اسم ماردين فيأبى إلا أن يتخذه قافية لأربعة أبيات يصف بها أهلها هي :

ان وهي عقد الزمان الثمين | فلا عدا ربعك يا ماردين
مدينة لم تر في جوها | جوراً ولا في أهلها ماردين
كم شاهدت عيناي من أهلها | إظهار معروف وإضمار دين
أفاضل في غيهم ماردوا | ونسوة في مثله ماردين

* * *

ومصر التي أحبها ذلك الحب العميق ولقي فيها أعظم الاكرام رأينا آثارها في شعره بينة أيضاً . فهذه صور النيل العظيم بسفنه الجميلة التي تتراقص مع الهواء الذي يصارع أشرعتها البيضاء :

واخضرَّ واديها وحدَّق زهره | والنيل فيه ككوثر بجنان
وبه الجواري المنشآت كأنها | أعلام بيد أو فروع قناني
نهضت بأجنحة القلوع كأنها | عند المسير تهم بالطيران
والماء يسرع في التدفق كلما | عجلت عليه يد النسيم الواني

ولا ينسى أن النيل ، حين يفيض ماؤه ، يحمل إلى سكان واديه الخير والبركات فيلهجون بشكره فيقول :

وفى النيل إذ وفّى البسيطة حقها وزاد على ما جاءه من صنائع
فما أن توفي الناس من شكر منعم يشار إلى إنعامه بالأصابع

وهذه الأهرام الخالدة التي رآها وأعجب بها ، خلفت في نفسه الاكبار لبانيها فهي عنده تشرق كما تشرق الشمس :

إني وقد صفت المياه وزخرفت جنات مصر وأشرق الهرمان

وكيف ينسى أن القاهرة يومذاك كانت قبلة المسلمين ومحط آمالهم وملتقى أفئدتهم وكانت تنعم بالمسرة والنعيم :

لله قاهرة المعز فإنها بلد تخصص بالمسرة والهنا
أوما ترى في كل قطر منية من جانبيها وهي مجتمع المنى

وحين يمدح الملك الناصر يحلو له أن يسميه بأسماء حكام مصر القدماء فيناديه بالعزيز :

أيهذا (العزيز) قد صحّ رقي لك من موقع اسميَ المرموز
أنا من يوم مولدي لك عبد ولهذا دُعيت (عبد العزيز)

* * *

أما الشام فهذه مناظرها الفتانة ، وهذا سحر طبيعتها الخلابة ، يتجلى في صور جميلة يرسمها (عبدالعزيز) في شعره . فحين أرسل إلى (الملك الصالح) من الشام قصيدة يمدحه بها أبى إلا أن يبدأها بوصف ما حوله من مناظر جميلة :

نمَّ بسر الروض خفق الرياح واقتدح الشرق زناد الصباح
وأخجل الورد شعاع الضحى وابتسمت منه ثغور الأقاح
وقام في الدوح لنعي الدجى حمائم تطربنا بالصياح

ولا يغيب عن بال الصفي أن الضباب يملأ جو دمشق عند الصباح فيشبه صباحها بالدجى في قوله :

ويوم دجنٍ حجبت شمسه وأشرقت في ليله شمس راح
فما ظننا الصبح إلا دجى ولا حسبنا الليل إلا صباح

وهذه رياض دمشق يصفها وصفاً بديعاً فيقول :

إن جزت (بالميطور) مبتهجاً به ونظرت ناضر دوحـه المطور
وأرتك بالآصال خفق هوائه الممدود في ظل الهوى المقصور
سل بانه المنصوب أين حديثه المرفوع من ذيل الصبا المجرور

وهذا نهر العاصي ـ في حماة ـ بمياهه الرقراقة والفلك التي تسير فيه والجنان التي تحفُّ بجانبيه ، بما فيها من خمائل وأزهار وأطيار ، يرسم صورها ليوشي بها قصيدة في الملك الأفضل :

فحبذا العاصي وطيب شعبه وماؤه المسلسل المجعد
والفلك فوق لجّه كأنها عقارب تدبُّ فوق مبرد
وناجم الأزهار من منظم على شواطيه ومن منضّد
والورق من فوق الغصون قد حكت بشدوها المطرب صوت (معبد)

وأرسل قصيدة إلى أحد إخوانه بالحلة يصف يوماً قضاه بين رياض نهر العاصي فيقول :

أطعت داعي الهوى رغماً على العاصي لما نزلت على ناعورة (العاصي)
وبات لي بمغاني أهلها وبها شغلان عن أهل (شملان وبغواص)
والريح تجري رخاءً فوق جدولها والطير ما بين بنّاءٍ وغواص
وقد تلاقت فروع الدوح واشتبكت كأنما الطير منها فوق أقفاص

* * *

وقد ازداد التعقيد في هذا العصر وكثرت الصناعات المختلفة ، فقد شغف بها شاعرنا أي شغف حتى سيطرت عليه وملكت جوارحه وكل حواسه ،

فبرع فيها أي براعة ، وصار يتلاعب باللغة وكأنها العجينة في يد المثال الماهر ويتصرف بالألفاظ وكأنها قطع الشطرنج بيد اللاعب الذي يتقن اللعب ، فينقلها من مكان إلى مكان حيث يشاء وكيف يريد فقال الشعر الخالي من النقط من مثل قوله :

كم ساهر حرّم لمس الوساد وما أراه سؤله والمراد
ما سهر الواله ممط لـه وصلاً ولو داوم طول السهاد
ولا اطّراح اللهو داع لما رام وسحُّ الدمع سح العهاد
أطمعه حلو مراح الطـلا وهام لما ماس دلاً وماد

وقال الشعر الذي ليس فيه حرف مهمل :

فتنت بظبي بغى خيبتي بجفن تفنن في فتنتي
نجـنى فبتُّ بجفن يفيض نخيبت ظني في يقظتي
قضيب نجيء بزي يزين تثنى فذقت جنى جنتي

وقال شعراً يمكن قراءته طرداً وعكساً كقوله :

أمرّ كلاماً ألفته مظنـة تنظم هتف لاءم الكرماء
أهبُّ لوصف لا لما هبَّ آمل ملماً بها ملّ الفصول بهاء
أروح أطيل الدرب أبرم همه مرباً بادلال يطـاح وراء

وهناك من الشعر ما يقرأ عرضاً وطولاً ، أي عمودياً وأفقياً :

ليت شعري لك علم من سقامي يا شفائي
لك علـم من زفيري ونحولي وضنائي
من سقامي ونحولي داوني إذ أنت دائي
يا شفائي وضنائي أنت دائي ودوائي

وقال أيضاً من الشعر ما فيه بيت مهل والآخر منقط ، وما فيه نصف مهمل ونصف منقط ، ومن الشعر ما فيه كلمة مهملة والأخرى منقطة وله كذلك الشعر الذي له قافيتان ، فهذه الأبيات يمكن أن تقرأ على صورتين الأولى

جنّ الظلام فذ بدا متبسماً لاح الهــدى
وهدت محباً ظــلّ في ليــل الجفا لمّــا هدى
رشأ غــدا من سكر خمرة ريقــه متأودا

ويمكن أن تضاف إليها أجزاء أخرى فتقرأ :

جنّ الظلام فذ بدا متبسماً لاح الهدى ـ وتجلت الظلماء
وهدت محباً ظل في ليـل الجفا لمـا هدى ـ وامتدت الآناء
رشأ غدا من سكر خمرة ريقه متأودا ـ فكأنهـا صهباء

ونظم في الألغاز والمعمى والأحاجي يقول في الشطرنج :

وما اسم له شطر الصحيح منطق يعد بلا كسر وأحرفه خمس
إذا رامت الخمس الحواسا كتنافه تشارك فيه الطرف والسمع واللمس
صقيل أديم الجسم بالقسر سميه وليس به روح ولـكن به جسم

وأما (المشمش) فقد طلبه من أحد أصدقائه في لغز جميل هو :

يا جواداً أكفه في مجال الـ حرب حتف وفي النوال غمـامه
جد بتضعيف عكس مشطور تصحيـ ف مثنى ترخيم مثل (علامه)

فمثل (علامة) هي (سمة) فيكون :

سمة ، سم ، سمسم ، شمشم ، شم ، مش ، مشمش

وقال في اسم (يعقوب) :

جمع حروف اسم من أراق دمي بحسن وجه وغنج أحـداق
نصف اسم يعلي وخمس قسورة وثلث وهب والربع من باقي

وقد نظم الكثير من الشعر لضبط العلوم والفنون ليسهل حفظها ، كأبحر الشعر وأسماء الألحان ، وأسماء طيور الصيد وغير ذلك . قال في البحر الطويل :

طويل له دون البحور فضائل   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعل

وقال في السريع :

بحر سريع ما له ساحل   مستفعلن مستفعلن فاعل

وقال في أنواع الطيب وصفاتها ؟

ثلاثـة في العود محمودة   وتلك في العنبر لا تحمد

صلابة اللمس وثقل بـه   ولونه المتكر الأسود

ولكن ، ليس هذا كله شعر الصفي في هذه الفترة فهناك قصائد رائعة تخلو من التعقيد وليس فيها شيء من هذه الصناعة ، ولكن شغفه بهذا التعقيد وهذه الصناعات المتنوعة جعله يميل إلى النظم فيها كثيراً

وتنتهي هذه المرحلة بوفاة صفي الدين سنة (٧٥٠ هـ)

٤ – صفات عامة :

تكاد الصفات والخصائص التي يمتاز بها شعر صفي الدين تكون واحدة في مراحله المختلفة فأسلوبه لم يتبدل وألفاظه في مستوى واحد ، والميزات الأخرى لشعره متساوية كذلك وهذا أكبر دليل على أن الصفي بالرغم من صغر سنه حين بدأ ينظم الشعر ، كان شاعراً مجيداً فقد بلغ في شعره حداً كبيراً من الاتقان والجودة ، وإنه بالرغم من اعتماده على الشعراء المتقدمين وافادته من شعرهم كانت له شخصيته الخاصة التي تظهر في روحه الشعرية ، ولا تختفي في معظم قصائده وليس في هذا إلا البرهان على نضوجه الشعري وارتقاء موهبته . .

ولعل أول ميزة ظاهرة في شعر الصفي اهتمامه بالمحسنات اللفظيـة في جميع مراحل شعره . ولقد كان هذا الاهتمام يتزايد مع الزمن حتى أغرق الصفي شعره بالمحسنات البديعية ، كالجناس والطباق والاستعارات ، والتشبيهات وغير ذلك من فنون البديع وألوانه :

فـكم سخط الأنام وأنت راضٍ   وكم رخص المـلاح وأنت غالي
وكم جرّبت قبلك مـن مليح   فأمسى جيـد حالي منه خالي

وقد اخترع الجناس المجنح الذي يقول فيه

(أجرْني) (أجزْني) (واجزِني) أجر مدحتي
بـبرد إذا ما النـار شبّ سعيرها

وقد نظم قصيدة كاملة ملأى بهذا النوع من البديع

سلْ سلسلَ الريقِ لم لَم يروِ حر ظما   بل بلبـل القلب لما زاده ألمـا
قدْ قَدّ قدّ حبيبي حبل مصطبري   أنْ أنّ إنْ أجتني ذنباً فلا جرما
مذ ملّ ململ قلبي في تعتّـبه   لو كف كفـكف دمعاً فيه صار دما

* * *

وميزة أخرى يمتاز بها شعر الصفي بصورة عامة ، تلك هي طغيـان الروح الحمـاسية عليه ، فمنذ كان صغيراً وهو يحب الحماسة ، وزاد من شغفه بالحماسة حادثة قتل خاله والأخذ بثأره وتغربه عن العراق ، وما تبع ذلك من حضوره المعارك التي كان يخوضها الملوك الأرتقيون ووصفه للقتال والطعان وبالاضافة إلى القصائد الحماسية الطويلة والمقطوعات القصيرة ، نجد الروح الحماسية في شعره كله ، في المديح والرثاء ، وحتى في الغزل نجد الحماسة ، ونشاهد الطعن والضرب فحين يمدح السلطان الملك الصالح لا ينسى الحماسة فيقول

مَن القومُ في متن الجياد ولادهم   كأن متون الصافنات مهود ؟
غيوث لهم يوم الجلاد من الظبي   بروق ومن وطء الجيـاد رعود

وفي رثائه لخاله يتحمس قائلاً :

واقتـــدحوا بالوعيد نار وغىً   وربّ نار وقودها الكلِمُ
إن لم نقدها شمساً مضمرة   تذوب من نار حقدها اللجم
بكل أزرٍ في متنه أسد   وكل طود من فوقـه صنم
من فتيـــة أرخصوا نفوسهم   كأنهم للحياة قـد سئموا

ويتغزل فيمازج بين الغزل والحماسة في قوله

ظبي من الأتراك ليس بتارك   حسناً لمخلوق أتى من بعده
حمـل السلاح على قوام مترف   كاد الحرير يؤدّه من أدّه
فـــترى حمائل سيفه في نحره   أبهى وأزهى من جواهر عقده

وميزة ثالثة يمتاز بها شعر الصفي هي المبالغـة فنجده يزيد في تعظيم الصورة التي يريد أن يعرضها أمامنا فيهولها ويجعلها تشبه المستحيل وقد كانت هذه المبالغة في الشعر العربي منذ عصر المتنبي أو قبله ، فقد اهتم المتنبي بها كثيراً حتى غلبت في شعره فرأيناه يقول لسيف الدولة :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى   إلى قول قوم أنت بالغيب عالم[1]

وجاء الشعراء من بعده فعنوا بالمبالغة عناية كبيرة لأنهم كانوا يقلدونه في كل شيء ثم ظلت تتفشى في شعرهم حتى أصبحت ضرورية فيه

وهكذا كان الصفي ، وهكذا كان شعره . فحين يمدح الملك المنصور يقول :

ما زال أمرك بالسعادة نافذاً   في الأرض تمنع من تشاء وترزق

فيجعله كالمولى عز وجل الذي يقول في كتابه المجيد « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر »

ويقول أيضاً :

لو قابل الأعمى غـــدا بصيرا   ولو رأى ميتاً غدا منشورا

---

(١) ديوان المتنبي ج ٣ ص ٣٨٧ .

ولو يشا كان الظلام نورا ولو أتاه الليل مستجيرا
أمنه من سطوات الفجر

وحين يتحمس يسرف في مغالاته فيقول

وصير جأشه في البيد جيشاً ومن حزم الأمور له ربايا

أو يقول

فأقت تقسم للوحوش وظائفاً فيها وتصنع للنسور مآدبا
وجعلت هامات الكماة منابراً وأقمت حد السيف فيها خاطبا

وإذا رثى بالغ ، فقد قال في رثاء أحد أولاد الملك المنصور :

ما فقد فرد من الأنام كمن إن مات ماتت لفقده أمم
يا طالب الجود قد قضى (عمر) فكل جود وجوده عدم
قضى الذي كان للأنام أباً فاليوم كل الأنام قد يتموا

وفي الغزل يغالي فيقول :

ورقيق الخدين قد قابل الكأس بوجه كرقة الديباج
جرحت خده أشعة نور الرا ح شفت وراء جرم الزجاج

أو يقول أيضاً

من كل ردف كالكثيب مجاذب قداً أغض من القضيب وألينا

* * *

أما أسلوبه فهو أسلوب جزل رصين ، لا تزال فيه بلة من الفصاحة والرشاقة ، مسبوك العبارة متين في تركيب الجمل محكم رصف الألفاظ ، بالرغم من الركاكة والضعف الذي تفشى في ذلك العصر ، وبالرغم من تدهور الأساليب الأدبية في الشعر والنثر فقد كان الصفي شاعر عصره ، وهو النواة التي نقلت روح النهضة الشعرية من العصر العباسي إلى الأجيال التالية . فلا عجب أن يكون أسلوبه متيناً رصيناً ولا غرابة إن كان أسلوبه متميزاً عن غيره من شعراء عصره بالجزالة والرقة مع القوة والجمال قال متحمساً

ظنت تأني البزاة الشهب عن جزع   وما درت أنه قد كان تهوينا
بيادق ظفرت أيدي الرخاخ بها   ولو تركناهم صاروا فرازينا
ذلوا بأسيافنا طول الزمان ومذ   تحكموا أظهروا أحقادهم فينا

وحين يتغزل يكون أسلوبه سهلاً سلساً ليناً هادئاً موسيقي الرنين كقوله :

أهلاً وسهلاً يا رسول الرضى   شنفت سمعي بلذيذ الكلام
تهدي سلاماً من حبيب لنا   عليك منا وعليه السلام
فاشهد بما شاهدتَ من حالتي   وصف جنوني إذ يجن الظلام
وإن تغافلت وأغفلتها   عليك فيها لا عليّ الملام

ولولا سهولة أسلوبه ورقة شعره لما تغنى بشعره المغنون وأنشد المنشدون ، فطالما غنى أصحاب (المقامات العراقية) قوله

يا ضعيف الجفون أضعفت قلباً   كان قبل الهوى قوياً مليا
لا تحارب بناظريك فؤادي   فضعيفان يغلبان قويا

وقد غنى له الموسيقار (الاستاذ محمد عبدالوهاب) قطعة شعرية جميلة « قالت كحلت الجفون بالوسن »(١) وكأنَّ الصفي عرف ذلك فقال عن قصائده :

ينزلها الشادون في نغماتهم   ويحدو بها طوراً حداة الركائب

وكثيراً ما نرى في شعره ما تتطلبه الخطابة في الأسلوب ، كاختيار

---

(١) قالت كحلت الجفون بالوسن   قلت ارتقاباً لطيفك الحسن
قالت تسليت بعد فرقتنا   فقلت عن مسكني وعن سكني
قالت تشاغلت عن محبتنا   قلت بفرط البكا والحزن
قالت تناسيت قلت عافيتي   قالت : تناءيت . قلت عن وطني
قالت تخليت قلت : عن جلدي   قالت : تغيرت قلت في بدني
قالت : أذعت الأسرار . قلت لها   صير سري هواك كالعلن
قالت سررت الأعداء . قلت لها   ذلك شيء لو شئت لم يكن
قالت فماذا تروم ؟ قلت لها   ساعة سعد بالوصل تسعدني
قالت لعين الرقيب تنظرنا   قلت فاني للعين لم أبن
انحلتني بالصدود منك فلو   ترصدتني المنون لم ترني

الألفاظ والعبارات القوية الرنانة التي تؤثر في النفوس ويستعمل التكرار بمختلف صوره ، فهو يكرر أبياتاً بأكملها ، كما يكرر كلمتين أو أكثر :

إلى ملك يخفي الملوك فيجتلي   وتغلق أبواب السماء فيفتح
إلى ملك لا مورد الجود عنده   أجاج ولا مرعى السماح مصوح
إلى ملك يلقى الثناء بمثله   وينعم من بعد الثناء ويسمح
إلى ملك ...

ومن تكريره كلمة واحدة

ومن أخمدت مع وضعه نار فارس   وزلزل منها عرشها وسريرها
ومن نطقت توراة موسى بفضله   وجاء به إنجيلها وزبورها
ومن بشر الله الأنام بأنه   مبشرها عن إذنه ونذيرها
ومن

وفي أسلوبه الكثرة من استعمال الجمل الشرطية

(إذا) خاف ضيماً جارنا وجليسنا   فمن دونه أموالنا ورؤوسنا
(وإن) أعجبت نار الوقائع شوسنا   (تسيل على حد الظباة نفوسنا)
(وليست على غير الظباة تسيل)

ويكثر كذلك من استعمال (كم) يقول :

(فكم) غاية أدركتها غير جاهد   (وكم) رتبة قد نلتها غير طالب

أو يقول

(وكم) قد بذلت النفس أخطب وصلها   وخاطرت فيها بالنفيس على علم

ويستعمل الصفي كثيراً فعل (القول) ليستعين به على إطالة شعره ، فيجعله على هيئة حوار بينه وبين الحبيب أو بين شخصين آخرين :

قالوا : هو البدر ، قلت البدر ممتحق
قالوا : هو الشمس ، قلت : الشمس تحتجب

قالوا : هو الغيث ، قلت : الغيث منتظر
قالوا : هو الليث ، قلت : الليث يغتصب
قالوا : هو السيل ، قلت : السيل منقطع
قالوا : هو البحر ، قلت : البحر مضطرب

ويتطور بهذا على هيئة قصة فها هو يصف قصة له مع فقيه زاره وهو يشرب الخمر فدار بينهما هذا الحوار :

وليـلة زارني فقيـه ... في رشده ليس بالفقيه
رأى بيمناي كأس خمر ... فظـل ينأى ويتقيـه
فقلت : هلا ؟ فقال : كلا ، ... فقلت : لم لا ؟ فقال : إيه !
ما ذاك مني ، فقلت : عدل ... أنزه الكأس عن سفيـه

وها هو يرسل حواراً طريفاً على لسان الزهور :

قـد نشر الزنبق أعلامـه ... وقال : كل الزهر في خدمتي
لو لم أكن في الحسن سلطانه ... ما رفعت من دونهم رايتي
فقهقه الورد بـه هـازئاً ... وقال : ما تحذر من سطوتي ؟
وقال للسوسن ماذا الذي ... يقوله الأشيب في حضرتي ؟
وامتعض الزنبق من قوله ... وقال للأزهـار : يا عصبتي
يكون هذا الجيش بي محدقاً ... ويضحك الورد على شيبتي !

* * *

وأما ألفاظه فعربيـة فصيحة ، بالرغم من انتشار اللغات الأعجمية والألفاظ المستعجمة ، ولا شك أن ابيئة الحلة العربية ولثقافة الصفي أكبر الأثر في ذلك وهي موسيقية سهلة بالرغم من الافتتان بالغريب في عصره وقد قال له أحد أصحابه : إن شعرك عظيم لـكنه يخلو من الغريب كما ترى عند المتنبي فأجابه بقصيدته المشهورة :

إنما الحيزبون[١] والدردبيس[٢] والطخا[٣] والنقاخ[٤] والعلطبيس[٥]
والحراجيج[٦] والشقحطب[٧] والصمقب[٨] والعنقفيز[٩] والعنتريس[١٠]
والغطاريس[١١] والعقنفس[١٢] والعفلق[١٣] والخربضيض[١٤] والعيطموس[١٥]
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحشيُّ منها و يترك المأنوس
أين قولي هذا كثيب قديم ومقالي : عقنقل قدموس !؟
أتراني إن قلت للحب : يا علق ، درى أنه العزيز النفيس

درست تلكم اللغات وولت في نشاف[١٦] تخفُّ فيه الرؤوس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وهذا أكبر دليل ، وأسطع برهان على أن (ابن سرايا) كان يستعمل الألفاظ السهلة المفهومة في شعره ويفضلها على الألفاظ الغريبة الغامضة

وكانت ألفاظه في المديح والحماسة قوية جزلة يكثر فيها من الألفاظ الحربية والضرب والشجاعة والقوة :

الكماة ، القناة ، الهيجاء ، الكفاح ، المرهف ، الصارم ، الصمصام ، القرضاب ... الخ

وكان ينمق هذه الألفاظ إذ يختار منها ما يلائم صوره وعباراته ويغير ويبدل بها حتى تتم الصورة عنده وتكتمل فتكون جميلة منسجمة :

وكم أججوا نار الحروب وأقبلوا بجيش يصد السيل عن مربض العصم

---

(١) العجوز . (٢) الشيخ الهرم والداهية . (٣) السحاب . (٤) الماء البارد الذي ينقخ الفؤاد . (٥) الأملس البراق . (٦) جمع حرجوج الناقة الطويلة (٧) الكبش العظيم . (٨) الطويل . (٩) الداهية . (١٠) الناقة الصلبة (١١) جمع غطريس الظالم المتكبر (١٢) اللئيم (١٣) الضخم المسترخي . (١٤) الجني الصغير المهزول . (١٥) المرأة الجميلة التامة الخلق . (١٦) نشاف جمع نشفة وهي الحجارة السوداء كأنها محترقة .

فلم يسمعوا إلا صليل مهندي　　وصوت زئيري بين قمقمة اللجم
جعلتهم نهباً لسيفي ومقولي　　فهم في وبال من كلامي ومن كلمي

أو يقول مخاطباً الملك الناصر محمد بن قلادون

صرّمتَ شمل المارقين بصارم　　تبديه مسلوباً ويرجع سالبا
وكتيبة تذر الصهيل رواعداً　　والبيض برقاً والعجاج سحائبا
حتى إذا ريح الجلاد حدت لها　　مطرت فكان الوبل نبلاً صائبا
بذوائب ملد يخلن أراقماً　　وشوائل جرد يخلن عقاربا
تطأ الصدور من الصدور كأنها　　تعتاض من وطء التراب ترائبا

* * *

أما معانيه، فكان يهتم بجودتها، ويغوص على الجميل الطريف منها، بالرغم من فساد الصور وسطحية المعاني التي سادت في ذلك العصر، وبالرغم من كثرة التقليد وسرقات المعاني من الشعراء المتقدمين التي يتميز بها الشعراء المعاصرون له .. وكان يختار المعاني الجميلة للشعراء المتقدمين ويتناولها بأسلوبه ويحسنها ويزيد عليها ويكسبها رونقاً وبهاءً فقد وصف الأقدمون الجواد المحجل ولكنهم لم يبدعوا كهذه الصورة التي جادت بها قريحة الصفي

أخمدت بالادلاج أنفاس الفلا　　وكحلت طرفي في الظلام بسهده
بأغرّ أدهم ذي حجول أربع　　مبيضها يزهو على مسودّه
خلع الصباح عليه سائل غرة　　منه وقمّصه الظلام بجلده
فكأنه لما تسربل بالدجى　　وطيء الضحى فابيض فاضل برده

والصفي يبدع أكثر ما يبدع في حماسته ويأتي بمعاني عظيمة تمتاز بالخيال الخصب والفكرة العميقة والصورة الجميلة الواضحة البهيجة .

ونجد في قصائده الحماسية الكثيرة خير الأمثلة لما ابتكر من المعاني الجديدة والصور الجميلة

وبرزنا من الـكماة بأطواد حـلوم تسري عـلى أطواد
وأخـذنا حقوقنا بسيوف غنيت بالدما عن الأغمـاد

وهذه صورة جميلة أخرى يرسمها لنا

جشمتها جرداً إذا رمت العلا أرسلتها فجرت إلى غاياتها
ما بين عينيها الأسنة طلّع فـكأنها غرر على جبـهاتها
سدت حوافرها الفضاء بعثير غنيت به العقبان عن وكناتها

إلى غير ذلك من المعاني الجميلة التي كان يصوغها ، والصور البديعة التي كان ينمقها في مختلف أغراض الشعر .

الفصل الثالث

موضوعات شعره

كوصف حرب ووصف شرب ولطف عتب اقلب قلب
وذكر الف وشكر عرف وبكر وصف وندب ندب

١ - الحماسة :

وإنما نقدّم هذا الفن على غيره لتقديم الصفي إياه في ديوانه على سواه من فنون شعره ، ولأهميته عند الصفي ، فهو يمثل نفسه أحسن تمثيل ويصور حياته أصدق تصوير ونريد به الشعر الذي يمثل الشجاعة والبأس والقوة والاقدام والضرب والطعان والحمية والغضب وغير ذلك .

فلقد قال الصفي شعر الحماسة منذ صباه ، واهتم به وحفظ منه نماذج كثيرة لمن سبقه من شعراء الحماسة كالمتنبي وأبي تمام ولمَ لا يتحمس الصفي وهو البطل المغوار والفارس العظيم ، والمحارب الباسل الذي دخل المعامع وخاض غمرات الحروب وقد جاء مقتل خاله أكبر حافز على الاكثار من الشعر الحماسي ، فكان يتحمس للأخذ بثأره ويستنهض أقاربه إلى ذلك وجاء يوم الأخذ بالثأر في (واقعة الزوراء) فأبلى بلاء حسناً وقاتل الأعداء قتالاً عنيفاً فتدفقت حماسته وتفجر شعره .

وللصفي (اثنتان وعشرون قصيدة) في الحماسة و (ثماني عشرة مقطوعة).

هذا عدا الشعر الحماسي الكثير المنتشر في المدح والرثاء والغزل والشكر والمراسلات وغير ذلك من أغراض شعره .

وتمتاز حماسة الصفي بالقوة والعنف وصدق العاطفة فيها ، فهو يعبر عن شعوره المختلج في صدره أصدق تعبير ، ويصور عاطفته الجياشة في قلبه أعظم تصوير ، لا يكذب ولا يدّعي لأنه بطل حقاً ، ولأنه أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ما يدعو إلى الفخر والاعجاب ، فلا عجب إن رأينا شعره الحماسي يصور جوانب كثيرة من حياته ويؤرخ صفحات من تاريخه لأنه هو البطل الذي دخل المعارك وخبرها وخاض غمرات الحروب فوصفها وعبر عما مر به من أحداث ، فاذا وصف المعركة لم تفته لمحة من لمحاتها ولم يعجز عن متابعة فرسانها وحركاتهم ، وأبطالها وضرباتهم :

حتى إذا خطف المكافح خطفة ... أتبعته منها شهاباً ثاقبا
صرّمت شمل المارقين بصارم ... تبديه مسلوباً فيرجع سالبا
صافي الفرند حكى صباحاً جامداً ... أبدى النجيع به شعاعاً ذائبا
وكتيبة تذر الصهيل رواعداً ... والبيض برقاً والعجاج سحائبا
حتى إذا ريح الجلاد حدت لها ... مطرت فكان الوبل نبلاً صائبا
بذوائب ملد يخلن أراقماً ... وشوائل جرد يخلن عقاربا
تطأ الصدور من الصدور كأنما ... تعتاض من وطء التراب ترائبا

والسيوف تلمع والنبال تتراشق وكل شيء يصطرع . . ولا نسمع إلا صليل الصوارم وتكسر النصال وتساقط الرؤوس يقول :

فلم يسمعوا إلا صليل مهنّدي ... وصوت زئيري بين قمقمة اللجم

ويقول :

وأخذنا حقوقنا بسيوف ... غنيت بالدما عن الأغماد
فكأن السيوف عاصف ريح ... وهمُ في هبوبها قوم عاد

ويصور حركة الخيل وهي تحمل الفرسان إلى حومة الوغى كأنها الجبال الشوامخ أو السيل الجارف :

وأتينا من الخيول بسيل   سال فوق الهضاب قبل الوهاد
كلما حاولوا الهوادة منا   شاهدوا الخيل مسرعات الهواد

يتضح أن سرعة الحركة هي أهم ما تتميز به هذه الصورة ، وجميع صور الشعر الحماسي عند الصفي . . . فالجند تتدافع ، والخيل تجري ، والسيوف تخطف الأبصار ، والنبال كأنها المطر وهكذا . . . ولا يدل هذا على غير الشجاعة التي يتمتع بها قوم الصفي ، والجرأة التي يتحلى بها كل فرد منهم ، والاقدام الذي يعدونه أول ما يجب أن يتصف به المحارب عندهم

لا شك أن الصفي في حماسته غالباً ما يلجأ إلى المبالغة في التصوير والمغالاة في تجسيم الصورة ، ليظهر القوة والبأس وليجسم السطوة والعنف وليوضح الصرامة والبطش . فتبدو روعة الحرب وشدة القتال ، ويتراءى بلاء الأبطال . وهذا ما يتطلبه الشعر الحماسي ، لأن معنى الحماسة التعصب والقوة يقول :

فأقمت تقسم للوحوش وظائفاً   فيها وتصنع للنسور مآدبا
وجعلت هامات الكماة منابراً   وأقمت حدّ السيف فيها خاطبا

فكان شعره قوياً في كل شيء ، قوياً في أوزانه المتدفقة ، ولحونه المدوية الصاخبة ، وألفاظه الجزلة الضخمة ، ومعانيه الجميلة الرائعة ، وأسلوبه الذي نسمع فيه قعقعة السلاح وحمحمة الخيل واشتباك الأسنة وقراع السيوف

صرّمت شمل المارقين بصارم   تبديه مسلوباً فيرجع سالبا
صافي الفرند حكى صباحاً جامداً   أبدى التجيع به شعاعاً ذائبا

وكثيراً ما يخرج إلى مواضيع أخرى تتصل بالحماسة ، من قريب أو بعيد ، فنراه تارة يفخر بنفسه أو بقومه ، وكيف لا يفخر الصفي وقد توفرت كل أسباب الفخر ومقوماته فيه وفي قومه ، من شجاعة وكرم وجرأة وإقدام ، وشرف وأصل عريق ؟ إستمع إليه يفخر بنفسه قائلاً :

فأصبحت أفني ما ملكت لأقتني ... به الشكر كسباً وهو أسنى المكاسب
وأرهن قولي عن فعالي كأنه ... عصا (الحارث الدعمي) أو قوس حاجب
ومن يكُ مثلي كامل النفس يقتدي ... قليلاً معاديه كثير المصاحب
وإني ليدمي قائم السيف راحتي ... إذا دميت منهم خدود الكواعب

ويقول :

قليل إلى غير اكتساب العلى نهضي ... ومستبعد في غير ذيل التقى ركضي
فكيف ولي عزم إذا ما امتطيته ... تيقنت أن الأرض أجمع في قبضي
على أن لي عزماً إذا رمت مطلباً ... رأيت السما أدنى إليّ من الأرض

ويفخر بقومه فيقول :

وأكسبني قومي وأعيان معشري ... حفاظ المعالي وابتذال الرغائب
سراة يقرُّ الحاسدون بفضلهم ... كرام السجايا والعلى والمناصب
إذا جلسوا كانوا صدور مجالس ... وإن ركبوا كانوا صدور مواكب
أسود تعالت بالقنا عن عرينها ... وبالبيض عن أنيابها والمخالب

ونجري الحكمة أحياناً على لسانه في أمور الحياة وأحوال الناس :

وما كل وانٍ في الطلاب بمخطىءٍ ... ولا كل ماضٍ في الأمور بصائب

وربما انتقل إلى هجاء الأعداء والتعريض بهم ، فوصفهم بالغدر والخيانة والمكر والخداع :

كم من عدو لنا أمسى بسطوته ... يبدي الخضوع لنا ختلاً وتسكينا
كالصلّ يظهر ليناً عند ملمسه ... حتى يصادف في الأعضاء تسكينا
يطوي لنا الغدر في نصح يشير به ... ويمزج السم في شهدٍ ويسقينا

أو يقول :

صبراً على كيد العداة لعلنا ... نسقي أخيرهم بكأس الأول
يا عصبة فرحوا بمصرع ليثنا ... ماذا أمنتم من وثوب الأشبل

* * *

والصفي في حماسته - وفي غيرها من فنون شعره - متأثر بالمتنبي إلى حدٍ بعيد ، فقد رأيناه يعارض قصائده ويضمّن أبياته ، ويقتبس معانيه ويستعين بصوره ويتشبه به في كثير من الأمور ولا عجب أن يفعل الصفي ذلك فان المصادفات جعلت هناك تشابهاً كبيراً بين الصفي والمتنبي في الحيـــاة والتربية والنشأة والظروف .

فقد ولد هذان الشاعران في العراق في بلدين شيعيين ، في كل منهما نهضة أدبية علمية ، وترك كل من الشاعرين العراق في شبابه ، وعاش كل منهما في كنف دولة إسلامية قوية ، المتنبي عند الحمـــدانيين والصفي عند الأرتقيين وجال كل منهما البلاد العربية ووصل إلى مصر ، فقد وفد المتنبي على كافور ومدحه ، ووفد الصفي على الملك الناصر ومدحه أيضاً ، وعاد كلاهما فيما بعد إلى العراق نجد هنا إذاً تشابهاً في الظروف والأدوار التي مرت بها حيـاة كل من هذين الشاعرين ، ولا بد أن تفعل فعلها في التشابه بينهما من حيث روح الشعر وموضوعاته ومميزاته ، فلا عجب إن رأينا الصفي يرى أن خـــير أستاذ له من الشعراء المتقدمين هو أبو الطيب المتنبي فتأثر التلميذ بأستاذه ، وخاصة في أبرز ما عند المتنبي والصفي من فنون الشعر وهو فن الحماسة .

ولا يخفى أن كلاً منهما كان يشترك في الحروب ويدخل المعارك ، فيصف القتال وصفاً واقعياً حياً ، يعتمد على شيء محسوس ملموس قد انتزع صور هذا الوصف كلها من التجربة العملية ، والواقع الأكيد ، فيبعُد هذا الشعر عن الأوصاف الخيالية والادعاء الذي كان عند كثير من الشعراء لذلك كان شعرهما ما يكاد تلتقطه الأسماع حتى تهتز القلوب وتندفع النفوس متحمسة إلى القتال متعطشة إلى الطعان والضراب ، فهو يسري فيها سريان السحر . وقد رأينا الصفي يقتبس الـكثير من أبيات المتنبي ويضمنها شعره :

فاذا ما افتخرت بالود قالوا (لا افتخار إلا لمن لا يضام)

فالشطرة الثانية من هذا البيت للمتنبي في قوله يمدح (علي بن أحمد الخراساني) :

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدرك أو محارب لا ينام[1]

وقوله :

إذا أرسل البيض الصفاح لغارة   تتابع طوراً أمره وتخاصم
(يحاجي به ما ناطق وهو ساكت   يرى ساكتاً والسيف من فيه ناطق[2])

فالبيت الثاني من قصيدة يمدح بها المتنبي (الحسن بن اسحق التنوخي)

ويقول الصفي وقد أشار إلى تضمين شعر المتنبي :

وانظر لقول (ابن الحسين) وقد رأى   حالا يشق على الأبيّ ويعظم
« لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم »[3]

وقد اقتبس الصفي الكثير من معاني المتنبي فقد اقتبس قول أبي الطيب في سيف الدولة

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرُّ بك الأبطال كلمى هزيمةً   ووجهك وضاح وثغرك باسم[4]

فقال الصفي

وقفت لها والمرهفات ضواحك   وجوه الردى ما بينهن كوالح
ووجهك وضاح وعضبك ناضح   وزندك قداح وعزمك قادح

ولكننا نجد بعض فروق بين حماسة الصفي وحماسة المتنبي

فالصفي في حماسته مسلم ، يتحدث عن عاطفة إسلامية وفكر مسلم ، يمدح حماة الاسلام الذين يدافعون عن الدين الحنيف ، ويعلون كلمته ، بينما المتنبي عربي يتعصب لعروبته نجد في شعره فتوة عربية اجتماعية . تشيع في وصفه حية قوية مضطربة وكأنها الكهرباء[5] » وذلك لأن المتنبي عاش في ظل دولة

---

(١) ديوان المتنبي ج ٤ ص ٩٣

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٣٤٧

(٣) نفس المرجع ج ٤ ص ١٢٣

(٤) نفس المرجع ج ٣ ص ٣٨٧ .

(٥) مع المتنبي - الدكتور طه حسين ج ٢ ص ٣٢٠ .

عربية ، هي دولة الحمدانيين ، وفي بلاط ملك عربي هو (سيف الدولة) ، في حين أن الصفي عاش في ظل دولة تركية إسلامية هي دولة الأرتقيين ، وفي بلاط ملك تركي هو (المنصور نجم الدين غازي) . فلا يستطيع الصفي أن يظهر تعصبه للعروبة وفخره بالعرب وهو يعيش في كنف ملك غير عربي

وكان الصفي يفخر بنفسه إلى جانب فخره بقومه وأهله ، بل نجد فخره بأهله وقومه يسبق فخره بنفسه ، ويغلب عليه يقول

وأكسبني قومي وأعيان معشري حفاظ المعالي وابتذال الرغائب

بينما المتنبي لا يفخر إلا بنفسه ، ويتعالى على قومه وأهله

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخـرت لا بجدودي
أنا ترب النـدى ورب القوافي وسمام العدى وحتف الحسود[1]

ولو أن جيوش الأرتقيين كانت تشتبك بحروب مع جيوش الروم ، في زمن الصفي ، كتلك الحروب الطاحنة التي كانت تدور رحاها بين جيوش الروم وجيوش سيف الدولة ، في زمن المتنبي ، لرأينا عنـد الصفي ، تلك القصائد الطوال العظيمة التي وصف بها المتنبي تلك الحروب وما يتبعها من نصر وغنيمة وفخار .

٢ - المديح :

ومدائح الصفي كثيرة ، وهي مع كثرتها تمتاز بالجودة والاتقان ، لأنه لم يوزع مدائحه على هذا وذاك ، ولم يمدح كل من يرى ، وإنما مدح الذين أحس أنه يجب أن يمدحهم ، وشعر نحوهم بعاطفة قوية تحتم عليه مدحهم ولو لم يمدحهم لما استراح ، لأن تلك المعاني ستظل تضطرب في نفسه وتختلج في أعماق روحه . فهو لم يمدح إلا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) والسلاطين

(١) ديوان المتنبي ج ١ ص ٣٢٣ .

الثلاثة الذين أكرموه وكانوا عنده بمنزلة لا تعدلها منزلة ، وهم : الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازي بن أرتق ، وابنه الملك الصالح شمس الدين أبو المكارم صالح ، والملك الناصر محمد بن قلاوون

ولذلك يجب أن نقسم مدائح الصفي إلى قسمين الأول المدائح النبوية ، والثاني مدائح السلاطين الثلاثة ويجب أن نتناول بالدرس كل قسم من هذين القسمين منفرداً ، لأن لكل قسم ميزات وخصائص وصفات تجعله يختلف بها عن الآخر

أ — المدائح النبوية

هذا فن شعري وجد بعد وجود التصوف ، لأنه يعتبر وسيلة للتعبير عن عاطفة دينية ، يصدر عن القلوب العامرة بالايمان ، الطافحة بالاخلاص للدين ، والحب للرسول الكريم

وأول من مدح الرسول (ص) هو (الأعشى) في قصيدته التي مطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا

ولكن مدحه هذا ليس صادقاً نوجه الله والحق ، وإنما كان من أجل العطاء ، فحين أغرته قريش لم يعد إلى مدح النبي (ص) . ثم كانت حادثة (كعب بن زهير) وإهدار النبي دمه ، فمدحه بقصيدته المشهورة

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وقد كان نصيب هذه القصيدة من الاعجاب والتقدير والاهتمام ، عظيماً من الدارسين والشارحين والمشطرين والمخمسين والمعارضين . . . وممن عارضها (جمال الدين محمد بن نباتة المصري) بقوله

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل

وشعر (حسان بن ثابت) — شاعر النبي — في مدحه كثير ، ويمتاز بالصدق

العظيم ، والاخلاص العميق ، إلا أنه كان مدحاً على طريقة شعراء الجاهلية .
ومن أعظم قصائده عينيته التي مطلعها

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

وهمزيته التي يقول فيها

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها (كداء)

ثم جاء كثير من الشعراء قالوا في مدح النبي وآل النبي ؛ (كالفرزدق) في مدح الامام (علي بن الحسين) و (الكميت بن زيد) وهاشمياته مشهورة ، و (دعبل الخزاعي) وقصائده عديدة ، ثم (الشريف الرضي) وتلميذه (مهيار الديلمي) وقد مدحا النبي في مراثيهما لشهيد كربلاء (الحسين بن علي) إلا أن هذا كله لا يعتبر من الفن الأصيل في المدائح النبوية أما الذي يعتبر مدحاً نبوياً أصيلاً فهو مدائح البوصيري (محمد بن سعيد بن حماد) وأشهرها (البردة) التي مطلعها :

أمن تذكر جيران (بذي سلم) مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم؟

« وأغلب الظن أن البوصيري استأنس عند نظمها بميمية (ابن الفارض) التي مطلعها »[1]

هل نار ليلى بدت ليلاً (بذي سلم) أم بارق لاح في الزوراء فالعلم ؟

وبردة البوصيري هذه هي التي أرست قواعد المدائح النبوية ، فاهتم بها الناس جميعاً بله الدارسين والناشرين والشارحين... وقد شطرها وخمسها وعارضها كثيرون.

مدح الصفي الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وآله الميامين (رضي الله عنهم) بخمس قصائد طوال وثماني مقطوعات والقصائد عظيمة رائعة ، عبّر فيها عما يحس به من حب وولاء للرسول الأمين وآل بيته الأطهار وقد نظم واحدة من هذه القصائد عند قبر الرسول في المدينة وقد بدأها بالغزل . ومطلعها

(١) المدائح النبوية في الأدب العربي ص ١٥١ .

كفى البدر حسناً أن يقال نظيرها   فيزهى ولـكننا بذاك نضيرها

وهي طويلة   ونظم الثانية في ليلة مولد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد بدأها بالمديح رأساً ومطلعها

خمدت لفضل ولادك النيران   وانشق من فرح بك الايوان

ومدحه بثالثة بدأها بوصف الطبيعة قائلاً

فيروزج الصبح أم ياقوتة الفسق   بدت فهيجت الورقاء في الورق

وأما الرابعة فقد عارض بها (ابن المعتز العباسي) في قصيدته التي يهجو بها العلويين ومطلعها :

ألا من لعين وتسكابها   تشكّى الأذى وبكاها بها

فنظم الصفي قصيدة للرد عليه أولها قوله

ألا قل لشرّ عبيد الآله وداعي قريش وكذابها

ويظهر في هذه القصائد كلها إيمان الصفي وتمسكه بدينه الاسلامي الحنيف وحبه لنبيه الكريم حباً شديداً . يقول فيه

إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة   إلى خير معبود ، دعاها بشيرها

ومن أخمدت مع وضعه نار فارس   وزلزل منها عرشها وسريرها

ومن بشّر الله الأنام بأنه   مبشرها عن أمره ونذيرها

ويقول فيه أيضاً

محمد المصطفى الهادي الذي اعتصمت   به الورى فهداهم أوضح الطرق

ومن له أخذ الله العهود على   كل النبيين من بادٍ وملتحق

ومن رقى في الطباق السبع منزلة   ما كان قط اليها قبل ذاك رقي

ومن يقصر مدح المادحين له   عجزاً ويخرس رب المنطق الذلق

ويعدد مناقب الرسول الكثيرة فيقول

خمدت لفضل ولادك النيران   وانشق من فرح بك الايوان

وتزلزل النادي وأوجس خيفة   من هول رؤياه (أنو شروان)

فتأول الرؤيا (سطيح) وبشرّت بظهورك الرهبان والكُهّان
فوضعتَ لله المهيمن ساجداً واستبشرت بظهورك الأكوان
ورأت قصور الشام (آمنة) وقد وضعتك لا تخفى لها أركان

وهكذا يستمر في المناقب والمعجزات . ويختتم هذه القصيدة طالباً الشفاعة بها:

فاشفع لعبد شانَه عصيانه إن العبيد يشينها العصيان
فلك الشفاعة في محبكم إذا نُصب الصراط وعُلّق الميزان
فلقد تعرض للاجازة طالباً في أن يكون جزاءه الغفران

وهذا تصوير رائع لمناقب الرسول ، ولا أظن شاعراً تهيأ له أن يصور ما يحس به نحو نبيه الكريم على نحو ما صنع الصفي إلا نادراً وقد هيأ له كل هذا ايمان متين ، وتديُّن عميق وإسلام صحيح ، وحس مرهف وشعور فياض . . جعله يبدع في شعره كما لم يبدع شاعر فنان غيور على دينه وقد أوجد لنا صوراً رائعة حية في قصائد طوال تمتاز ، مع جمال أسلوبها وقوته وما صورته مما يعجز عن تصويره المؤرخون ، بالتعبير عن الانفعالات النفسية والأحاسيس الوجدانية ، التي يحس بها الملايين من البشر ممن يدينون بالدين الحنيف . فهو يرى أن الرسول محمداً هو سيد الرسل ، والمخلوق الأول ، والمفضل على جميع الأنبياء في كل شيء وخير خلُق :

يا خاتم الرسل بعثاً وهو أولها فضلا وفائزها بالسبق والسبق
جمعت كل نفيس من فضائلهم من كل مجتمع فيها ومفترق

ويتجلى في هذه القصائد وما يلحقها من مقطوعات تشيع الصفي لآل علي وحبه لآل البيت ، فهو يحفظ الأحاديث التي قالها الرسول في مدح علي وأولاده كقوله صلى الله عليه وسلم « أنا مدينة العلم وعلي بابها » فيقتبسه في قوله :

مدينة علم وابن عمك بابها ومن غير هذا الباب لم يؤتَ سورُها

أو يقول : إن الامام علياً هو الذي ورث العلم عن الرسول :

وعلى ابن عمك وارث العلم الذي ذلت لسطوة بأسه الشجعان

والصفي يمدح الرسول لكي يشفع له في يوم الحشر :

وبين يدي نجواي قدّمت مدحة قفى خاطري ألا يخيب خطيرها
تروم بها نفسي الجزاء فكن لها مجيزاً بأن تمسي وأنت مجيرها

أو يقول :

فاشفع لعبد شانه عصيانه إن العبيد يشينها العصيان

والصفي لا ينسى الصحابة الكرام ولا يغمط حق واحد منهم أو يجهل فضله فيذكرهم جميعاً بخير يقول :

وعلى صحابتك الذين تتبعوا طرق الهدى فهداهم الرحمان
وشروا بسعيهم الجنان وقد دروا إن النفوس لبيعها أثمان

ويقول كذلك :

وصحبك النجب الصيد الذين جروا إلى المناقب من تالٍ ومستبق
قوم متى أضمرت نفس امرئ طرفاً من بغضهم كان من بعد النعيم شقي

وهذه المدائح النبوية هي أصدق شعر أتى به الصفي ، لأنه نظمها لنفسه ، نظمها لتشفع له في يوم الدين ، نظمها لتنير له الظلام حين يدلهم الخطب ، فهو صادق فيها كل الصدق إذ لم ينظمها ليتزلف بها إلى أحد ، أو ليحصل على جاه أو شهرة بين الناس فهي تمثل أرفع مراتب شعره ، وأدقها تصويراً وأصدقها تعبيراً .

وقد اخترت إحدى هذه المدائح لأتناولها بالتحليل ، وهي رائيته التي قالها في المدينة المنورة ، ومطلعها

كفى البدر حسناً أن يقال نظيرها فيزهى ولكنا بذاك نضيرها

وهي قصيدة طويلة تبلغ تسعين بيتاً في البحر (الطويل)

لقد بدأ الصفي بالغزل ، كما اقتضى فن (المدائح النبوية) ، وقد بلغت

أبيات الغزل عشرين بيتاً ، وهو غزل جميل ، فيه رقة ولطف ، وفيه تأدب واحتشام ، فقد أوجب القدماء ذلك « .. الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ، ويتضاءل ويتشبب مطرباً بذكر (سلع) و (رامة) ... »[1]

استمع إلى الصفي يقول

أسيرة حجل مطلقات لحاظها ⁂ قضى حسنها ألا يفك أسيرها

تهيم بها العشاق خلف حجابها ⁂ فكيف إذا ما آن منها سفورها ؟!

وليس عجيباً إن غررت بنظرة ⁂ اليها فمن شأن البدور غرورها

فحبيبته محجبة محجلة لا تسفر ، لذا فهو متألم حزين ، يرسل قلبه الزفرات

وكم نظرة قادت إلى القلب حسرة ⁂ يقطع أنفاس الحياة زفيرها

والصفي في هذا الغزل يرجع إلى طبيعته ، فيضفي عليه حماسته المعهودة

فواعجباً كم تسلب الأسد في الوغى ⁂ وتسلبنا من أعين الحور حورها

فتور الظبى عند القراع يشينها ⁂ وما يرهف الأجفان إلا فتورها

تمانع عما في الكناس أسودها ⁂ وتحرس ما تحوي القصور صقورها

تغار من الطيف الملم حماتها ⁂ ويغضب من مر النسيم غيورها

إذا ما رأى في النوم طيفاً يزورها ⁂ توهمه في اليوم ضيفاً يزورها

وزرنا فأسد الحي تذكي لحاظها ⁂ ويسمع في غاب الرماح زئيرها

فالصفي قد أبدع في غزله العفيف الشريف هذا ، الملئ بروح الحماسة ، وقد صور لنا حمية العربي الذي يغار على عرضه فيحمي المرأة حتى من الأطياف ويحرسها حتى في دنيا الخيال

لكن الصفي المحب لا يهاب كل هذا ، ويعرض نفسه لتلك المخاطر ، إذ لا يستطيع إلا أن يزورها فهو يقول

---

(١) خزانة الأدب لأبن حجة الحموي ص ١٤

فيا ساعـــد الله المحب لأنه يرى غمرات الموت ثم يزورهـا

غير أن الواشين لا يدعونه ينعم إذ يكدرون عليه صفو هنائه

ولمـا ألمت للزيارة خلســـة وسجف الدياجي مسبلات ستورها
سعى بيننا الواشون ، حتى حجولها ونمت بنا الأعداء ، حتى عبيرها
وهمت بنا لولا غـــدائر شعرها خطى الصبح لكن قيدته ضفورها

أرأيت كيف يصف الصفي رنين حجلها ونفح عبيرها ، ويجعله من الذين يكشفون سر اللقاء ؟ إنه وصف بديع !

ومن هنا ينتقل الصفي إلى الشكوى من الزمان ولياليه

ليالي يعديني زماني على العدى وإن ملئت حقداً عليّ صدورها
ومذ قلب الدهر المجن أصابني صبوراً على حال قليل صبورها

إنه يفخر بنفسه ، بصبره واحتماله ، وسيبقى صابراً حتى النهاية :

فلو تحمـــل الأيام ما أنا حامل لما كاد يمحو صبغة الليل نورها
سأصبر إما أن تدور صروفها عـــليّ وإما تستقيم أمورها
وقد أرتدي ثوب الظلام بجسرة عليها من الشوس الحماة صبورها
كأني بأحشاء السباسب خاطر فما وجدت إلا وشخصي ضميرها

ومن هذا الفخر يفضي إلى وصف الصحراء ، وهو وصف قد أبدع فيه ! كيف لا وهو الذي قطع الفيافي والقفار وحيداً فريداً يوم رحل من بلده إلى (ماردين) بعد واقعة الزوراء ؟ نخبر الصحراء ورأى ما فيها ، وعرف محاسنها ومساوئها فلنستمع اليه وهو يبدع في رسم صور الصحراء كأبرع فنان

وصادية الأحشاء غضى بآلهـــا يعز على الشعرى العبور عبورها
ينوح بهـــا الخرّيت ندباً لنفسه إذا اختلفت حصباؤها وصخورها
إذا وطئتها الشمس سال لعابهـا وإن سلـكتها الريح طال هديرها
وإن قامت الحرباء توسد شعرها أصيلاً أذاب الطرف منها هجيرها
تجنب عنهـا للحذار جنوبهـا وتدبر منها في الهبوب دبورها

خـــبرت مرامي أرضها فقتلتها ... وما يقتل الأرضين إلا خبيرها

ولـكن . . ألا يصف (صفي الدين) مطيته التي قطع بها هذه الصحراء ؟ نعم لقد وصف الصفي ناقته ، وأجاد الوصف ، وقدم لنا كل ما نريد أن نعرفه عن هذه الناقة التي زاملته في سفرته وصحبته في تنقلاته ؛ صوتها الجميل ، وسيرها المتزن ، وآثار أقدامها التي تشبه حرف النون .. إلى آخر ما هنالك :

بخطوة مرقال أمون عثارها ... كثير على دفق الصواب عثورها

ألذ من الأنغام رجع بغامها ... وأطيب من سمع الهديل هديرها

حروفاً كنونات الصحائف أصبحت ... تخط على طرس الفيافي سطورها

إذا نظمت نظم القلائد في البرى ... تقلدها خصر الربى ونحورها

يعبر عن فرط الحنين أنينها ... ويعرب عما في الضمير ضمورها

ولا ينسى الصفي أن يذكر أسماء لأماكن متعددة في الجزيرة العربية مثل : (زرود) و (شميط) و (ربى قطن) و (رمل عاج) إلى غير ذلك ... والصفي معذور في ذكر هذه الأسماء ، فهو يريد أن يبين أنه يعرف هذه المواضع من الجزيرة ، ويشير إلى أنه يسير في الجزيرة العربية ، وإلى ذلك فهو يقصد الأرض التي لها صلة بممدوحه ، فعليها نشأ وترعرع ، وفيها دفن :

فلما تراءت عن (زرود) ورملها ... ولاحت لها أعلام (نجد) وقورها

وصدت يميناً عن (شميط) وجاوزت ... (ربى قطن) والشهب قد شف نورها

وعاج بها عن رمل (عاج) دليلها ... فقامت لعرفان المراد صدورها

غـدت تتقاضانا المسير لأنهـا ... إلى نحو خير المرسلين مسيرها

إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة ... إلى خير معبود ، دعاها بشيرها

ففي هذين البيتين يمهد للانتقال إلى المديح ، فالناقة تحث السير وتسرع الخطى كي تصل الرسول فما بالك براكبها ؟

ويبدأ وصف معجزات الرسول الـكريم فيذكر ما أصاب المشركين يوم ولادته وما وقع من آيات كخمود نار فارس ، وتبشير الله به وغير ذلك :

ومن أخمدت مع وضعه نار فارس ... وزلزل منها عرشها وسريرها
ومن نطقت توراة موسى بفضله ... وجاء به إنجيلها وزبورها
ومن بشر الله الأنام بأنه ... مبشرها عن إذنه ونذيرها

أيا آية الله التي مذ تبلجت ... على خلقه أخفى الضلالَ ظهورها

وقد عبر الصفي عن فرحته بزيارة قبر الرسول الكريم ، فسلم عليه ، وكرر السلام وأعاده ، واصفاً إياه بما يرى من صفات التقديس والتعظيم :

عليك سلام الله يا خير مرسل ... إلى أمة لولاه دام غرورها
عليك سلام الله يا خير شافع ... إذا النار ضم الكافرين حصيرها
عليك سلام الله يا من تشرفت ... به الأنس طراً واستتم سرورها
عليك سلام الله يا من تعبدت ... له الجن وانقادت اليه أمورها

ثم يندفع يبين أن أقدامه تشرفت في هذه الرحلة لأنه يقصد زيارة الأرض الحرام ، وأن فمه غدا يفاخر عينه بعد أن لثم تراب القبر

تشرفت الأقدام لما تتابعت ... إليك خطاها واستمر مرورها
وفاخرت الأفواه نور عيوننا ... بتربك لما قبلته ثغورها

ولا يكتفي بهذا كله ، لذا يقول

فضائل رامتها النفوس فقصرت ... ألم تر للتقصير جزت شعورها
ولو وفت الوفاد قدرك حقه ... لكان على الأحداق منها مسيرها

ثم يمدح آل بيت النبي ، ويضمن شعره حديثاً شريفاً هو : « أنا مدينة العلم وعلي بابها »

مدينة علم وابن عمك بابها ... فمن غير ذاك الباب لم يؤت سورها
فآلك خير الآل والعترة التي ... محبتها نعمى قليل شكورها
إذا جولست للبذل ذل نضارها ... وإن سوجلت في الفضل عز نظيرها

والصفي لا ينسى الصحابة ، فهو يحبهم ويقدرهم جميعاً ، فيقول فيهم :

وصحبك خير الصحب والغرر التي … بها أمنت من كل أرض ثغورها

كماة حماة في القراع وفي القرى … إذا شط قاريها وطاش وقورها

ولا ينسى الصفي أن يشكو إلى النبي حال المسلمين والظروف القاسية التي يمرون بها ، وجثوم المغول على قلب العالم الاسلامي كله ، واقترافهم لأبشع الجرائم ، وارتكابهم القتل والحرق والتدمير . ولكنه يتفاءل بأن العالم العربي سيتخلص من هذا بتآزر العرب ، ومساعدة النبي الكريم :

إليك رسول الله أشكو جرائماً … يوازي الجبال الراسيات صغيرها

كبائر لو تبلى الجبال بحملها … لدكت ونادى بالثبور ثبيرها

وغالب ظني ، بل يقيني ، انها … ستمحى وإن جلت وأنت سفيرها

ويعود الصفي فيذكر أن قصيدته هذه مناجاة للنبي (ص) ، وما قالها إلا لينال الجزاء :

وبين يدي نجواي قدمت مدحة … قضى خاطري ألا يخيب خطيرها

تروم بها نفسي الجزاء فكن لها … مجيزاً بأن تمسي وأنت مجيرها

ثم يذكر (كعب بن زهير) ومدحه للنبي ، وكيف أن النبي أعطاه بردته بعد أن فرغ من انشاد قصيدته ، وقد ظلت هذه البردة الشريفة حتى اشتراها (معاوية) من أولاد كعب بغالي الثمن :

فلابن زهير قد أجزت ببردة … عليك فأثرى من ذويه فقيرها

وبعد أن يفخر بشعره يعتذر للنبي عما في قصيدته هذه من نقص لأن الشعر لا يمكن أن يحيط بصفات النبي العظيم :

وإن زانها تطويلها واطرادها … فقد شانها تقصيرها وقصورها

إذا ما القوافي لم تحط بصفاتكم … فسيان منها جمّها ويسيرها

ويختتمها بقوله

بمدحك تمت حجتي وهي حجتي … على عصبة يطغى عليّ فجورها

أقصُّ بشعري اثر فضلك واضعاً … علاك إذا ما الناس قُصت شعورها

وأسهر في نظم القوافي ولم أقل … خليليّ هل من رقدة أستعيرها ؟

ب — مدح السلاطين

لم يكن الصفي يريد أن يضمّن ديوانه مدح أحد من الناس أياً كان ، فعاهد نفسه « ألا يمدح كريماً وإن جل » ولهذا قال :

وأعرضت عن مدح الأنام ترفعاً سوى معشري إذ كان مجدي منهمُ

وقلت كقول ابن الحسين مورياً : « إذا كان مدح فالنسيب المقدم »

فهو يمدح أهله وقبيلته ، وذلك هو شعر الفخر ولم يقصد إلا إلى مدح الرسول الأمين وظل كذلك باراً بيمينه وفياً بعهده حتى حدث ما أجبره على طرق باب المدح فحين ترك العراق والتجأ إلى حمى الملوك الأرتقيين في (ماردين) ، ولقي ما لقي من حفاوة وتكريم ورعاية وتعظيم ، وجد لزاماً عليه أن يردّ جيلهم بجميل مثله ، فلم ير أحسن من أن يقول فيهم الشعر الرائع والقصيد الجليــل ، فمدح (الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق) وابنه (الملك الصالح شمس الدين صالح) بل لقد كان يغالي أحياناً فيصرح بأنه وقف شعره على الملك المنصور فحسب ولن يمدح سواه أحداً . استمع إليه يختتم إحدى قصائده فيه :

ولقد وقفت عليك لفظي كله ممـا أحل به وما أنا عاقــد

فإذا نظمت فانني لك مــادح وإذا نثرت فانني لك حامــد

ويقول وقد أحس بابداعه في مدح المنصور :

فلقد وقفت على علاك بدائماً يعيي بأيسرها الفصيح المفلق

قالوا خلقت موفقاً لمديحه ، فأجبتهم إن السعيد موفق

وقد يغلو في ذلك فيقول للملك الصالح إنه لم يمدحه إلا لكونه ابناً للمنصور :

يا ابن الذي كفل الأنام كأنما أوصـاه آدم في كلاية ولده

المــالك المنصور والملك الذي حاز الفخار بجــده وبجده

أصل به طـابت مآثر مجدكم والغصن يظهر طيبه من ورده

وهو الذي شغل العدو بنفسه ... عني كما شغل الصديق بحمده
وأجارني إذ حاولت دمي العدى ... ورأت شفاء صدورها في ورده
ولذاك لم يرني بمنظر شـاعر ... تبغي قصـائده جوائز قصده
ودرى بأن نظـام شعري جوهر ... وسواه نحر لا يليق بعقـده
ولقد عهدت إلى عرائس فـكرتي ... أن لا تزف لمنعم من بعده
لـكنك الفرع الذي هو أصله ... شرفاً ومجدك بضعة من مجده
ونجيُّـه في سره ووصيُّـه ... في أمره وصفيُّـه من بعده

فمن أجل ذلك مدح (الصالح) بعد أبيه (المنصور) ، وقد آلى على نفسه « ألا يعزز مدحها بثالث » وربما ألا يضطر من جديد إلى الحنث في هذه الأليَّة فيمدح غيرها وظل على ذلك حتى جاء مصر سنة (٦٢٣ هـ) والتقى بالملك (الناصر محمد بن قلاوون) فأحسن مقابلته وأكرم وفادته واضطره إلى مدحه أيضاً فلنستمع إليه يبين ذلك إذ يقول : « . . . وأهلتُ للمثول في الحضرة الملـكية الناصرية . . . وشملني من الانعام ما فأجأني به ابتداءً ولم أملك له خـبراً ، ألزمتني المروءة بمكافأة تلك الحقوق ، ورأيت كفرانها كالعقوق ، وأن تـكفير تلك اليمين أولى من كفران أنعم المنعمين ، فنظمت في معاليه ما طاب لفظه ومعانيه . . . »[١] فهو يمدحه على أن يكون الثالث الذي لا رابع له ، وبر الصفي بهذه اليمين فعلاً ولم يمدح رابعاً فعلى الرغم من إكرام (الملك المؤيد اسماعيل) صاحب حماة له وتعظيمه إياه وجريان عطاياه وهداياه عليه ، لم يمدحه بقصيدة واحدة ، وإنما كان يقول شعراً يشكره فيه على إكرامه وعطاياه ، ويهنئه بالأعياد ويسميه شكراً وتهنئة ولا يسميه مدحاً .

وهكذا كان على الصفي أن يمدح وحقيقة المدح وصف الممدوح بأخلاق كريمة يحمد عليها والشعر العربي مليء بالمدح منذ القديم وكان قليل من الشعراء يمدح لرغبة في نفسه (كزهير بن أبي سلمى) حـين مدح المريين

(١) ديوان صفي الدين ص ٥

- هرم بن سنان ، والحارث بن عوف - ولكن أكثرهم يمدح للتكسب ، فكان معظم هذا المديح مفتعلاً لا عاطفة فيه يتصف بالمبالغات ويمتلىء بالكثير مما لا يعقل ، وتزايد الغلو على مر العصور حتى قال المتنبي لسيف الدولة :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى   إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

وصار الشعراء يكيلون الأوصاف لممدوحيهم دون حساب ، وأفضوا الى الكفر والخروج عن الحد واصفين ممدوحيهم بما ليس فيهم .

أما شعر الصفي فلم يكن كذلك ، لأن الصفي ما كان يقول غير ما يعتقد ، وما كان يعبّر إلا عما يحس به في قرارة نفسه ، فمديحه ليس كمديح أولئك الشعراء ، لأنه صادر عن طبع سليم ونية صادقة وشعور عميق ، ولأنه لم يمدح إلا ثلاثة كان المدح أقل مما يمكن أن يجازيهم به ، لما أولوه من فضل جزيل وخير عميم ، حتى أصبح يحس نحوهم إحساس الأخ الودود لأخيه الحميم . فما كان مدحه طلباً لكسب أو رغبة في جاه ، وهو ليس محتاجاً الى التكسب بشعره ويرى الشعر فناً سامياً يجب أن يصان ويرفع عن الانزلاق الى هذه الشبهات . وليس هو بحاجة الى الجاه وهو ابن الكرام الأشراف . . فهو يقول هذا المديح صادقاً دون ممالأة أو مراءاة ، ودون كذب أو نفاق ، يعبر عما يحس به أصدق تعبير نحو هؤلاء السلاطين الثلاثة... يقول للملك الصالح :

مدحي لمجدك عن وداد خالص   وسواي يضمر صابه في شهده
أنا لا أروم به الجزاء لأنه   بحر أنزه خلتي عن ورده
لا كالذي جعل القريض بضاعة   متوقعاً كسب الغنى من كدّه

ومدائح الصفي (تسع وعشرون قصيدة) و (ثلاث وعشرون مقطوعة) موزعة على هؤلاء السلاطين الثلاثة .

ولم يفارق الصفي الأسلوب القديم في المدح ، فهو يبدأ أكثر هذه القصائد بالغزل والنسيب أو يبدأها بذكر الخمر أو بوصف الطبيعة . وكل هذه القصائد تشهد للصفي ببراعة الاستهلال ، وروعة الفاتحة وأشراق الديباجة .

وهو بعد أن ينتهي من المقدمة يمهد للمديح فينتقل أحسن انتقال لا يشعر السامع بأي اضطراب فيه ، ولا يحس بأي نبوة أوجفاء كقوله في مدح الصالح :

كيف الضلال وصبح وجهك مشرق ... وشذاك في الاكوان مسك يعبق

حتى بدا فلق الصباح فراعه ... أن الصباح هو العدو الأزرق

ولقد رضيت من الصباح وإن غدا ... للعاشقين غراب بين ينعق

وغفرت ذنب الدهر حين بدت به ... من طلعة السلطان شمس تشرق

وهو يمدح هؤلاء السلاطين بالكرم فيأتي بصور جميلة ومعاني رائعة يقول في الملك الصالح :

ملكية فلكية يسمو بها ... كرم ترنح كنهه في ذاتها

سبقت مواهبه السؤال فما له ... عدة مؤجلة إلى ميقاتها

ولا يغيب عن باله أن يصف هؤلاء السلاطين الأبطال الأقوياء الذين حموا الاسلام ودافعوا عنه بقوة وشجاعة ، فهذا الملك المنصور يقول فيه :

كم قد أبدت من الأعداء من فئة ... تحت العجاج وكم فرقت من فرق

روّيت يوم لقاهم كل ذي ظمأٍ ... في الحرب حتى جلال الخيل بالعرق

ويوم وقعة عُبّاد الصليب وقد ... أركبتهم طبقاً في البيد عن طبق

مزقت بالموصل الحدباء شملهم ... في مأزق بوميض البيض ممتزق

وليست هذه الصفات فقط هي التي يصف بها صفي الدين ممدوحيه فهو يصفهم بالتقى والورع والتدين ومخافة الله ، ويقول إنهم هم الذين حموا الدين وردوا أعداء المسلمين كقوله للملك الناصر

يا ملكاً فاق الملوك ورعاً ... إن شام أهل الملك طيش ورعن

ويقول له أيضاً :

قد عزّ دين محمد بسميّه ... وسما بنصرته على الأديان

ويقول الملك المنصور :

فاستبشرت فئة الاسلام إذ لمعت   لهم بوارق ذاك العارض الغدق
وأصبح العدل مرفوعاً على نشز   لما وليت وبات الجور في نفق

وقد يغالي في مديحه ، ويبالغ فيما يسبغ من صفات على ممدوحيه فيخرج عن حده مقلداً بذلك المتنبي ومدرسته يقول :

لُقِّبَ بربوع الملك المنصور   محيي الأنام قبل نفخ الصور
باني العلى قبل بنا القصور   قاتل كل أسد هصور
ملّكه الله زمام النصر

ويختم الصفي قصائده هذه في الغالب مفتخراً بشعره معتزاً به ، فيشبه القصائد بالحسان الأبكار يقول :

فاستجلِ بكر قريض لا صداق لها   سوى القبول وود غير مكفور
على (أبي الطيب الكوفي) مفخرها   إذ لم أصغ مسكها في مثل (كافور)
رقت لتعرب عن رقي لمجدكمُ   حباً وطالت لتمحو ذنب تقصيري

ويقول واصفاً شعره بالوشاح المطرز والسحر الحلال :

فقد جملت الأرض من مدحكم   خصراً وشعري جائل كالوشاح
خفضت بالنفس استعاراته   كما أعير الذل خفض الجناح
إذا تلاه الوفد قال الورى   هذا هو السحر الحلال المباح

وقد يختم قصائده بالتهنئة قال في آخر قصيدة مدح بها الملك الصالح

ليهنك ملك لا يزال مخيّماً   لديك وذكر في الأنام شريد
لئن بت محمود الخصال فلا أذىً   كذا من غدا في الناس وهو فريد
إذا نم نور البرق في أفق سعده   فما ضرّه أن السماك حسود

وقال له أيضاً في قصيدة أخرى

تهنَّ بعيد النحر وانحر به العدا   فجودك عيد للورى ليس يبرح
وضحّ بها لا زلت تنحر مثلهم   ومن دون مغناك العقاقير تذبح

فهو يهنئه بعيد النحر ويهنئه بسعادته في الحياة .

٣- الرثاء :

للصفي الكثير من المراثي الرائعة ، وهي (خمس وعشرون قصيدة) و(خمس مقطوعات) ، في رثاء السلاطين وأولادهم ، وفي رثاء أهله وأقاربه ، وفي رثاء أصدقائه وإخوانه وبعضها في تعزية أهل الفقيد ... والغريب أنه ليس للصفي من مراثي الحسين بن علي حتى ولا قصيدة واحدة ، بالرغم من تغلغل العقيدة الشيعية في نفسه ، وهذا الرثاء خير ما يعتز به الشيعة ويتميزون به .

قال الصفي شعر الرثاء منذ صباه ، فله مرثية جيدة منذ كان في الثالثة عشر من عمره يرثي بها قاضي الحلة (تاج الدين محمد بن وشاح الحلي) مطلعها

لو أفادتنا العـــزائم حالا لم نجـد حسن العزاء محـالا

ولم يخرج الصفي في مراثيه عن طريقة القدماء في شعر الرثاء ، فيبدأ قصيدته أما بالحكمة وأما بالتفجع على الميت وتصوير الحزن عليه ، قال يرثي خاله (صفي الدين بن محاسن) وقد بدأ بالتفجع والحزن

سفهـاً إذا شقت عليك جيوب إن لم تشق مرائر وقلوب

وتملقا سكب الدموع على الثرى إن لم يمازجها الدم المسكوب

ورثى أحد أبناء الملك المنصور فابتدأ رثاءه بالحزن والبكاء أيضاً قائلاً :

يبكى عليك الحسام والقلم وانفجع العلم فيك والعلـم

وأضحت الأرض فالعباد بهـا لاطمـة والبـلاد تلتطـم

ومن استهلالاته بالحكم قوله في رثاء القاضي (شهاب الدين محمود) كاتب السر بدمشق :

حبل المنى بحبال اليأس معقود والأمن من حادث الأيام مفقود

ورثاؤه السيد (النقيب مجدالدين أبا الفوارس)

صروف الليالي لا يدوم لها عهدُ وأيدي المنايا لا يطاق لهـا ردُّ

وليس من عادة شعراء العرب أن يبدأوا قصائد الرثاء بالنسيب أو ذكر الخمرة

أو ما شابه ذلك كما في المدح وغيره . . وقد شذ عن هذه القاعدة (دريد بن الصمة) إذ بدأ إحدى مراثيه بالنسيب ، ومطلعها :

أرثّ جديد الحبل من (أم معبد) ... بعافيـة وأخلفت كل موعـد ؟

وهناك أبيات تروى أحياناً في قصيدة (أعشى باهلة) في رثاء (الدعجاء) :

هاج الفؤاد على عرفانه الذكر ... وذكر خود على الأيام ما يذر

قد كنت أذكرها والدار جامعة ... والدهر فيه هلاك الناس والغير

ولـكنها مشكوك في أمرها ، فما اشتهر عند العرب في هذا سوى قصيدة (دريد) وإن كان (الـكميت) في كثير من الأحيان يلمح بالنسيب إذ يقول تركت كذا وشغلت عن كذا فيتغزل ويصف أحوال النساء قبل الرثاء[1] ولـكنه غير صريح . ولـكن الصفي أتى بمرثيتين خالف فيهما أساليب العرب في الرثاء ، فقد بدأ الأولى بالخمر ووصف مجلسها وهي القصيدة التي رثى بها (الملك المنصور) ، ولعله معذور في ذلك ، فحين علم بوفاته وكان في بغداد، أسرع إلى ماردين ومعه قصيدة عصماء في رثاء الملك الذي بدّل خوفه أمناً وجوعه شبعاً غير أنه ما كاد يصل ماردين حتى وجد مجلس العزاء قد انفض ، وأولاد الفقيد قد نصبوا مجلس الخمر واللهو والأنس والطرب ، فاضطر إلى مجاراتهم وحضور هذا المجلس ، فوصفه في شعره وذكر الخمر فأرضاهم ، وأرضى نفسه في التعبير عما يحس به من حزن نحو الراحل العظيم برثائه أيضاً . ومطلع هذه القصيدة

أدرها بأمر لا يغيرك الوهم ... وزف على الجلاّس ما خلّف الكرم

وأما الثانية فهي القصيدة التي رثى بها (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) صاحب حماة إذ سمّط - خمّس - نونية (ابن زيدون) المشهورة فقال :

كان الزمان بلقياكم يمنينا ... وحادث الدهر بالتفريق يثنينا

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٢٠

فعندما صدقت فيكم أمانينا (أضحى التنائي بديلاً من تدانينا)

(وناب عن طيب لقيانا تجافينا)

وجل مراثي صفي الدين ـ إن لم تكن كلها ـ جيدة يعبر بها عن شعور فياض وعاطفة صادقة وإحساس متدفق ، لأنه لم يرثِ غريباً ، لا يمكن أن يحس نحوه بشعور ما ، ولا يشعر لفراقه بحزن فالذين رثاهم أقاربه وأهله والسلاطين الذين يراهم مثل أهله ، وأصدقاؤه المقربون . لهذا نلمس في مراثيه إحساسه باللوعة والأسى لفراقهم ، وتصويره الحزن مخيماً على الجميع ، وهو يبكيهم بكاءً مراً فلنستمع اليه يبكي خاله :

لا جمدت أدمعي ولا خمدت نار أسىً في حشايَ تضطرم

وحين رثى ولده وأخاه قال :

بكيت دماً لو كان سكب الدما يغني وضاعفت حزني لو شفى كمداً حزني

وأعرضت عن طيب الهناء لأنني نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن

وها هو يعبر عن حزنه لفقد صديقه (الأمير محمد بن الحاج صالح) بماردين :

كلما شام برق مغناك قلبي أرسلت سحب أدمعي أمطارا

وإذا ما ذكرت ساعات أنسي بك أذكى التذكار في القلب نارا

فكأن التذكار حج بقلبي فهو بالحزن فيه يرمي الجمارا

فسأبكيك ما حييت بدمع لا تقال الجفون منه عثارا

وتمتاز مراثي الصفي بقلة إهتمامه بالصناعة ، على كثرتها في بقية أغراض شعره ، فلا نكاد نجد آثاراً لهذه الصناعة المختلفة التي تفنن فيها الصفي في شعره كله ، رأى أن الصناعة أبعد ما تكون عن الرثاء ولا يمكن أن تتفق مع الحزن ، فشعر الرثاء يجب أن يكون طبيعياً لا تكلف فيه ، عارياً من الزينة والتجميل

وهو غالباً ما يمدح الفقيد ويصفه بأحسن الصفات ، كالكرم والشجاعة .

فحين رثى السلطان الملك الناصر قال :

وما كان يدري من يتمم جوده ونكب لج البحر أنهما البحر
مفاتح أرزاق العباد بكفه فيمني بها يمن ويسري بها يسر

ويتحمس في مراثيه ، فحين يبكي السيد (غياث الدين عبدالكريم) يقول

كأن لم يقدها كالأجادل سرباً ويرفع قب الليل من نقع قبه
ولم يقرع الأسماع وقع خطابه ولم يطرق الهيجاء موقع خطبه
ولا كان يوم الدست صاحب صدره وللجيش يوم الحرب مركز قطبه
ولا كان ما بين الصوارم والقنا وفوق متون الخيل إدراك نحبه

وينتقل من رثاء الميت إلى تعزية أهله :

فلذ بالصبر في اللأي وأحسن عزاءك واغتنم حسن الثواب
فإنك من أناس ليس يخفى على آرائهم وجه الصواب

ويسلي أهل الفقيد بوجود خلف له ينوب عنه ويملأ فراغه قال في الملك الناصر :

وإن لنا من بعده من سليله مليكاً به عن فقده يحسن الصبر
فإن غاب ذاك البدر عن أفق ملكه فقد أشرقت من نجله أنجم زهر

أو يقول إن الموت لا مفر منه لأن القدر لا رادّ له :

لا تعجبن فما في الموت من عجب إذ ذاك حدٌّ به الانسان محدود
فالمستفاد من الأيام مرتجع والمستعاد من الأعمال مردود
وللمنية أظفار إذا نشبت رأيتَ كل عميد وهو معمود

وقد يختتم الصفي مراثيه بالنحيب على الفقيد والتفجع له والترحم عليه والدعاء له

سقى الله ترباً ضم جسمك وابلاً ينمّق روضاً برده فيفوّف
إذا أنكرت أيدي البلا عرصاته ينمُّ على أرجائه فيعرف

فهو يدعو لخاله (صفي الدين بن محاسن) أن يسقي ثرى قبره المطر الغزير ويقول داعياً لمملوكه :

فسقى عهدك العهاد فقد فز ت بزلفى الجنان فوزاً عظيما

وعليك السلام حياً وميتاً ورضيعاً ويافعاً وفطيما

ويبكي قاضي القضاة بماردين قائلاً :

سأبكيك بالأشعار حتى إذا وهت سلوك عقود النظم أنجدني النثر

أو يقول :

فسأبكيك ما حييت بدمع لا تقال الجفون منه عثارا
ليس جهدي من بعد فقدك إلا أرسل الدمع فيك والأشعارا

إلا أنه قد يفخر بشعر في نهاية القصيدة ، استمع اليه يقول في مرثيته للقاضي شهاب الدين محمود كاتب السر بدمشق المتوفى سنة ٧٢٥

فسوف ترثيك مني كل قافية بها لذكرك بين الناس تخليد
وأسمع الناس أوصافاً عرفت بها حتى كأنك في الأحياء معدود

وقد يضمن قصائد الرثاء هذه بعض تجاربه في الحياة على شكل حكمة ما أعذبها تسري على لسانه !.. استمع اليه يقول :

من خالط الناس كان الحزن غايته من أكثر النوم لا يستعذب الحلما

٤- الإخوانيات :

فن الاخوانيات قديم في الشعر والنثر ، وهناك من يسميه مناجاة الأصدقاء، وقد ازدهر هذا الفن في القرن الرابع للهجرة ، خاصة في النثر ، واهتم به الأدباء والكتاب ، فعقد له الثعالبي فصولاً خاصة في (يتيمة الدهر) وفي (سحر البلاغة) ، واختار نماذج مختلفة من أحسن ما قال الأدباء والشعراء فيه ويعتبر (أبو حيان التوحيدي) أفضل كتاب الاخوانيات ، فقد أبدع في كتابه (الصداقة والصديق) أيما ابداع . وللهمذاني كثير في هذا الفن ، وقد يصله بالعتاب و (لأبي نصر العتبي) رسائل إخوانية عديدة جيدة

وكذا (الميكالي) و (ابن العميد) ، فلابن العميد قصائد جميلة في هذا الفن كتب إلى (أبي الحسن العباسي) يقول :

أشكو إليك زماناً ظل يعركني عرك الأديم ومن يعدي على الزمن
وصاحباً كنت مغبوطاً بصحبته دهراً فغادرني فرداً بلا سكن
(١)

وقد كان الكثير من هؤلاء الكتاب يضمنون رسائلهم الاخوانية شعر الشعراء . وتزايد تضمينهم للشعر حتى اكتفوا أخيراً به وحده ، فصاروا ينظمون القصائد الاخوانية ، كابن العميد وغيره .

وعند صفي الدين كثير من هذه القصائد الاخوانية تبلغ (ثماني عشرة) قصيدة ، وأما المقطوعات فكثيرة جداً . هناك قصائد أرسلها وهو في الحلة إلى أصدقائه في مختلف البلاد ، وهناك قصائد أرسلها من (ماردين) إلى أهله وأقاربه وأصدقائه في الحلة وبغداد والقاهرة والشام ، وقد نظم القصائد الاخوانية في القاهرة ودمشق وحماة وحلب وغيرها وأرسلها إلى الملوك والأمراء والقضاة والعلماء والأدباء ، وكانت هذه القصائد في شتى المواضيع ، في الرد على قصائد وردته منهم ، وفي تقريظ الكتب التي يهدونها إليه ، وفي التهنئة بالحج والزواج ، وفي الشكر على الهدايا والهبات وفي التشوق والحنين ، وفي الاعتذار والعتاب إلى غير ذلك .

والصفي يتألق في هذا الشعر أيما تألق ، فشعره هذا عذب وأسلوبه متدفق ، فهو صادق تمام الصدق لأنه يكتبه إلى أصدقاء مخلصين ، يجمعه بهم الحب الصادق والود الأكيد ، وليس هناك أي داعٍ للتصنع أو التكلف ، وليس هناك أي دافع للرياء والتظاهر بما لا يحسه نحوهم فكل ما يقوله لهم - أو أكثره - حقيقي . لذا وجدناه صريحاً فيما يقول ، وقد تصل به الصراحة

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ ص ١٧

إلى مداعبة لا يمكن أن يقولها إلا إلى أخلص صديق ممن رفعت عنه الكلفة ، كما قال لصديقه سيف الدين أبي بكر السلامي الحلي :

لا أجازيك بالاهانة والسب   ولكن جزاك يا نجس عندي

ففي هذا البيت وفي غيره يستعمل أقسى العبارات في سب أصدقائه مما يبين لنا الصلة القوية التي تربط بينه وبينهم ، والصراحة التامة التي تتجلى في هذا الشعر.

ونرى الصفي يحن كثيراً إلى وطنه في هذه الرسائل الشعرية التي كتبها إلى أصدقائه وأقاربه وهو بعيد عن العراق ، فهاهو يقول للشيخ (مهذب الدين الحلي) وأرسلها اليه من ماردين

أحبايَ بالفيحاء إن طال بعدكم   فأنتم إلى قلبي كسحريَ من نحري
وإن يخلُ من تكرار ذكري حديثكم   فلم يخلُ يوماً من مديحكمُ شعري
فيا أيها الشيخ الذي عقد حبه   تنزّل مني منزل الروح من صدري
تجاذبني الأشواق نحو دياركم   وأحذر من كيد العدو الذي يدري

أو يقول :

يا قاطع البيد يطويها على نجب   لم تبق فيها الفيافي غير أشخاص
إذا وردت بها شاطي الفرات وقد   نكبت من ماء (حوران) و(قيّاص)
وجزت بالحلة الفيحاء ملتمساً   آرام سرب حمتها أسد عيّاص
فقف بسعديها المشكور مُنشئه   (سعد بن مزيد) لا (سعد بن وقاص)
واقرَ السلام على من حلّ ساحته   وصف ثنائي وأشواقي وإخلاصي
واخبر بأني وإن أصبحت مبتسماً   مجداً ، وأغليَ قدري بعد إرخاص
صابٍ الى نحوكم صب بحبكم   محافظ الود للداني وللقاصي

وحين يذكر وطنه - الحلة - لا يغيب عن باله أن يذكر لنا أنها كانت في يوم من الأيام وطن الحضارة العريقة الضاربة في القدم ، فلا يدعوها إلا باسم (بابل) المحبب الجميل يقول :

سقى روضة السعدي من (أرض بابل) سحاب ضحوك البرق منتحب القطر

ويقول :

وترى السحب قد نشأنَ ثقالاً سحبت في ربوع (بابل) ذيلا

والصفي يبين حاله وبعض مظاهر حياته في هـــذه القصائد ، على نحو ما ترى في قوله :

ولـكن لي في (ماردين) معاشراً شددتُ بهم لما حللت بها أزري
ملوك إذا ألقى الزمان حباله جعلتهم في كل نائبـــة ذخري
وما أحدثت أيدي الزمان إساءة ووافيتهم إلا انتقمت من الدهر

أو قوله :

وإذا ما غرقت في لجج الهم ففي (ماردين) ملقى المراس
بلدة ما أتيتهـا قـــط إلا خلتهـا بلدتي ومسقط راسي
بذلوا لي مع السماحـــة وداً هو منهم يزيد في إينـاسي

والصفي يخلص أي اخلاص لهؤلاء الأصدقاء الذين يرسل اليهم هذا القصيد ويحافظ على العهد ، يبين ذلك قوله :

زاد قدري بحبـه إذ رأى النـا س التزامي بحبه وامتساكي
مذهب ما ذهبت عنه وديـن ما تعرضت فيـه للاشـــراك
إن تغب عن سوى عيوني فقلبي شاكر عن علاك والطرف شاكي

ولهذا نراه دائماً يطلب الاجابة عن قصائده والرد عليها ، استمع اليه يقول (لابن نباتة المصري) في قصيدته التي أرسلها اليه من دمشق :

لك من وافر العلوم نصاب فاجعل الرد للجواب زكاته

وكثيراً ما نراه يظهر الخضوع لهؤلاء الأصدقاء فيخاطبهم بألفاظ غاية في المجاملة والخضوع كسيدي ومولاي وغيرها ... ويقول انه عبد لهم ؛ من مثل قوله :

سيدي صاحبي أنيسي جليسي   طوق جيدي مُعاشري تاج راسي

وقوله :

سيدي بل سمعت عنك كلاماً   هو في مهجتي شبيه الكلوم

وقوله :

كل يوم أقول : قد قال مولاي   وما قلتُ ساعـة : قال عبدي

وقوله :

وردت عبدك المقصر أبيـات   فأغنته عن كؤوس السلاف

ونجد عند الصفي ، في قصائده هذه ، الكثير من الفخر بشعره ، استمع اليه يقول :

أسوق الى البحر الخضم جواهري   وأهدي الى أبناء بابل من سحري

أو يقول :

ولقد هززت اليك دوح قريحتي   مـدحاً فأينع دوحهـا المهزوز

صغت القريض ولم أقله تكلفاً   لكنه طبع لديّ عزيز

أجلو عليك من القريض عرائساً   من خدر أبكاري لهن بروز

أبكار أفـكار تزفّ كواعباً   لا كالقريض تزف وهي عجوز

ويصف الطبيعة في هذه القصائد ، متأثراً بما يحيط به من مناظر جميلة ، أو متذكراً مناظر وطنه الخلابة فيصفها وصفاً رائعاً :

كأن به (الجودان) بالسحب شامت   فما انتحبت إلا انثنى باسم الثغر

تعانقت الأغصان فيه فأسبلت   على الروض أستاراً من الورق الخضر

إذا ما حبال الشمس منها تخلصت   الى روضة ألقت شباكاً من التبر

وهكذا نجد الصفي قد أبدع في هذه القصائد الاخوانية لأن إخوانه كثيرون تربطه بهم وشائج متينة ، وصلات أخوية صادقة ، فكانت هذه القصائد صادقة العاطفة جميلة المعنى جيدة السبك متدفقة الأسلوب .

٥ - الغزل :

في ديوان الصفي غزل بالمرأة وغزل بالغلمان ، على عادة عصره ، وغزله الأول يندمج فيه (تسع وعشرون قصيدة) و (اثنتان وتسعون مقطوعة) فيما عدا فواتح القصائد وهذا ، لا ريب ، شعر غزير ، وهو شعر رقيق عذب يمتاز بحلاوة الألفاظ وعذوبة الجرس وسهولة المعاني ووضوحها فهل هذا الغزل غزل صناعي أو هو غزل عاطفي يعبر عن حب حقيقي صحيح ، أي : هل أحب الصفي حقاً فكان يتغزل معبراً عما في نفسه من الوجد والجوى ، أو أنه كان يقول الغزل تقليداً لغيره من الشعراء لكي لا يخلو ديوانه من هذا الفن الشعري الجميل ؟

في الحقيقة إنه ليس لدينا من المعلومات والأخبار ما يبين ذلك بله ما يؤكده ولكن مما لا ريب فيه أن الصفي قد أحس يوماً ما بعاطفة الحب ، والشاعر العربي يقول

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى   فأنت وعير في الفلاة سواء

والصفي شاعر فنان رقيق العاطفة مرهف الحس ، يتأثر بالجمال ويعشق الحسن ، ذو قلب كبير . والله ما خلق للانسان قلباً وفي الطبيعة جمالاً إلا ليحب الانسان الجمال ، والله جميل يحب الجمال . ولو استعرضنا آراء الصفي في الحب لرأيناه يقدره ويقدسه

يا رب أعطِ العاشقين بصبرهم   في الخلد غايات النعيم المطلق
وأذقهم برد السرور فطالما   صبروا على حر الغرام المقلق
حتى يرى الجبناء عن حمل الهوى   غايات عزمهم التي لم تلحق
فيكون أصغر جاهل حمل الهوى   يلهو بأكبر عالم لم يعشق

فالصفي في هذه الأبيات يرينا أن العاشق - عنده - أفضل ممن لم يعشق وأن أكبر عالم لم يدخل الحب قلبه لا يستحق أن يقارن بأصغر جاهل عرف الهوى

طريقه إلى قلبه وهو يصرح بأنه أحب فعلاً وأنه ليس كغيره من المحبين ، يقول :

يظنون أن الحسن بالعين مدرك ••• وسرُّ الهوى بادٍ لـكل لموح
وليس طموح الناظرين بمبصر ••• إذا كان لحظ القلب غير طموح
فليس (جميل) في الهوى و (كثير) ••• ولا (عروة العذري) و(ابن ذريح)
بأعرف مني في الملاح توسماً ••• ولا جنحوا في العشق بعض جنوحي

والصفي يقول إنه يشرّع في العشق وما شيد أحد في الحب مثل ما شيد هو :

بذلتُ روحي إلا أنها ثمن ••• للوصل منكم ولـكن حسب مجهودي
أنا المحب الذي أهل الهوى نقلوا ••• عني فأعطيتهم بالعشق تقليدي
من أين للعشق مثلي في تشرعه ••• ومن يشيّد دين الحب تشييدي

فهذه عاطفة محب حقاً ، فـكل عاشق يخيل إليه أنه ما عشق أحد مثله من قبل ومن بعد ، وأنه هو رب العشق والهوى ، وأنه سلطان الحب والغرام . فالصفي إذاً قد أحب وعرف قلبه العشق وذاق حلاوته ومرارته .

ولـكن أي نوع من أنواع الحب كان في قلب الصفي ؟

لا ريب أنه لم يكن من الحب الماجن ، فهو رجل فاضل وليس في شعره الغزلي ما يدل على هذا المجون ولـكن . . أكان حبه من نوع حب (ابن أبي ربيعة) وأضرابه ممن كانوا يحبون الجمال أينما وجد ويعشقون كل حسناء ، دون أن يكتفوا بواحدة يخلصون لها الهوى ؟ أو إنه كان من نوع حب (جميل بثينة) الذي يحب واحدة فحسب لا يميل إلى سواها ، يحبها حباً صادقاً عفيفاً لا تشوبه شائبة ، ولا يعمر قلبه إلا بالوفاء والاخلاص لها ، يذكرها كل حين ويرى أن كل جمال في الدنيا ينبع من جمالها .

هذا ما لا نعرفه ولا نستطيع أن نستبينه من شعر الصفي ، فقد تعمد الصفي أن يموّه علينا ذلك . فهو تارة يذكر أنه يحب الحسن أينما وجد فيقول :

عابوا ابتهاجي بالغرام وإنني ••• ما عشت من سكر المحبة مائد

قالوا : أتعشق كل رب ملاحة وأجبتهم إن المحرك واحد
فالحسن حيث وجدته في حيز هو لي بأرسان الصبابة قائد

وتارة يقول إنه يحب واحدة فحسب ، وإنها في الحلة وفي حي الجامعين بالذات :

نعم الهوى لما تذكر إلفه بالجامعين وحبله لم يجذذِ
ذابت لكم يا أهل بابل مهجتي فتنصبت بالعيش بعد تلذذ

وتارة يحدثنا أنهما حبيبان ، في ماردين وفي الجامعين يقول

لئن سكنت إلى(الزوراء) نفسي فإن القلب بين محركين
هوى يقتادني (بديار بكر) وآخر نحو أرض (الجامعين)

ومن حق الصفي أن يفعل ذلك حتى لو كانت حبيبته واحدة ؟ فربما كانت من بنات الأسر الكريمة في الحلة ، فكان يخاف على سمعتها ويحاذر أن يخدش شرفها حين يصرح باسمها فيعرف الناس من هي ، وقد أحبها منذ الصبا ، فهو يقول متذكراً عهود الصبا :

مغاني الحمى جادت سحائب أدمعي عليك إذا جفت عيون الغمائم
ملاعب لهوٍ كم قضيتُ بربعها لبانات أيام الصبا المتقادم
من الجانب الغربي من أرض بابل معاهد أنس مشرقات المباسم

فيتذكر أيام الصبا حيث كانوا يلعبون معاً ، صبية من بنين وبنات ، فكانت أياماً سعيدة هانئة ، وحين كبروا تحتم عليه ألا يبوح باسمها لئلا يؤذيها فصار يموه الاسم فيقول :

ولقد أموّه بالمغاني والمها خوف العدا وأضن عن ذكراك
إذ لم يكن لك في التغزل بالمها لقب ولا أسماء من أسماك

لكنه يقول أيضاً ما يؤكد أنها واحدة :

وحق من لا سواهم عنديَ القسم ومن بغير هواهم ليس لي قسمُ
ومن أموّه بالذكرى بغيرهمُ معرضاً بسواهم والمراد همُ

وذلك لأنه مخلص أمين يحفظ العهد ويصون الود :

وإني مع صدودك والتجني   وفيٌّ ليس لي منك انتقال
وأوثر أن ينال دمي ووفري   ومحبوبي عزيز لا ينـــال
لأني لا أخون عهود خلٍّ   ولو حفّت بي النوب الثقال

ومع كل هذا فقد يكون الصفي أحب غيرها - فيما بعد - فالغواني في مجالس اللهو التي كان يرتادها كثيرات وقد يكون بعض غزله غزلاً صناعياً ليس فيه عاطفة صادقة وإنما يقوله لتقليد غيره من الشعراء .

وهو على كل حال ، لم يبعد عن أساليب الغزلين المتقدمين فكان غزله قصائد ومقطوعات يصف بها عاطفته وحبه ، وشعوره وإحساسه ، ويصور الحبيب وبعض لياليه في أيام الصبا يوم ضحك له الزمان ، ويعبر عن لوعة الفراق وألم البعد ونار الجوى ، ويتحدث عما يتمنى وتتمنى معه نفسه من لقاء الحبيب ، وكان يصف ذلك في اليقظة والحلم والغزل عنده يميل إلى الأوصاف المادية ، فهو يجسم جمال المحبوب ، فيصف القامة والخصر والردف والصدر ، ويصف الشعر والخد والوجه والعينين ، فقوامه كالرمح أو كالغصن :

مليح يغير الغصن عند اهتزازه

ووجهه مشرق كالبدر يضيء بنور لألاء

حتى إذا تم معنى حسنه وبدا   كالبدر في التم أو كالشمس في الشرف

وخصره الدقيق ينوء بردفه الثقيل

بخصر مثل عاشقها نحيـــل   وطرف مثل موعدها سقيم

وفي خده نار تلظى كأنها نار الكليم

ظبي من الأتراك فوق خدوده   نـــار يخرّ لها الكليم ويصعق

وثغره كأس مليء باللؤلؤ والدر

بكأس حكاها ثغره في ابتسامه   بما ضمه من ورده وعقيقه

وعينه ترشق قلب المحب بالنبل :

ها قد جرحت بنبل عينيك الحشا ۞ فدعي فؤادي فالجروح قصاص

وشعره أسود كأنه الليل المدلهم :

سفَّهْنَ رأي المانوية عندما ۞ أسبلن من ظلم الشعور غياهبا

وليس ذلك فقط ما يعشقه الصفي ويعجب به وإنما وجدناه يمجد الحب الروحي ويعجب بالكثير من المعنويات كالصوت والحديث الذي يسكر به فهو يقول :

يحاول طرفي لحظة من خياله ۞ ويشتاق سمعي لفظه وكلامه

ويقول :

لقد نلت إذ نادمته من حديثه ۞ من السكر ما لا نلته من عقيقه

فلم أدرِ من أي الثلاثة سكرتي ۞ أمن لحظه أم لفظه أم رحيقه ؟

وهو يقنع بالنظرة ويكتفي بطيف الحبيب حين يزوره فيأنس به :

جزى الله عني الطيف خيراً فانه ۞ يعيد ليَ اللذات حين يعود

وكثيراً ما يزاوج بين ألفاظ الحماسة وألفاظ الغزل ، يقول :

البيض دون لحاظ الأعين السود ۞ والسمر دون قدود الخرَّد الغيد

والموت أحلى لصب في مفاصله ۞ تجري الصبابة جري الماء في العود

فهنا صورة عناصرها من مقومات الصور الغزلية والصور الحماسية ، فنشاهد الأعين السود بجانب السيوف البيض ، والرماح السمر إلى جانب القدود .

• • •

وإذا تركنا غزله بالمرأة إلى غزله بالغلمان وجدناه كثيراً أيضاً إذ يبلغ (ثماني وخمسين مقطوعة) و (قصيدتين) . وقد كان هذا الغزل شائعاً في عصره فمنذ بدأه أبو نواس وهو يزداد انتشاراً واتساعاً حتى بلغ حداً كبيراً في عصر الصفي وأصبح من مستلزمات الشعر خصوصاً أن مفاسد المجتمع قد كثرت وكان من بين هذه المفاسد اقتناء الغلمان . وقد اقتنى الصفي الكثير من الغلمان ، ويظهر لنا من شعره أن هؤلاء الغلمان كانوا يربون أحسن تربية ويعتنى بتثقيفهم وتعليمهم ، فيكون منهم فرسان وكتاب

وشعراء وقد اهتم الصفي بتربية غلمانه فكانوا مثل أولاده لا يموت أحدهم إلا ويرثيه رثاءً حاراً ويحزن لفقده أشد الحزن يقول :

لا عبد يغني عنه ولا ولد   ما كل عبد عليـــه يعتمد

وكان يحب هؤلاء الغلمان حباً جماً ويصحبهم معه في كثير من رحلاته فقد أخبرنا في ديوانه أنه اتفق مع غلام أن يسافر معه إلى (ماردين) حين رحل عن العراق ولكن الغلام اعتذر عن ذلك فكتب إليه الصفي قصيدة يذكره بذلك ويتغزل به مطلعها :

أذاب التبر في كأس اللجين   رشا بالراح مخضوب اليدين
وطاب على الصحاب بكأس راح   فطـــافت مقلتاه بآخرين
رخيم من بني الأعراب طفـــل   يجاذب خصره جبـــلي حنين

ولم صيرت بعدك قيـــد قلبي   وكان جمال وجهك قدَّ عيني ؟
فصرنا نشبه (النسرين) بعداً   وكنا ألفـــة كالفرقدين
علمت بأن وعدك صار ميناً   لزجري مقلتيك بصـــارمين
وقلت وقد رأيتك : خاب سعيي   لكون البدر بين العقربين
فـــلم وليتني بحبال زور   ولم أطمعتني بسراب مـــين
وهـــلاّ قلت لي قولاً صريحاً   فكان المنع إحدى الراحتين

والصفي لم يكتف بهذه النظرة نحو الغلمان ، فكان يصرح لنا - أحياناً - بحب غير هذا الحب فهو يريد أن يترك حب المرأة ويكتفي بحب الغلمان إذ يقول :

خليـاني من فترة النسوان   وانعشاني بنشطة الغلمان

... ...

ويقول أيضاً

في حبّ ذي القرطين يا لائمي   لي شاغل عن حبّ ذات الوشاح

وكان هناك من يقع في هوى أحد الغلمان فيسبح في عالم من الغرام المضني والعشق المخيف فهذا عالم فاضل وشيخ جليل هو (مدرك بن علي الشيباني المغربي) ، أحب فتىً نصرانياً حباً أودى بحياته وقد نظم قصيدة مريعة ، فيها سائر عبادات النصارى ومواقيتهم وقرابينهم .... وقد سمّط الصفي هذه القصيدة بعد أن قال في سبب تسميطه إياها : « ولما كنت قد وقعت في قريب مما وقع فيه الشيخ مدرك . »[1] فهو يصرح لنا بأنه أحب غلاماً كما أحب الشيخ مدرك .

وقطع شعر الصفي في هذا الغزل معظمها في غلمان مخصوصة بالأسماء والصفات ، فهناك ابراهيم ويوسف وأحمد ومحمد وموسى وسليمان وغيره ، فليس من المعقول أن قلبه اهتز لهذا الحشد الكبير من الغلمان وغيرهم . وأرى أن هذا الشعر ، أو أكثره ، نظمه إجابة لطلب بعض إخوانه ، كما فعل ذلك في الهجاء ، ونظم بعضه الآخر تقليداً لغيره من الشعراء لكي لا يخلو ديوانه من هذا الفن ونظم البعض الآخر في المجالس للتندر والفكاهة وربما كانت هناك مقطوعات تعبر عن شعور صادق نحو الغلمان الذين رباهم واعتنى بتثقيفهم وعاشوا في كنفه وبالقرب منه .

وهذا الغزل لا عاطفة فيه ، وليس فيه شيء من الجدة في المعاني وكان الصفي يستغل أسماء الغلمان فيقارن كل غلام بسميه من الأنبياء وغيرهم فاذا تغزل بمن اسمه ابراهيم جاء بقصة النبي ابراهيم (عليه السلام) ونجاته من النار . فقال

يا سليماً من داء قلبي السقيم ومقيماً على الوداد القديم
ويقول الوصال يا نار برداً وسلاماً كوني لابراهيم
يا سميّ الذي فدى الله اكرا ماً له نجله بذبح عظيم

وإذا تغزل بغلام اسمه (علي) أتى بذكر الامام علي بن أبي طالب

(١) الديوان ص ٣٠٩ .

كيف حللت يا علي دمي فيـــك وإني من شيعة الأنصار
وتلا مرحباً فؤادي للقيـــا ك فنابت عيناك عن ذي الفقار

وهكذا نجد عند الصفي من هذا الغزل ما يلذّ الأسماع ولا يزعج القلوب لأنه يخلو مما في غزل النواسي وغيره من خلاعة ومجون

٦ - الخمريات :

للصفي كثير من شعر الخمريات ، ولم يكن هذا الشعر كله تقليداً فقط بل كان معظمه عن شعور وإحساس فهو يشرب الخمر ويحضر مجالسها ، ويقول الشعر حين يحس بنشوتها أجل ، لقد شرب الخمر لانتشارها في مجتمعه ، ولأنه كان جليس ملوك يجب عليه أن يسايرهم فيما يعملون فوصف مجالسها كثيراً ، وصفها وصفاً جميلا دقيقاً ، تناول فيه الخمر وأنواعها وشربها ومزجها بالماء وآنيتها وأباريقها وما تعمر به المائدة من فاكهة شهية وطعام لذيذ وزهور جميلة وشموع مضيئة ، وما يجب أن تضم هذه المجالس من مطربين ومطربات وندمان وغلمان استمع إليه يصف أحد مجالسها يقول

أزل بالخمر أدواء الخمار وعاقر صفو عيشك بالعقار
ومجلسنا بـه ساقٍ صغـيرٌ يحيينـا بأقـداح كبار
وشادٍ قد حوى في الخدّ منه كما في الكأس من ماء ونار
وحضرتنا من الأزهار ملأى من الورد المكلل بالبهـار
وراح في لجين الكأس تحكي بصفرة لونهـا لون النضـار

ويقول داعياً أحد أصحابه إلى مجلس يصفه بقوله

فاسرعِ الخطو فعندي شادنٌ وفتـاة وخمـــور وأمور
وسقـاة وحـــداة وغنـــا وجنوك وطبول وزمور

كلما درنا رأينا بيننا شادناً يشدو وكاساتٍ تدور

وربما تشدد فيما يجب أن يحفل به المجلس فجعله ثمانية أشياء هي :

تصدّقْ فانا ذا النهارَ بجـلوة إذا زرتنا تمت لدينا المحاسن
أوانٍ وساقٍ غيرُ وانٍ ومطربٌ وراح لها طيب السرور مقارن
فان زرت مغنانا تـكن أنت أولا وعبدك ثانيها وشادٍ وشادن
وخامسها الراووق والكأس سادس وسابعها الابريق والعود ثامن

فهو لا يشرب الخمر إلا بمجلس عامر يحفل بالمآكل والمشارب والزينات والندمان والمطربين والأصدقاء .

ويحضر هذه المجالس في أماكن متنوعة فتارة مع الملوك ، يسامرهم ويتحدث اليهم فيلتذون بحديثه ويعجبون بسعة اطلاعه ويصف مجالسهم ، كان في أحد مجالس الملك الصالح فوصفه بشعر يدعو فيه إلى الشراب مكوناً من سبعة أبيات تنتهي بذكر اليوم وهو يوم السبت وقد آلى على نفسه أن يكمل ذلك في جميع أيام الأسبوع :

ألا يا ملك العصـــر ويا نـــادرة الوقـــتْ
ومن شرف قـــدر الدسـ ـت والكرسيّ والتخت

وبادر — غـــير مـأمو رٍ — وكن للهمّ ذا مقت
وزفّ الراح لا زلـــ ـت سعيد الجـد والبخت
من السبت إلى السبت إلى السبت إلى السبت

وقال في يوم الأحد :

يا ملك العصـــر ومن لجـــوده الغيث حسد

وواصـل الشرب وقـل أنجز حــرٌّ ما وعـــد
من الأحـد إلى الأحـد إلى الأحـد إلى الأحـد

وتارة يشربها في بيته ويصف مجلسه بالأناقة والكمال فها هو يدعو أحد أصدقائه إلى هذا المجلس :

فزرنا إن مجلسنا أنيق   يكاد يعيد منظره الشبابا
فولدان تريد بذا مداماً   وغلمان تدير بذا كتابا
وقهوتنا من المطبوخ حلت   إذا دعي الفقيه لها أجابا
تجلت في الزجاج بغير خدر   وصيّرت الحباب لها نقابا

وهو يشربها في مخيم يضرب به خارج المدينة كما فعل ذلك في ظاهر ماردين ، ويوضح ذلك قوله داعياً أحد أصحابه :

أجلك أن يسخو الزمان وتبخل   ويعدل فينا باللقاء فيعدل
فان لم تزرنا والخيام قريبة   ولا ستر إلا (الأنحمى) (المدعبل)
وليلة سعد يصطلى العود ربها   سروراً وفي آنائها البدر يشغل
أدار بها الولدان كأساً روية   وشمر مني فارطٌ متهمل

هذا هو الوصف المادي لمجلس الخمر ، وأما الوصف المعنوي فنراه يبين آثارها وفعلها في نفس شاربها ، فهي مسلية مسرة :

فما هي إلا أصل كل مسرة   فكم روّحت هماً وكم فرّجت كربا

وهي تفعل بالعقل ما يفعله النعاس بالأجفان

خندريساً تكاد تفعل بالعقل فعل النعاس بالأجفان

وهي تهز الأعطاف وتكسب الوجه حمرة جميلة :

مدامة أثرت في وجه شاربها   أضعاف تأثير نور الشمس والقمر
يسعى بها عل الأعطاف يسعفها   بنشوة من سلاف الغنج والحور

والصفي يعرف ما يجب أن يتبع في هذه المجالس من شروط وعادات يقول :

كم عكفنا على المدامة يوماً   إذ دعانا إلى المسرة داعي
وخلونا بها باخوان صدقٍ   رؤساء الحديث والاستماع
والتزمنا شروطها واتبعنا   أدب الافتراق والاجتماع

فاجتمعنا لهـا على غير وعـد   وافترقنـا منها بغـير وداع

فالمدامة تدعوهم إلى المسرة فيجتمعون إخوان صدق يدور بينهم الحديث ويستمعون إلى الغناء ويلتزمون الشروط الموضوعة للصمت والـكلام والاجتماع والافتراق .

وأما ما يجب أن يكون عليه الندمان من خلق فيصفه الصفي بقوله

طلبت نديماً يوجد الراح راحة   إذا الراح أودت بالـكثير من العقل
يشاركني في سرّها وسرورها   فيملو ويحسو أو يكتب أو يملى
ويشربها بالـكيف والأين والمتى   ويعرفها بالجنس والنوع والفعل

ويمازج في وصف الخمريات وصف الطبيعة ومناظرها الفتانة في السماء يصف الظلام الدامس الذي تهتك الشموع حجبه

وليلتنا شبيه الصبح نوراً   وقد عقد البخور لها ضبابا
كأن ظلامها بالشمع فود   وقد وخط القتير بـه فشابا

وحين يسهر حتى الفجر يصف لنا انبلاج الفجر ، ويوقظ من نام من أصحابه :

هبوا فقد قُدَّ ذيل الليل من دبر   ونبه الصحب شدو الورق في السحر
وأقبل الصبح يدعو بالصباح لنا   مناجيـاً بلسان الناى والوتر
فاستيقظوا من ثياب السكر وابتدروا   راحاً تروح من الأحزان والفـكر

* * *

وقد أفاد الصفي من خمريات أبي نواس ، فلا عجب فأبو نواس أستاذ الشعراء في هـذا الفن ، صحيح إن الـكثير ممن سبقه من الشعراء قالوا في الخمر (كحسان) و (الأعشى) و (المنخل المشكرى) و (الأخطل) وغيرهم ، لـكنهم لم يبلغوا ما بلغه النواسي في خمرياته من الجودة والـكثرة ، فقد اهتم بها كثيراً وسيطرت على حواسه وجود فيها فجمع في شعره من أوصافها ما يخطر على البال ، وما لا يخطر ، من الصور والمعاني والأخيلة . فصار الشعراء الذين جاءوا بعده يقلدونه جميعاً في فنونه ويستعينون بمعانيه وصوره . ومنهم

صفي الدين ، فقد أفاد كثيراً من شعر أبي واقتبس من معانيه فمثلاً قوله :

بكأس لها أشخاص كسرى وقيصر   وقد أحدقت من حولها الروم والفرس

مأخوذ من بيت أبي نواس :

قرارتها كسرى وفي جنباتها   مهىً تدريها بالقسي الفوارس[(١)]

وهذه الصورة لا شك من صور أبي نواس وقد اقتبسها الصفي قائلاً :

فرأينا في راحة البدر شمساً   أطلعت في سما الكؤوس نجوما

وقد أخذ الصفي بيت أبي نواس الذي يقول فيه :

إذا متُّ فادفنّي إلى جنب كرمة   تروّي عظامي بعد موتي عروقها[(٢)]

فوسعه الصفي وطوره فقال

إذا متُّ فانعيني بخفق مثالث   وصرخة ناي واصطفاق مزامر

ولا تعقري غير العقار لتنضحي   ثرى جدثي من سيرها المتجاور

وإذا تأملنا هذا البيت :

واتركا اليوم في مدامي ملامي   أن فرط الملام في ذاك يغري

وجدنا أن معناه مأخوذ من النصف الأول من بيت أبي نواس المشهور :

دع عنك لومي فان اللوم إغراء   وداوني بالتي كانت هي الداء[(٣)]

وأما قول أبي نواس :

إذا عبَّ فيها شارب القوم خلته   يقبل في داجٍ من الليل كوكبا[(٤)]

وكما كان أبو نواس يغتنم الفرصة ولسان حاله يقول :

رأيت الليالي مرصدات لمدتي   فبادرت لذاتي مبادرة الدهر[(٥)]

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٩٥
(٢) نفس المرجع ص ٣٠٩
(٣) نفس المرجع ص ٢٣٤
(٤) نفس المرجع ص ٢٤٤
(٥) نفس المرجع ص ٢٨٢

وجدنا هذا شائعاً في شعر الصفي فكان مبدأ عاماً له يقول :

فانتهز فرصة الزمان فليس المـــــرء من جور صرفه في أمان

أو يقول :

ثب إلى اللذات فالعمر قصير وحيـاة المرء في الدنيـا غرور

لا تدع نهب سرور عاجـلاً كلما أمكن في الدنيا سرور

وقد كان أبو نواس يصطنع القصص في شعره ، فيسير ليلاً يطرق أبواب الأديرة والحانات بطلب الخمر :

وخمـارة للهو فيها بقيـــة اليها ثلاثاً نحو خانتها سرنا (١)

ونجد مثل هذا عند الصفي ، فها هو يشرب الخمر حتى الفجر فتنضب زجاجته ويضطر إلى الخروج بحثاً عن خمرة جديدة فيسير إلى حانة ويطرق بابها فيخرج صاحبها ويعطيه الخمر المعتقة :

شعشعتها فأضـاء الشرق منبلجاً بهـا وقام لهـا الحرباء منتصبا

حتى إذا أمحلت منهـا زجاجتنا وظـل منهـا غدير الدن قد نضبا

نبهت راهب دير كان يؤنسنا ترجيمه الصوت إن صلى وإن خطبا

بادرته وقرعت البـاب واحدة قرعاً توسم من إخفـاته الأدبا

فقام يسحب برديه على مهـل فما استشاط بنا خوفاً ولا رعبا

وجاء يسأل عما ليس ينكره عما نروم ولـكن يثبت الطلبا

فقلت : ضيف ملمٌّ غير ذي طمع بالزاد لكنه يرضى بما شربا

فأطلق الباب إذناً في الدخول لنا وقال : هذا علينا بعض ما وجبا

وجاءنا بسلاف نشرها عبـق شمطـاء قد عتقت في دنها حقبا

... ...

وهناك فروق بين خمريات الصفي وخمريات أبي نواس

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٤٠

فقد كان أبو نواس يتهافت على الخمر ويتهالك على لذتها ، ويحبها حباً يكاد يصل إلى التقديس والعبادة فهو يقول فيها

أثنِ على الخمر بآلائها وسمّها أحسن أسمائها(١)

أما صفي الدين فلم يكن كذلك ، فهو يشربها لأنها مسرة مسلية

فما هي إلا أصل كل مسرة فكم روّحت هماً وكم فرّجت كربا

وهو يشربها باعتدال

إن شئت أن أشرب الكثير من الرا ح نهاني الوقار والأدب

فهو بعكس أبي نواس الذي يشربها بنهم عجيب وشراهة غريبة :

فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة فان طال هذا عنده قصر الدهر(٢)

ويشرب النواسي الخمر بمجون وخلاعة وكفر ولا تحلو له بدون ذلك :

فلا خير في فتك بغير مجانة ولا في مجون ليس يتبعه كفر(٣)

دون أن يبالي بحلال أو حرام ، في حين أن الصفي لا يشربها إلا بعد أن يعلل تحليلها ويتملق به ، ولا يشربها في رمضان لأنه يرى أن ذلك محرم عليه :

قلت : شهر الصيام أقبل والشرب ولو في دجاه - عندي - حرام

ولكن أبا نواس يضيق ذرعاً في رمضان ويتبرم به ، ويزعم أنه أطول من غيره من الشهور ويومه أطول من الأيام الأخرى ، لأنه قد منع من شربها فيه ويحسبه كالسجن

منع الصوم العقارا وزوى اللهو فغارا

وبعثنا في سجون الصو م للهم أسارى(٤)

وما يكاد يخيم الليل حتى ينطلق النواسي من تلك القيود فيشربها بشره

غير أنا سنداري فيه من ليس يداري

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٣٩

(٢) نفس المرجع ص ٢٧٣

(٣) نفس المرجع ص ٢٧٣

(٤) نفس المرجع ص ٢٨٧

نشرب الليـل إلى الصبـ ـح صغـاراً وكـبارا

وتظهر في شعر أبي نواس آثار الشعوبية والدعوة لها ، فهو فارسي يحاول أن يحط من قدر العرب فيصطنع لذلك شتى الأسباب

عاج الشـقي على رسم يسائـله وعجبت أسأل عن خمـارة البلد
ومن تميم ومن قيس ولفهما ليس الأعاريب عند الله من أحد[1]

ولا يمكن أن نجد هذه الروح عند الصفي العربي وهو لم يتطرق إلى العرب وغيرهم أو إلى السياسة في خمرياته ، في حين أن أبا نواس تطرق إلى ذلك وناقض آراء المذاهب السياسية والدينية فهو يقول للنظام

فقل لمن يدعي في العلم معرفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء[2]

ورأينا من تأثير أبي نواس في الصفي في الدعوة إلى التجديد ، أنه لم يبدأ واحدة من قصائده بوصف الأطلال أو البكاء على الدمن وإنما بدأها بالغزل أو ذكر الخمر أو وصف الطبيعة :

٧ - الطرديات :

كان لاهتمام الصفي بالصيد ، منذ صباه ، أن وجد له شعر كثير فيه ، وقد أفرد له فصلاً خاصاً في ديوانه وشعر الصيد عنـده أما مسمطات وأما أراجيز فأما المسمطات فهي (ثلاث) وأما الأراجيز فهي (تسع) أراجيز طويلة و (ست) مقطوعات .

وقد وجد الرجز منذ العصر الجاهلي إذ كان ثانياً للشعر ، وكان الفن الشعبي الذي يعتمد عليه العرب في القتال والنزال ، وفي الحداء والاستقاء على الآبار

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٦٦
(٢) نفس المرجع ص ٢٣٥

وغير ذلك من الأعمال وهو يمتاز عن الشعر بوزنه الخاص فالتام منه (مستفعلن) ست مرات ، وقافيته التي لا تلتزم في القصيدة كلها ويجب أن تكون قصيدته فردية الأبيات وذلك ليثبتوا أنهم لا يتقيدون بالقافية . وقد كان الرجز في الجاهلية مقطوعات قصاراً لم تبلغ أكثر من خمسة أبيات ، أما في العصر الاسلامي فقد زاد الاهتمام به وصار فناً شعبياً يتغنى به العمال والمحاربون وغيرهم ، وصارت العناية به تزداد ، وقيلت فيه أكثر أغراض الشعر وبخاصة الهجاء حتى كاد أن يتخصص به وفي العصر العباسي أصبح الرجز أداة للوصف والصيد ، فحين صار الصيد فناً من فنون الترف واللهو أكثر الشعراء من نظمه رجزاً للسهولة التي يتخففون بها من القافية التي تلتزم في الشعر ولسهولة وزنه [1] وهناك من يعتبر الرجز من فنون الشعر فهو قصيد أيضاً ، وهناك من يقول إنه فن آخر غير القصيد وقد سئل (الخليل بن أحمد) عن ذلك فقال بالرأيين ، ويظهر أنه يرى أن الرجز إذا كان تاماً من الوجهة العروضية - أي تام الوزن وليس فيه حذف أو نقص في التفعيلات - فهو قصيد أما إذا كان غير تام العروض كالمجزوء والمنهوك كقوله : « أنا النبي لا كذب » وما شاكل ذلك فهو ليس من الشعر [2]

وقد برع الصفي في طردياته براعة تامة ، فكان يصف كل شيء من أدوات الصيد وحيواناته ومواقفه ، فهو يصف صناعة القوس وصفاً دقيقاً إذ يقول :

ومدَّ للصنعة كفاً واحداً منزهاً عن الفساد والغلط
وظل يستقري جمال عودها فنبَّر الأطراف واختار الوسط
وجوَّد التدقيق في لحامها فأسقط الكرشات منها والسقط

---

(١) محاضرات الدكتور طه حسين على طلبة الليسانس بكلية الآداب - قسم اللغة العربية - جامعة القاهرة سنة ١٩٥٢

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (رجز)

ولم يزل يبلغها مراتبــاً تــلزم في صنعته وتشترط
فعنـدما أفضت إلى تطهيرها صحّـح دارات البيوت والنقط
حتى إذا عتقهـا بدهنهـا جاءت من الصحة في أحلى نمط

وعندما يصف البندق واندفاعه نحو الطير بسرعة فائقة يشبهه بحامل الـكره والحقد على الأطيار

وبندق معتدل المقــدار كأنمـا قُسّمَ بالعيــار
قد حمل الحقد على الأطيار فهو إذا انقض من الأوتار
يرى فناء الطير فرضاً واجبـاً

وقد وصف الصفي حيوانات الصيد كلها وصور لها مشاهد تصطرع فيها مع فريستها ، فلم تفته صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها فهاهو يصف يوماً قضاه في صيد النعام بقوله :

عنّ لنا سرب من النعام مشرقة الأعناق كالأعلام
فاغرة الأفواه للهيـام كأينق فرّت من الزمام
وحش على مثنى من الأقدام بالطير تدعى وهي كالأنعام

ويصف الطريقة التي يصطاد بها الفهد فريسته ، فيخاتلها ثم يفاجئها منقضاً عليها

يخاتل السرب بغير وقض منخفضاً للختل أي خفض
مصافحاً بالبطن ظهر الأرض يجسها بالـكف جس النبض
حتى إذا أمكن قرب البعض عاجلها كالـكوكب المنقض
فعانق الأكبر عند النهض عناق ذي حبٍ لربّ بغض

ويصف كلاب الصيد بصفاتها الخاصة فيقول

وأهرت من الـكلاب أخطلِ أصفر مصقول الاهاب أشعلِ
أعصم مثـل الفرس المحجل يخال مرحوضاً وإن لم يغسل

مختصر الشلو ثقيل المحمل   منفسح الهامة ناتي المقل
مهضّم الخصر عريض الكفل   ذى أيطل خالٍ ومتن ممتلي
خصيب أعلى العضب فخل الأسفل   قصير عظم الساعد المفتل
مقصر الأيدي طويل الأرجل   مزدحم الأظفار ثبت العضل
ذي ذنب سبط قصير أفتل   أسلس من دفته كالمغزل

فهو يصفه بالصفات التي تشترط فيه عند العرب ليكون صالحاً للصيد ، فان العرب (يصفونه بأن يكون صغير الرأس طويل العنق ، بارز الحدقة واسع الشدقين ناتئ الجبهة عريضها وأن يكون الشعر الذي تحت حنكه كأنه طاقة .. ويكون قصير اليدين طويل الرجلين لأنه إذا كان كذلك كان أسرع في الصعود بمنزلة الأرنب قالوا : ولا يكاد يلحق الأرنب في الصعود إلا كل كلب قصير اليدين طويل الرجلين)[1]

ووصف الصفي طيور الصيد فأجاد ذلك ، فحين يصف البازي يقول :

غليظ خط الجؤجؤ المنكب   ذي عنق خصب ورأس أحدب
قصير عظم الساق ثبت الركب   قليل ريش الصفحتين أرعب
نامي الجناحين قصير الذنب   عيونه مثل الجمان المذهب

وواضح أنه يصفه وصفاً دقيقاً ، فيصف شكله العام ويصف أعضاءه كلها وما يمتاز به وصفات الصقر كصفات البازي سواء بسواء

ويصف الطبيعة في طردياته وما حوله من مناظر فالفجر وطلوع النهار عليهم وهم منهكون في الصيد يصوره قائلاً :

ورب يوم أدكن المقام   ممتزج الضياء بالظلام
سرنا به لقنص الآرام   والصبح قد طوح باللثام
كراقد هبَّ من المنام   بضمر طامية الحوام

(١) الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ١٥ — ١٦

ولا ينسى أن يصف الخيل التي يمتطي ، وصحبه ، صهواتها في هذه الرحلات الجميلة :

ولقد أروح إلى القنيص وأغتدي   في متن أدهم كالظلام محجّل
رام الصباح من الدجى استنفاره   حسداً فلم يظفر بغير الأرجل

أو يقول :

وغادية إلى الغارات صبحاً   تريك لقدح حافرها التهابا
كأن الصبح ألبسها حجولاً   وجنح الليل قمّصها إهابا
جواد في الجبال تخال وعلاً   وفي الفلوات تحسبها عقابا
إذا ما سابقتها الريح فرّت   وأبقت في يد الريح الترابا

وقد ينتهي من طردياته إلى مدح أحد السلاطين كما في مسمطته التي مطلعها :

دارت على الراح سلاف القطر   فرنحت أعطافه بالسكر
ونبه الورق نسيم الفجر   فغردت فوق الغصون الخضر
تغني عن العود وصوت الزمر

فانتهى إلى مدح الملك المنصور قائلاً

نجم به الأنام تستدلُّ   من عزّ في حماه لا يذلُّ
في القرّ شمس والمصيف ظلُّ   وبلٌ على العفاة مستهلُّ
أغنى الأنام من هتون القطر

* * *

وكان لأبي نواس القدح المعلّى في هذا الفن « لأنه كان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف ما لا تعرفه الأعراب »(١) ففي ديوانه أربعون أرجوزة في الطرديات وصف فيها الحيوانات المختلفة وصفاً دقيقاً جميلاً . وقد التزم ما التزمه العرب من مميزات فن الرجز مما وجدناه عند صفي الدين أيضاً غير أننا نجد أن أبا نواس اهتم بكلاب الصيد أكثر من غيرها من الحيوانات وقد وصفها

(١) الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ١٠

في ٢٨ أرجوزة ، أي بأكثر من نصف أراجيزه ، وبهذا فهو يختلف عن الصفي الذي وزع أراجيزه على الحيوانات المختلفة ووصف كلاب الصيد في أرجوزة واحدة وفّى كل شيء حقه من صفات الكلب لكن أبا نواس كان أوسع أفقاً وأكثر اطلاعاً فتشعب وصفه وتنوع وشمل كل شيء فهو يقول :

أنعت كلباً أهله من كدّه قد سعدت جدودهم بجدّه
وكل خير عندهم من عنده يظل مولاه له كعبده
يبيت أدنى صاحب من مهده وإن عرى جلله ببرده
ذا غرة محجلاً بزنده تلذ منه العين حسن قده
تأخير شدقيه وطول خده تلقى الظباء عنتاً من طرده[1]

فهو هنا يصف جمال الكلب واهتمام أصحابه به حتى أنهم يغطونه ببردهم إذا ما عري لأن رزقهم من كده وتعبه . وقد وصف أبو نواس الفهد فقال :

فجاء يزجيه على سمنده أصفر أحوى بين بين ورده
وامتد للناظر في مرتده كوكب عفريت هوى لمده
كما انطوى العاقد من ذي عقده خمسين عاماً بيدي معتده
حتى احتوى العين ولما يرده فنحن أضياف حسامي غمده
فيما اشتهينا من ذوات طرده[2]

فهذه الصورة للفهد حين ينقضّ على فريسته مشابهة للصورة التي رأيناها عند الصفي وليس ببعيد أن يكون الصفي قد تأثر بها .

ولم ينظم أبو نواس في طردياته غير الأراجيز في حين أن الصفي نظم ثلاث مسمطات طوال كالتي مطلعها :

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٠٦
(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

أما ترى الأنواء والسحائبا　　قد أصبحت في مدحها سكائبا
فاكتست الأرض بها جلاببا　　فأظهرت أزهارها عجائبا
غرائباً أضحت لها رغائبا

وقد وصف أبو نواس حيوانات لم يصفها الصفي ولم يتعرض لها كالديك والحمام وغيره وقد مدح الصفي في بعض طردياته الملوك والسلاطين ووصف الطبيعة في حين اختص أبو نواس فيها على الصيد ووصف الحيوان فحسب .

وقد امتلأت طرديات أبي نواس بالألفاظ الغريبة التي لا تكاد توجد في طرديات صفي الدين إلا نادراً

٨ – الوصف :

ذلك الجمال الطبيعي الأخاذ ، وتلك المناظر السحرية الفاتنة التي عاش الصفي متنقلاً بينها في الحلة وماردين وحماة وحلب والقاهرة أثرت في نفسه وفي حسه وفي شاعريته ، وجعلته يعشق الطبيعة ويفتتن بسحرها وجمالها ، ويناغي أطيارها الصداحة ، ويتغزل بأزهارها الفواحة ، وكان له حس مرهف في الدخول إلى أدق سمات الجمال في كل ما يوجد حوله ، مما تقع عليه الحواس ويدركه الفكر فاذا رأى جمالاً اندمج معه وعاش فيه ، واتصل الجمال بوجدانه وفاض على شعوره ، وبدأ في تحليل مشاعره وأحاسيسه منفعلاً انفعالاً صادقاً ، فاذا ما تم انفعاله عبر عن ذلك بشعر جميل رتب فيه المعاني ونمق الأساليب ، ونسق الصور وتخير الألفاظ لهذا كان عند الصفي وصف كثير ، فقد وصف كل شيء جميل ، وكل ما وقعت عليه عينه ، ووصف الطبيعة بأشجارها وأنهارها ووديانها ورياضها وأزهارها وأثمارها ونسيمها وأطيارها ولم يدع شيئاً إلا تغلغل إلى دقائق صفاته وغوامض ميزاته فحين وصف الحلة اهتز قلبه بحبها فقال

ما حلة ابن دبيس إلا كحصن حصين
للقلب فيها قرار وقرة للعيون
إن أصبح الماء غوراً جاءت بماء معين
وحولها سور طين كأنه طورسين

ووصف وادياً بالغرس فأعجب بظلاله الوارفة وهوائه العليل :

لله وادي الغرس حين حللته زمناً كأن العيش فيه منام
وادٍ حريري الرياض فكم به من حارث يغدو به وهام
ممتد أودية الظلال فقمره باكي العيون وثغره بسام
فالشمس فيه مدى النهار فطيمة والظل كهل والنسيم غلام

ويصف الزهور فيحيط بأنواعها جميعاً ولا يفوته شيء ويعطي كل نوع صفاته الخاصة به :

(والورد) في أعلى الغصون كأنه ملك تحفّ به سراة جنوده
وكأنما (القداح) سمط لآلىءٍ هو للقضيب قلادة في جيده
و (الياسمين) كعاشق قد شفّه جور الحبيب بهجره وصدوده
وانظر (لنرجسه) الشهي كأنه طرف تنبه بعد طول هجوده
واعجب (لآذريونه) (وبهاره) كالتبر يزهى باختلاف نقوده

ورغم هذا الشمول في وصفه لكل ما يقع حوله فهو يمتاز بالدقة والاستقصاء فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة من صفات موصوفه إلا ويشير إليها . فحين يصف الطبيعة في الربيع لا يغيب عن باله أن يرحب معه بالورد والأزهار ، وحسن المنظر وطيب الهواء ، وجمال الألوان وروعتها ولا ينسى أن هذا الفصل لما فيه من حسن يفخر به الزمان ، وأن النسيم هو علاج للمزاج ... إلى آخر ذلك مما يتنبه الانسان وما لا يتنبه له :

ورد الربيع فرحباً بوروده وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسيمه وأنيق ملبسه ووشي بروده
فصل إذا افتخر الزمان فانه إنسان مقلته وبيت قصيده
يغني المزاجَ عن العلاج نسيمُه باللطف عند هبوبه وركوده
يا حبذا أزهاره وثماره ونبات ناجمه وحب حصيده

وإذا وصف النرجس لم يرض بتشبيه العيون به وعدَّ ذلك خطأً وقارن بين العين وزهرة النرجس قائلاً :

أمشبه الطرف الكحيل بنرجس بعُد القياس وذاك من أضداده
نافاه في تدويره وصفاره وجحوظ مقلته وفرط سهاده
فاعجب لزهر (الباقلاء) وقد بدا فوق القضيب يميس في أبراده
يحكي عيون العين في تلويزه وفتوره وبياضه وسواده

والصفي يهتم في وصفه بتجسيم الصورة وتشخيصها ، وإبرازها أمام السامع واضحة المعاني حية ملموسة ، ويكسبها حركة لابد منها ، يصف زهر النيلوفر فيقول

وبركة نيلوفر زهرها ثنى جيده في الدجى واحتجب
فمذ لاح وجه حبيبي له وشاهد أنواره كاللهب
توهمه الشمس قد أشرقت فقام على سوقه وانتصب

فالزهر يثني جيده ويحس ، فهو يحتجب عندما يرى وجهاً جميلاً ، ولكنه حين يرى النور يظنه نور الشمس فينتصب قائماً لاستقبالها ليتزود منها بالدفء والحياة .

وأما زهر النرجس فله وجوه ناظرة وعيون محدقة :

وللنرجس الغض ما بيننا وجوه بحضرتنا ناضرة
كأن تحدُّق أزهارها عيون إلى ربّها ناظرة

وربما جعل لصورته هذه أشخاصاً تتحدث بحوار عذب جميل فيقول

قال الحيا للنسيم لما ... ظل بـه الزهر في اشتغال
وضاع نشـر الرياض حتى ... تعطرت بردة الشـمال
أما ترى الأرض كيف تثني ... عليّ منها لسان حالي ؟
فاعجب لاقرارها بفضلي ... وسكرها بي وشكرها لي

وهو يبدع في ايجاد الصور الفنية واللوحات الرائعة التي تصور انبلاج الفجر وانبثاق نور الصباح يقول :

فيروزج الصبح أم ياقوتة الفسق ... بدت فهيّجت الورقاء في الورق
أم صارم الشرق لما لاح مختضباً ... كما بدا السيف محمّراً من العلق
ومالت القضب إذ مرّ النسيم بها ... سكرى كما نُبّه الاثنان من أرق

فهنا نشاهد تنبه الورقاء حين يهب النسيم على الأغصان فتميل كأنها ثملة وذلك عند الفجر

ويقول كذلك

نمّ بسر الروض خفق الرياح ... واقتدح الشرق زناد الصباح
وأخجل الورد شعاع الضحى ... وابتسمت منه ثغور الأقاح
وقام في الدوح لنعي الدجى ... حمائم تطربنا بالصياح
مذ وُلدَ الصبح ومات الدجى ... صاحت فلم تدرِ غنىً أم نواح

فنشاهد هنا كيف تحركت الأطيار عندما ظهر ضوء الفجر ففرحت له وبدأت تغرد بألحانها المذبة وكيف ابتسمت ثغور الازهار ودبت الحياة في كل شيء .

وكم شهدنا من حفلات راقصة جميلة ، تغرد فيها الطيور بأعذب الألحان فتتراقص على نغماتها فروع الدوح وأغصان الشجر

والظلّ يسرق في الخمائل خطوه ... والغصن يخطر خطرة النشوان
وكأنما الأغصان سوق رواقص ... قد قيدت بسلاسل الريحان
والشمس تنظر من خلال فروعها ... نحو الحدائق نظرة الغيران

فهذه حفلة من حفلات الطبيعة البهيجة ، ومهرجان من مهرجانات الرياض الجميلة يتحرك فيـه كل شيء ، فالظل يسير بين الأشجار والأغصان تتمايل سكرى على الدوح كأنها الراقصات الجميلات ، وحتى الشمس تنظر من خلال الأشجار وتعجب بهذا المنظر .

ولـكننا قد نستمع إلى غير هذا الحفل المفرح ، فقد نسمع ندباً وعويلاً ونواحاً محزناً من الطبيعة أيضاً ، يقول

والأرض تعجب كيف تضحك والحيا   يبـكي بدمع دائم الهملان
حتى إذا افترّت مباسم زهرها   وبكى السحاب بـدمع هتّـان

أو يقول :

والسحب تبكي وثغر البر مبتسم   والطير تسجع من تيه ومن شبق

نشاهد هنا السحب تبكي فينزل المطر غزيراً كأنه الدمع الهتون

وليست الحركة فقط ما يعتمد عليه الصفي في تجميل صورته وإنما يستعين باللون ، فها هو يبين لنا ألوان الزهور وصفات الـكمال لتلك الألوان

وقد بدا الورد مفـتراً مباسمـه   والنرجس الغض فيها شاخص الحدق
من أحمر ساطع أو خضر نضر   أو أصفر فاقع أو أبيض يقق

ومثل ذلك قوله

وتنوعت بسط الرياض فزهرها   متباين الأشكال والألوان
من أبيض يقق وأصفر فاقع   أو أزرق صاف وأحمـر قاني

وقـد يستعين باللون في الأغراض الأخرى فها هو يقول في بيته المشهور

بيض صنائعنا سود وقائعنـا   خضر مرابعنا حمر مواضينا

فهو يلون كل شيء بلونه الذي يدل على عظمته وعلو منزلته

٩ - القصيدة الساسانية :

بنو ساسان هم المكدون والشحاذون ، ويسمون بهذا الاسم نسبة إلى شيخهم الأول ورئيسهم (ساسان)، وهو رجل فارسي فقير حاذق في الاستمطاء دقيق الحيلة في الاستجداء[1] وقد تنوعت الروايات التي تحدثت عنه وعن أصله واختلفت فيقال إنه كان ملكاً واغتصب الملك منه (دارا) فهام على وجهه محترفاً الكدية[2] ويقال إن أباه طرده بعد أن رأى أنه لا يصلح للملك فماش مع الشحاذين والمكدين ، وابتكر الحيل العجيبة في هذا الباب ويقال إن هذه النسبة ليست حقيقية وإنما هي من باب التحقير لجد (الساسانيين) بعد زوال دولتهم الفارسية التي أسسها (أردشير بن بابك) والتي محقها الاسلام ، وبقي من أطرافها أفراد أذلاء سقطوا في ألسنة فتيان المسلمين فكانوا يطردونهم من مكان إلى آخر ، فبعد أن كانت نسبتهم إلى (ساسان) تشير إلى المجد والرفعة أصبحت تشير إلى القذف والسب[3] ولا يعنينا أن يكون هذا هو الصواب أو ذاك ، وإنما الذي يعنينا أن أخبار المكدين انتشرت في القرن الرابع انتشاراً واسعاً ، وصار الشعراء والكتاب يهتمون بها ويروون نوادرهم وقصصهم ، وينظمون فيهم وفي حيلهم القصائد الطوال ، ويسمونهم الساسانيين .

وقد كان بديع الزمان الهمذاني يعتبر من أوائل المهتمين بأخبار الساسانيين المكدين في مقاماته ، فقد تحدث عنهم طويلاً في عدة مقامات . (كالرصافية) التي يصور فيها أحوالهم وحيلهم ، و (الدينارية) التي يعطينا فيها صوراً عجيبة لألقابهم وشتائمهم ، وهناك مقامة سماها (الساسانية) يذكر فيها طرق الشحاذة عندهم .

(١) مقامات الهمذاني ص ٨٩ — هامش

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ٢١٦ .

(٣) مقامات الهمذاني ص ٨٩ — هامش

وربما كانت الفكرة الأولى في هذا الأدب قد نبعت في عصر الجاحظ فقد ذكرهم في كتابه (البخلاء) في الحديث عن (خالد بن يزيد) « قالوا انك لتعرف المكدين قال : وكيف لا أعرفهم وأنا كنت كاخان في حداثة سني ثم لم يبق في الأرض مخطراني ولا مستعرض إلا قضيته . . »[1] ويستمر في سرد طرقهم وحيلهم وأسمائهم ، إلا أنه لا يسميهم باسم الساسانيين .

ثم جاء بعد (الجاحظ) من توسع فيهم كما نجد عند (البيهقي) إذ نقل الكثير من أخبارهم ثم توسع في ذكر أفعالهم ونوادرهم[2] ثم جاء الشاعر (الأحنف العكبري) فنظم قصيدته الدالية في وصف المكدين وبيان حيلهم وطرق معيشتهم وأحوالهم وقد عارضه في هذه القصيدة (الشاعر أبو دلف الخزرجي) بقصيدة طويلة وكان أبو دلف يحفظ الكثير من أخبار الساسانيين ونوادرهم ، وكذلك كان (الصاحب بن عباد) ، وربما كان هذا من أسباب إعجاب الصاحب بن عباد بأبي دلف الخزرجي[3]

وقد ظلت أخبار المكدين تشغل بال الأدباء والشعراء والظرفاء حتى عصر الصفي فنظم الصفي قصيدته المعروفة بهذا الاسم ، لكنه نظمها بلغة مزج فيها بين الألفاظ العربية والألفاظ الفارسية الساسانية ، وهذه القصيدة تبلغ خمسة وسبعين بيتاً يبدأها بقوله

بتبريخ ادصـــاني وتربيخ مشتاني غدت سائر الأخشان والفرس تخشاني

خعفت دوانيك العراكيس كلها فشخمني من كان من قبل داصاني

وهابرتهم فـــيما استكافوا بفيسهم وبالقحم من تبك ومرد ومرقان

وسبب نظم هذه القصيدة – كما يقول الصفي ذلك في الديوان – أن أحد

(١) البخلاء للجاحظ ص ٤٧

(٢) الحضارة الاسلامية لآدم متز ص ٣٤٧ .

(٣) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ ص ١٧٥ .

أصدقائه رغب في أن يجمع له لغة الغرباء وفنونهم وحيلهم ومعائشهم في قصيدة ، فرأى أن يجعلها في بني ساسان وقد قال في مقدمتها « لما أطلقت عنان أسفاري ، وإن بعد التحجب إسفاري ، طفقت أجوب البلاد وأسبر أحوال العباد ، فلم أجد في طوائف الناس ، على اختلاف الأجناس ، طائفة قليلة الكف كثيرة التحف ، آمنة عواقب التلف ، كطائفة تجار اللسان وورثة ملك ساسان ... »[1] ويذكر أيضاً أنه مطلع على أحوالهم عارف بأسرارهم بالرغم أنه لم يكن منهم يقول « وكنت مولعاً بكشف حقائقهم واقتباس دقائقهم ، غير أني لم أنتظم في سلكهم ولم أشاركهم في ملكهم ، مع أني كنت أنقل من (الهاذور) من شيخهم (ساسان) في علمهم وعملهم واصطلاحهم وحيلهم ، ما لم يحيطوا به خبراً ولم يستطيعوا عن سماعه صبراً » . وأما سبب مزجه ألفاظ هذه القصيدة بين الفارسية الساسانية والعربية فقد بينه قائلاً « وأن أجمل ألفاظها بلغتهم كي لا تعلم العامة حقائقهم ، وتسلك الأخشان - العامة - طرائقهم »

وقد شُرحت ألفاظ هذه القصيدة في نسختين من النسخ الخطية الموجودة في دار الكتب المصرية ، فاستطعت أن أقف على معانيها وأعرف الأخبار التي عني الصفي بها عن هذه الطائفة الظريفة .

ويحدثنا الصفي عن المكدين واحترامهم لمن ينتسب إلى شيخهم الأول وكيف أنهم يتجمعون حوله حين يرونه ويؤدون له واجبات التعظيم والاكبار ، وكيف أن من عادات هؤلاء المكدين أن يظهر أحدهم مرة محترماً كامل اللباس فيجله الأمراء والعظماء والحكام ، لكنه يظهر ساعة العمل فيبدو مهلهل اللباس أغبر الخلقة شقيان ، يرتمي بجوار جامع أو مسجد . وهو طوراً يظهر الصيام والجوع للحاجة والعوز . وطوراً يولع بالسكر ومجالسه والغلمان ومعاشرتهم . وطوراً يسلب أموال العامة وينهبها والصفي يعرض علينا في هذه القصيدة

---

(١) الديوان ص ٤٤٤ .

من حيل هؤلاء المجب المجاب ، فنهم من يتظاهر بأنه مكسح أو أقطع أو مريض أو أعمى ، ومنهم من يحتال ببيع الأدوية والعقاقير ، ومنهم من يبيع الطلاسم والأدعية والتعاويذ ومنهم من يمسك الأفاعي والحيات إلى آخر هذه الطرق العجيبة والحيل الغريبة .

وفي قصيدة الصفي هذه شيء من المعاني والصور التي وردت في قصيدة (أبي دلف الخزرجي) ، فربما كان الصفي متأثراً بها ولكن قصيدته تخلو من المجون في حين امتلأت قصيدة أبي دلف الخزرجي به .

ولا شك أن صفي الدين قد أبدع في تصوير هذه الطائفة وبيان أحوالهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية

١٠ - الاغراض الاخرى :

لم يترك الصفي غرضاً من أغراض الشعر ، فقد كان لا يريد أن يخلو ديوانه من أحد فنون الشعر ، فبالاضافة إلى الأغراض التي تحدثنا عنها سابقاً هناك أغراض أخرى

فهناك الشكوى والعتاب ، وأكثر هذا الفن مقطوعات من شعر جيد يعاتب به السلاطين إذا لحقه ضرر ولم يسرعوا لرفعه عنه ، ويعاتب أصدقاءه إذا ما بدر منهم شيء نحوه ، ويعاتب جيرانه إذا جفوه ولم يزوروه، ويشكو عدم وفائهم وجفاءهم

لما رأيتُ بني الزمان وما بهم خلٌّ وفيٌّ للشدائد أصطفي
أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي

وهو في شعره هذا منطقي يورد الأسباب ويعدد المسببات ويكثر من ذكر الحجج والبراهين ويستعمل الطرق الجدلية للاقناع قال يعاتب جاره

لا يؤخذ الجار في الاعراض بالجار ... إن دام وهو على رسل الهوى جاري
على ذوي الودّ بالحسنى بأنفسهم ... وما عليهم بفعل الغير من عار
فكيف ألحقتمُ فعل العداة بنا ... لقرب دارهمُ ، بالرغم ، من داري ؟
ولم عذقتم بنا ما قال ضدُّكم ... عنكم وإن قلته من غير إيثاري
كما سمعت بصوت النار في حطب ... والصوت للريح ليس الصوت للنار

فهو يطلب من جاره أن يتريث في حكمه فربما كان ما سمعه عنه غير صحيح ويستدل على ذلك بالصوت الذي يخرج عند اندلاع النار وهو في الحقيقة صوت الريح وليس بصوت النار .

* * *

وهناك شعر الهجاء ، وهو عبارة عن مقطوعات قصيرة نظمها تقليداً للشعراء ، فقد قال في بداية هذا الفصل إنه نظمها بناء على اقتراح أفاضل أصحابه وهو في كل قطعة يقول : « وطُلب إليَّ ذلك » ، أو يقول « وطُلب إليه هجاء كذا » . ويستعمل في هذا الهجاء الصور السريعة الخاطفة ، والفكاهة العابرة والسخرية اللاذعة مثل هجاء مغنٍ فقال :

وشادٍ يشتت شمل الطرب ... يميت السرور ويحيي الكرب
بوجه بعيد إذا ما بدا ... وكف يضرُّ إذا ما ضرب
شدا فغدا كل قلب به ... قليل النصيب كثير النصب
تغنّى فعنّى قلوب الرفاق ... وماس فسُّ القلوب العطب

* * *

وهناك شعر الزهد والتصوف ، ويدعو فيه إلى التوبة وعمل الخير ، ويذكر أن الله تواب رحيم عفوٌّ غفير ، ويوصي بتقوى الله وإطاعة أوامره والتوبة إليه لغفران الذنوب :

تبْ وثبْ وادعُ ذا الجلال بصدق ... تجد الله للدعاء سميعا
لا تخف مع رجاء ربّك ذنباً ... إنه يغفر الذنوب جميعا

وهو يستغفر الله معلناً التوبة طالباً الرحمة كما كان يفعل أبو نواس في أواخر حياته :

يا ربّ ذنبي عظيم وأنت عني حليم
بل غرني منك وعد له الأنام تروم
إذ قلت في الذكر المصطفى وأنت كريم
نبّي عبادي أني أنا الغفور الرحيم

وقال أيضاً في هذا الشعر غزلاً يشبه غزل المتصوفة في الحب الالهي فيتغزل بالذات الالهية التي يرى أنه اندمج فيها فيقول :

تراءت لنا بين الأكلة والحجب فتاه بها طرفي وهام بها قلبي
وأعجب شيء أنها مذ تبرّجت رأت حسنها عيني ولم يرها صحبي
تلقيتها بالرحب مني كرامة ومنها تعلمنا التلقي بالرحب

وناجيتها فيما أحب سماعه مشافهة لا بالترسل والكتب
حملت الظما شوقاً اليها فساقني إلى (عين تسنيم) أدمت بها شربي
علمت بها ما كنت أجهل علمه وكنت بها أنبا فصرت بها أنبي

* * *

وهناك شعر (الأدب والحكم) وينصح فيه بالتحلي بالآداب الرفيعة والخلق الكريم

عوّد لسانك قول الخير تنجُ به من زلة اللفظ بل من زلة القدم
واحذر كلامك من خلّ تنادمه إن النديم لمشتق من الندم

ويضمن هذا الشعر بعض تجاربه في الحياة وما مرَّ به من حوادث فاستفاد منها فهاهو ينصح بمصاحبة المهذبين وعدم مصاحبة اللئام :

لا تصاحب من الأنام لئيماً ربما أفسد الطباع اللئيمُ
فالهواء البسيط في جرة القيظ سموم وفي الربيع نسيم

وابغ منهم مجانساً يوجب الضمّ فقد يصحب الكريمَ الكريمُ
واعتبر حال عالم الطير طراً كل جنس مع جنسه مضموم

وقال ينصح في أخذ الحكمة من أي وعاء خرجت :

نصحتك فاصغ إلى منطقي يقدْك إلى السَنن الأرشد
ولا تستقلّنَ رأي امرئٍ وإن كان دونك في المحتد
فان سليمان في ملكه وكل بآرائه يهتدي
أطاعته كل ذوات الجناح وأصغى إلى نبأ الهدهد

كما يقول

أقلل المزح في الكلام احترازاً فبافراطه الدماء تراق
قلة السم لا تضر وقد يقتل مع فرط أكله الدرياق

* * *

وهناك شعر النوادر المختلفة والملح الظريفة استمع إلى هذه القصة الجميلة :

رأيت في النوم أبا مرة شيخي في تهذيب علم البيان
وحوله من رهطه عصبة يشير نحوي لهم بالبنان
وقال : يا بشراكم بالذي غنيتمُ عن ذكره بالبيان
هذا الذي أخبرتكم أنه في نظمه أوحد هذا الزمان
وقال لو شنفت أسماعنا ببعض ما نظمت في ذا الأوان
فعندما أوردت من مدحكم بدائعاً منظومة كالجمان
فعاد كل منهم قائلاً أحسنت يا رب المعاني الحسان
فقال : مع ذا المدح هل أنعم بضيعة عامرة أو فدان ؟
فقلت : لا ، قال : ولا منزل مستحسن يغنيك عن بيت خان ؟
فقلت لا ، قال : فنم صاغراً ما أنت إلا بغويّ اللسان

وقال في الدرهم :

لن يقضيَ الحاجات إلا درهم عز الغني ودرهم لمؤمل

يدني لك الغرض البعيد بسحره ... ويحل عقدة كل أمر مشكل
فاذا فهمت السر فيه رأيته ... ذخر المؤمل نزهة المتأمل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... لمعت كلمع العارض المتهلل

* * *

وإلى جانب هذا كله هناك شعر كثير في أغراض أخرى منها تقاضي أجوبة الكتب ، وقبول الهدايا ، والألغاز ، والمجون والاحماض ، وهناك الشعر الذي قيد به العلوم والفنون كأبحر الشعر وغيرها ، وهناك شعر الصناعة البديعية وما إلى ذلك لكن هذا الشعر صناعي ليس فيه جدة ، وليس فيه ما يتميز به عن غيره من شعر الشعراء

الفصل الرابع

الفنون المستحدثة

طاوعتني جواهر المدح فيه فأتت في النظام مثل السماط
طيب اللفظ لو حوته اللآلي جعلتـه الحسان كالأقراط
طرف كالعقود فالدر منهـا ذكره والبيوت كالأسماط

١ الموشحات :

الموشح من أطرف فنون الشعر في الأدب العربي ، وقد كانت له أهمية عظيمة وصولة وجولة في دنيا الأدب في عصور مختلفة وأماكن متنوعة ، فكان له شأن كبير في القرون : الرابع والخامس والسادس والسابع . وأعجب الناس به جميعاً وظلوا يحفظونه ويتناقلونه ، وتغنى به المغنون وقد سمي بهذا الاسم تشبيهاً بوشاح المرأة المرصع المطرز المزين ، فهو يشبهه لما فيه من زينة وصناعة .

وهذا الفن أندلسي الأصل ، اخترعه شعراء الأندلس في القرن الثالث للهجرة فحين كثر الشعر عندهم وتهذبت مناحيه وتنوعت فنونه وبلغوا في تنقيحه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم هذا الفن ، وكان مخترعه (مقدم ابن معافر الفريري) من شعراء الأمير (عبدالله بن محمد المرواني) وأخذه عنه (أبو عبدالله محمد بن عبد ربه) صاحب (العقد الفريد) ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فيه بعدهما (عبادة بن القزاز) شاعر (المعتصم بن صمادح) صاحب المرية [1]

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٨ .

وكان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق في فنونهم ، ثم اخترعوا فن الموشح ونوعوه وتفننوا فيه فانتشر واشتهر ، واقتبسه منهم أهل المشرق ونظموه وجودوه وهذبوه وهناك من يقول إن أهل الأندلس اخترعوه لتأثرهم بالأسباب في مظاهر حياتهم وسبل معيشتهم وفنونهم ، فقد امتزج العرب بالأسبان واقتبسوا صوراً من غنائهم ، فاخترعوا الموشح متأثرين بهم حتى أنهم كانوا يحورون بالأوزان العربية ويملأون الشعر بألفاظ أعجمية

ولم يظهر الموشح في المشرق إلا في القرن السادس عند (ابن سناء الملك المصري) ومن ثم ذاع وانتشر

والموشح فن له شروطه وأوزانه وقوافيه ، وهو ينظم أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً تتوالى بعضها مع بعض قفل ثم بيت ، ثم قفل ثم بيت وهكذا . . .

والقفل هو الجزء الذي يجب أن يتفق مع البقية في الوزن والقافية وعدد الأجزاء فيه فالقفل في موشحة لسان الدين بن الخطيب :

وروى النعمان عن ماء السما　　كيف يروي مالك عن أنس

فكساه الحسن ثوباً معلما　　يزدهي منه بأبهى ملبس

والبيت هو الجزء المفرد ، أو المركب ، الذي يجب أن يكون متفقاً مع بقية الأبيات في الموشح ، في عدد الأجزاء لا القوافي ، بل يحسن أن تكون قوافي البيت مخالفة لقوافي البيت الآخر ، لكنها متفقة في البيت الواحد :

إذ يقود الدهر أشتات المنى　　تنقل الخطو على ما ترسم

زمراً بين فرادى وثنى　　مثلما يدعو الوفود الموسم

فقوافي هذا البيت متفقة بعضها مع بعض لكنها تختلف عن قوافي الأبيات الأخرى .

ويتألف الموشح في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ، ويقال له التام ، وفي الأقل ، من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع ، فالتام ما ابتدئ

فيه بالأقفال والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات ويتركب القفل من جزء إلى ثمانية أجزاء ، وقد يوجد من الموشحات ما قفلها تسعة أو عشرة وهو نادر . ويتكون البيت من ثلاثة أجزاء - أو اثنين وهو نادر - إلى خمسة أجزاء ، وقد يكون ثلاثة أجزاء ونصف والجزء من البيت قد يكون منفرداً وقد يكون مركباً من فقرتين أو ثلاث - أو أربع وهو نادر -[1]

وللموشح خصائص ومميزات يجب أن تتوفر فيه ، فأوزانه موسيقية خفيفة سريعة الضربات أكثر أجزائها قصيرة متلاحقة ، لكي لا يتعذر تلحينها وإنشادها ، فقد اخترعت الموشحات من أجل الغناء والملاحظ أن أكثر البحور استعمالاً هي الرمل والمديد وما يتفرع منها .

وأغراض الموشحات هي الأغراض التي تتلاءم مع روح الغناء كالغزل والخمر ووصف الطبيعة وقد توسعوا أخيراً إلى المديح والرثاء والزهد والهجاء . وأما معانيه فهي لطيفة سائغة ، جميلة الخيال مشرقة الصور ، لكنها في الغالب معادة مرددة لا تعمق فيها ، قليلاً ما يعثر المدقق على معاني جليلة لأنها تعتمد على الموسيقى وجمال الألفاظ .

وأما لغتها فلينة ، ولها تعابير خاصة لا تكاد تتعداها في وصف الطبيعة والغزل وذكر الخمر . وألفاظها جميلة موسيقية سهلة رقيقة ، تمتاز بالحلاوة والطلاوة ، والكثير فيها استعمال اللفظ العامي ومزجه باللفظ الغريب . ويلتزم فيها الصناعة البديعية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وتشبيهات

• • •

وقد افتتن الصفي بالموشح افتتاناً عظيماً وأحبه حباً جماً ففي ديوانه اثنتا عشرة موشحة مختلفة الأسماط والأغصان ، متنوعة القوافي والأوزان ، متباينة المقاصد والأغراض ، في المديح والغزل والشكر والتصوف .

واتبع الصفي المتقدمين في كل شروط فن الموشح ، وقد نظم هذه

---

(١) دار الطراز لابن سناء الملك ص ٢٥

الموشحات في الأبحر التي كثر استعمالها في التوشيح كالمديد والرمل والمنسرح والمقتضب وما تفرع منها من أجزاء وتفعيلات وكان يستعمل الأجزاء المتفق عليها في القفل والبيت دون زيادة . وأما القوافي فقد اتبع فيها ما فعله المتقدمون أيضاً ، فكانت قوافي البيت الواحد متفقة كلها مختلفة مع قوافي البيت الآخر . فقوافي هذا القفل :

خذ من الدهر لي نصيب   واغتنم غفـلة القدر
ليس طول المدى يصيب   صفو عيش بلا كدر

تتفق مع قوافي القفل الثاني وهو :

فارشف الراح يا حبيب   إن في ذاك معتبر
أترى الشمس إذ يغيب   نـورها في فم القمر

أما هذا البيت :

فاجلُ لي كاعباً عروس   لم ترعها يـد المزاج
نشرها عطـر الكؤوس   وكسا نورها الزجاج
في الضحى تشبه الشموس   وهي تحت الدجى سراج

فقوافيه متفقة بعضها مع بعض لكنها تختلف عن قوافي البيت الثاني وهو :

في رياض بهـا الشقيق   قـد جلا بهجة التمام
وزهى زهوها الأنيـق   إذ بكت أعين الغمام
وانثنى غصنه الوريـق   فشدت فوقه الحمـام

ولما كان مثل هذا الالتزام لقافية الأقفال في الموشحة كلها مما يبعث على السأم ، فقد استعمل الصفي ذيلاً مغايراً في الروي للقافية الموحدة في الأقفال مما يبعد الضجر ويخفف السأم :

زار وصبغ الظلام قد نصلا   بدر جلا الشمس في الظلام ألا فاعجب

والقفل الثاني :

وأدهم الليل منه قـد جفلا   وقد أتى رائد الصباح على أشهب

ولغة موشحاته عذبة فصيحة ، سهلة موسيقية الألفاظ حسنة الاتساق ، جميلة الجرس إلا أنه لم ينس أن يتخلص في بعض موشحاته (بخرجة زجلية) . والخرجة الزجلية هي القفل الأخير من الموشح ويشترط فيها أن تكون « من قبل السخف قزمانية من قبل اللحن حارة محرقة حادة منضجة من ألفاظ ولغات الداصة ـ أي اللصوص ـ وقد تكون الخرجة الزجلية عجيبة اللفظ بشرط أن يكون لفظها في المعجم أيضاً سفسافاً »[1] وقد صنع ذلك الصفي في موشحته التي مطلعها :

صاحب السيف الصقيل المحلى   جرد اللحظ وألقى السلاحا

وخرجتها الزجلية هي :

(عن مبيت ليلة ما تسمح بقبلة)   لا عدمنا منك هـذا السماحا

وأما الأغراض التي نظم فيها الصفي موشحاته فهي لم تتعد الأغراض التي نظم فيها المتقدمون موشحاتهم ، فقد مدح (الملك المنصور) في موشحتين :

قـد بدا عزه المهيب   وبمنصـوره انتصر
ورأى فتحـه القريب   من أبي الفتح ينتظر
ملك أضحك السيوف   فبكت أعين العدى
جدعت بيضه الأنوف   وردت كفه الصدى
صارم يمطر الحتوف   ويد تمطر النـدى

ومدح (الملك الصالح) في موشحة واحدة منها :

الزهر غدت مسكية الأردان   للمنتشـق
أم أكسبها نشر ثنا السلطان   طيب العبـق
ملك كفت أكنافه كل غريب
كم أبعد بالنوال من كان قريب

---

(١) دار الطراز لابن سناء الملك ص ٣١ — ٣٢

وشكر (الملك المؤيد) صاحب حماة وابنه (الملك الأفضل) على هداياهما بثلاث موشحات واحدة للمؤيد واثنتان للأفضل

أفضتَ عليَّ للنعمى ملابس فصار لديَّ رطباً كل يابس

أأزعم أنني بالمـــدح جازي

وهل يجزى الحقيقة بالمجـــاز

ولـكن في ارتجالي وارتجازي

إذا قصرت فالله المجـــازي

فلو نظمت من مدحي نفائس فأني من قضاء الحق آيس

وتغزل في خمس موشحات مختلفة الأعاريض والفنون منها هذه الموشحة :

يا من حكى الظبي في تلفته وفاقـــه في الدلال والخفر

أتلفتني في الصدود معتدياً فذلَّ عزي وعزَّ مصطبري

تمهَّـــل ، مضنى جفاك تحمَّـل ، ذبت في هواك !

وله موشحة على طريقة المتصوفة مطلعها :

لنا نشوة في الدجى ماشيه بادراكها أصلحت شانيه

نرى ظلهـــا في الضحى والمقيل

أشدَّ وطـــاء وأقوم قيـــل

وألقت على الضد قولاً ثقيـــل

فـكانت لأنفسنا هـاديــه ولكنها للعدى واهيــه

ويبدأ الصفي موشحات المدح والشكر بالغزل أو الخمريات ففي موشحته التي هنأ بها الملك الأفضل بالعيد يبدأ بذكر الخمر :

زمان الربيع ربيع الزمان

وحسن الوجود وجود الحسان

وإن البليغ بلوغ الأماني

فبـادر لفضّ ختـــام الدنان

وزوج بماء الحيا السلسل عروساً من الخمر

ومن موشحاته التي بدأها بالغزل مدحه الملك الصالح :

بروحي جؤذر في القلب كانس تراه نافراً في زي آنس

وأحوى أحور الأحداق أبلى

تكاد خدوده بالوهم تدمى

كأن الحسن لما منه تمّا

وآثر أن ذاك الروض يحمى

غدا للروض في خديه غارس وظل له بسيف اللحظ حارس

ونرى من هذا أن الصفي قد اتبع المتقدمين في كل شروط الموشحات وخصائصها في الأغراض والمعاني والأساليب والألفاظ واللغة والأعاريض وحتى الخرجة الزجلية استعملها في موشحاته على أنه لم يرض على فنه أن لا يبدع فيه شيئاً جديداً ويكون مقلداً فحسب فاخترع في الموشح جديداً سماه (الموشح المضمن) ، إذ أنه نظم موشحة ضمن أبياتها (بائية أبي نواس الغزلية) التي مطلعها

حامل الهوى تعب يستخفّه الطرب

فقال صفي الدين :

وحق الهوى ما حلت يوماً عن الهوى ولكن نجمي في المحبة قد هوى

وما كنت أرجو وصل من قتلي نوى وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى

ليس في الهوى عجبُ إن أصابني النصبُ

(حامل الهوى تعبُ يستفزه الطربُ)

أخو الحب لا ينفك صبّاً متيما غريق دموع قلبه يشتكي الظما

لفرط البكا قد صار جلداً وأعظما فلا عجب أن يمزج الدمع بالدما

الغرام أنحله إذ أصاب مقلته

(إن بكى يحق له ليس ما به لعب)

وقد طرق الصفي فناً جديداً في الموشح ، وهو (الموشح المجنح) ، وقد سُمي بهذا الاسم لأنه يلتزم فيه اتفاق قافيتي الجزءين الثاني والرابع من أبيات الموشحة كلها ، هذا بالاضافة إلى اتفاق هذه القوافي في الأقفال وبذلك يكون للموشحة قافيتان ، قافية للأقفال وقافية للأبيات كما في قول الصفي :

عزمت يا متلـــفي على السفر واطول خوفي عليك واحذرى
يؤيسني من لقاك قولهم بأنـه لا رجوع للقمـــر
تمهل ، مضنى جفـاك تحمل ، ذبت في هواك
يا من حكى الظبي في تلفته وفاقـه بالدلال والخفــر
أتلفتني بالصدود معتـــديا فذلّ عزي وعزّ مصطبري
تدلل ، مهجتي فداك تمهل ، بعض ذا كفاك

ففي هذه الموشحة قد اتفقت قافية الأقفال - كما يشترط ذلك في فن الموشح - وهي (جفاك) و(هواك) في القفل الأول وتتفق مع (فداك) و(كفاك) في القفل الثاني وتتفق إضافة إلى ذلك قوافي البيت الأول ، (حذري) و(للقمر) مع قوافي البيت الثاني وهي (الخفر) و(مصطبر) ليس هذا فقط وإنما جعل أول كلمة في الصدر بوزن وقافية أول كلمة في الصدر . كما في (تمهل) و(تحمل) في قوله

تمهـل ، مضنى جفـاك تحمـــل ، ذبت في هواك

ولعل هذا هو السبب في تسميته بـ (الموشح المجنح) فقد قيل أجنح الرجل في مقعده إذا انكب على يد واحدة ، وقال (الأزهري) الرجل يجنح إذا على المشي يمهله بيده وقدميه[1] وهذا الموشح يعتمد على اتفاق قافية الأقفال ، واتفاق قافية الأبيات ، ولذا سُمي بالمجنح .

وكان لا يكاد يسمع بموشحة نالت حظاً من الشهرة إلا وعارضها ، فقد عارض موشحة (غيلان الغول المصري) التي يقول فيها :

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (جنح)

شربنا سلافاً بلا آنيه   فلا تحسبوا عينها آنيه

فقال الصفي وقد التزم تجنيس القلب :

لنا نشوه في الدجى ناشيه   بادراكها أصلحت شانيه

ترى ظلها في الضحى والمقيل

أشد وطاه وأقوم قيل

وألقت على الضد قولاً ثقيل

فكانت لأنفسنا هاديه   ولكنها للعدى داهيه

فهناك (ناشيه) مقلوب (شانيه)

وهنا (هاديه) مقلوب (داهيه)

وقد يقترح عليه أحد السلاطين أو بعض أصدقائه نظم موشح يعارض به موشحاً مشهوراً كما طُلب منه عمل موشحة يعارض بها موشحة (أبي بكر بن تقي الدين المغربي) التي أولها

لست من أسر هواك محلا   لو يكن ذا ما طلبت سراحا

فقال الصفي :

صاحب السيف الصقيل المحلى جرّد اللحظ وألق السلاحا

لك يا رب العيون القواتل

ما كفى عن حمل سيف وذابل

أعين تبدو لديها المقاتل

ما سرى في جفنها الغنج إلا   أوثقت منا القلوب جراحا

٢ – المسمطات :

والمسمطة قصيدة تبدأ ببيت مصرع ثم بعده أربعة أقسام (شطرات) على غير قافية البيت الأول ويليها قسم خامس تتفق قافيته مع قافية البيت الأول

الذي بدئت القصيدة به ، وهكذا إلى آخر القصيدة . مثال ذلك قول امرئ القيس :

توهمت من هنـد معالم اطلال   عفاهنّ طول الدهر في الزمن الخالي

* * *

مرابع من هند خلت ومصائفُ   يصيح بمغناها صدىً وعوازفُ
وغيّرها هوج الرياح العواصفُ   وكل مسف ثم آخر رادفُ
باسحم من نور السماكين هطّالِ

فالبيت الأول في هذه القصيدة مصرع لاتفاق (اطلالِ) و(الخالي) وقد اتفق معها آخر القسم الخامس بكلمة (هطال) أما الأقسمة الأربعة فقد اتفقت بالكلمات مصائفُ وعوارفُ ، والعواصف ، ورادف ولا تتكرر القافية الفائية في الأبيات الأخرى وإنما تكون كما يريد الشاعر ، إلا أنه يجب أن يجعل قافية الأقسمة الخامسة في القصيدة كلها تتفق مع (الخالي) و(هطالِ) وهذه القافية تسمى (عمود القصيدة)[1] . وقد تكون القصيدة المسمطة بأقل من أربعة أقسمة كقول أحدهم

خيال هاج لي شجنا   فبت مكابداً حزنا
عميد القلب مرتهنا
بذكر اللهو والطرب
سبتني ظبيــة عطل   كأن رضابهـا عسل
ينوء بخصرها كفل
ثقيل روادف الحقب

وقد يبتدئ الشاعر مسمطته بأكثر من بيت واحد - أربعة أبيات أو خمسة -

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١١٩

الأُول منها مصرع .. وبعدها يأتي بالأبيات ذات الأقسمة الخمسة كقول خالد القناص :

لقد نكرت عيني منازل جيران كأسطار رق ناهج خلق فاني
توهمتها من بعد عشرين حجة فما استبين الدار إلا بعرفان
فقلت لها : حييت يا دار جيرتي ابيني لنا أنى تبدد إخواني
وأي بلاد بعد ربعك حالفوا فان فؤادي عند طيبة جيراني

* * *

وما نطقت واستعجمت حين كلمت وما رجعت قولاً وما أن ترمرمت
وكان شفائي عندها لو تكلمت إلي ولو كانت أشارت وسلمت
ولكنها ضنت علي بتبيان(١)

وهذا الفن الشعري قريب من الموشح - إلى حدٍ ما - ولكنه ليس بالموشح وقد استعمله الشعراء للتخلص من إلتزام القافية الواحدة كما في القصيد ، وبخاصة حين يريد الشاعر أن يطيل فيتحرر من بعض قيود القافية . أضف إلى هذا جمال التنويع وتبديل نغمات القوافي .

وسميت هذه القصائد بالمسمطات ، وسمي هذا الفن (فن التسميط) مشتقاً من (السمط) ، وهو سلك اللؤلؤ الذي يضمه ويجمع حباته ، لأن هذا الشعر متفرق القوافي تجمعه وترده إلى البيت الأُول قافية واحدة هي التي في الشطر الخامس ، كما تجمع اللآلئ والخرز في عدة سلوك ثم تجمع معاً في سلك أو نحو ذلك حتى يتم السمط

وقد نظمت هذه المسمطات في أوزان كثيرة كالرجز وغيره . ولكن أكثر ما نظم كان في نوعين من الرجز هما المشطور والمنهوك(٢)

وقد ينظم الشاعر هذه المسمطة كلها بنفسه ، وقد يسمط إحدى القصائد

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢١

الشهيرة للشعراء المتقدمين وذلك بأن ينظم مع كل بيت من أبيات القصيدة ثلاثة أجزاء تكون ، الأول والثاني والثالث ، وتتفق كلها مع قافية الجزء الأول من البيت الأصيل فيكون رابعاً لها ، ويكون الجزء الثاني خامس الأقسمة وقد يسمى هذا بالتخميس وتسمى القصائد المخمسات . كتخميس صفي الدين لقصيدة السموءل ومنها

(١) يريك الثريا من خلال شعابه (٢) وتحدق شهب الأفق طول هضابه
(٣) ويمتز خطو السحب دون ارتكابه (٤) (رسا أصله تحت الثرى وترابه)
(٥) (إلى النجم فرع لا ينال طويل)

فالأجزاء الأول والثاني والثالث من شعر صفي الدين والرابع للسموءل وهي متفقة كلها في القافية والخامس للسموءل أيضاً وهو مختلف عنها في القافية لكنه متفق مع جميع الأجزاء الخامسة للمسمط .

ولا شك أن النوع الأول (التسميط) أكثر أصالة من الثاني (التخميس) ، إذ أن الشاعر في التخميس يكون مقيداً بقيود كثيرة ، تمنعه من أن يكون حراً يتصرف بالشعر كما يشاء ، ويبدع فيه كما يريد ، وأن يعبر عما يحس وما يرى تعبيراً صادقاً فهو هنا مقيد بقوافي الأبيات لا يحيد عنها ، ويجب عليه أن يكمل المعاني والأبيات التي يريد تخميسها ليكون السمط وحدة موحدة المعنى

* * *

وقد نظم الصفي ثلاث مسمطات مدح باحداها (الملك المنصور) وقد بدأها بوصف الطبيعة قائلاً

دارت على الدوح سلاف القطر فرنحت أعطافه بالسكر
ونبه الورق نسيم الفجر فغردت فوق الغصون الخضر
تغني عن العود وصوت الزمر

وأما الثانية فشكر بها (الملك الأفضل) على إنعامه وهباته وهنأه بعيد الفطر ومطلعها :

قم بي فقد ساعدنا صرف القدر　　وجاء طيب عيشنا على قـــدر
فـكم علا قدر امرئ وما قدر　　فارضع بنا در الهنا إن تاق در
فالشهم من حاز السرور إن قدر

والمسمطة الثالثة في وصف الصيد ويبدأها بوصف الطبيعة فيقول :

أما ترى الأنوار والسحائبا　　قـد أصبحت دموعهـا سكائبا
فاكتست الأرض بها جلابيا　　فأظهرت أزهارها عجـــائبا
غرائباً أضحت لهـا رغائبـا

ونجد أن الصفي جعل الصيد أهم غرض في هذه المسمطات بالرغم من أنه مدح في واحدة وشكر في الثانية ، فان المهمة الأولى في كل مسمطاته هو الصيد لا غير . فالمسمطة الأولى التي مدح بها الملك المنصور تتكون من خمسة وثلاثين قسماً خمسة أقسام منها في وصف الطبيعة وتسعة عشر في الصيد وأحد عشر في مدح المنصور . وهو يصور فيها الصيد ويذكر حيواناته وطيوره وأنواعها ، ويصف القسي وصناعتها ، ويصف حادثة برهن فيها على مهارته في الصيد ، ويختمها بالدعاء للمنصور قائلاً

لا برحت أفراحكم مجدّده　　وأنفس الضد بكم مهدّده
وأربع المجد بكم مشيّـــده　　والأرض من آرائـكم ممهده
والدهر بالأمن ضحوك الثغر

وأما الثانية التي يشكر فيها (الملك الأفضل) على إنعامه ويهنيه بعيد الفطر فتتكون من تسعة وعشرين قسماً ، عشرة منها في الملك الأفضل ، والباقي كله في الصيد ووصف الصيادين وأحوالهم ومهارتهم وحيلهم وصفاتهم وأنواع الطير وأسمائها ، ويختمها بتهنئة الأفضل بالعيد فيقول :

فاسعد بعيد فطرك السعيد　　ممتّـــعاً بعيشك الرغيـــد

في الصوم والافطار والتعييد   للناس في العام انتظار عيد
وأنت عيـــد دائم لا يُنتظر

والمسمطة الثالثة في الصيد ، وهي ثلاثون قسماً ، ثلاثة منها في وصف الطبيعة ، والباقي في الصيد ، فوصف القوس والبندق ، وطريقة الصيد ، وأنواع الطير وعاداتها وأحوالها وغير ذلك ، وختمها بقوله :

فيا لهـــا من فرحة لو تمَّتِ   كنت وهبت للقديم مهجتي
ولم يكن ذو قدمـــة كقدمتي   بل فاتني الثـاني وكانت همتي
ترى جلاء الجوّ منه واجبا

ونلاحظ أن هذه المسمطات طويلة النفس ، فأصغرها مكونة من تسعة وعشرين (مقطوعة) أي (١٤٥) شطرة فهي تساوي قصيدة تقرب من خمسة وسبعين بيتاً وهذه المسمطات تمتاز بسهولة اللغة وخلوها من الغريب وعذوبة الأسلوب وجمال الألفاظ ودقة المعاني . وهي جميعها في بحر واحد هو بحر الرجز فكأن الصفي أبى أن يقول الصيد في غير بحر الرجز . وقد أبدى الصفي براعة عظيمة في هذه القصائد ، وأبدع أحسن الابداع ، فليس أجمل من وصفه للطبيعة بقوله

هذي الروابي بالـكلا قد توّجتْ   ونسمة الخريف قد تأرّجتْ
وقد صفت مياهه ورُجّجت   والأرض بالأزهار قد تدبجت
وأصبح الطلُّ عليها ساكبا

وليس أبدع من دعوته الانسان إلى اغتنام الفرص في زمانه القصير قائلاً

لا تسكب الدمع على عيش مضى   ولا تقلْ كان زمان وانقضى
واغتنم الغفلة من صرف القضا   فالموت كالسيف متى ما ينتضى
تضحي لنا أعمارنا ضرائبا

ويجدر بنا ، هنا ، أن نذكر أن الصفي لابد أن استفاد من شاعر اشتهر بهذا

الفن ، ونظم المسمطات الطردية العظيمة فأبدع فيها وهو (عمر بن السفت) وكان رامياً ماهراً ، يصف في أشعاره ما يعمل في أسفاره وله

هيج لي البرق على الخيف اضا طيب ليالينا على وادي الغضا
معْ طيب عيش قد تولى ومضى آه له لما تولى وانقضى
بل آه والهفي على تلك الدول
أتهم في أفق السما وأنجدا وقهقه الرعد بـه ثم حدا
فصحت مما حـلّ بي وأكمدا يا سعد إن كنت زميلا مسعدا
قف بالحمى دون الكثيبين وسل

فنلاحظ أن الصفي قد أفاد كثيراً من صور وألفاظ وعبارات هذا الشاعر

* * *

وبجانب هذه المسمطات نجد سبع مخمسات هي :

واحدة في الرثاء ، فقـد خمس (نونية ابن زيدون) المشهورة راثياً (الملك المؤيد اسماعيل) صاحب حماة ، وقد مر ذلك في الكلام عن الرثاء .

واثنان في الغزل الأولى تخميس قصيدة الشيخ مدرك الشيباني المربعة التي يتغزل فيها بغلام نصراني فقال :

من عاشق ناء هواه دانِ ناطق دمع صامت اللسان
موثق قلب مطلق الجثمان معذب بالصد والهجران
طليـق دمع قلبه في أسر
من غير ذنب كسبت يداهُ غير هوىً نمّت به عيناه
شوقاً إلى رؤية من أشقاه كأنما عافاه من أبلاه
إذ كان أصل نفعه والضر

ونلاحظ أن الصفي لم يتبع في تخميس هذه القصيدة طريقة التخميس المعروفة إذ أنه أضاف الشطر الخامس في كل جزء منها وذلك لأن القصيدة مربعة الأجزاء وبذلك يكون هو صاحب الأشطر الخامسة والقافيـة في هذه

القصيدة . والثانية تخميس لأبيات (محيي الدين بن زيلاق) التي مطلعها

بعثت لنا من سحر مقلتك الوسنا سهاداً يذود النوم أن يألف الجفنا

وأربع قصائد في الحماسة ، إذ خمّس قصيدة السموءل الحماسية التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنسْ من اللؤم عرضه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

فقال

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه وطول الفلا رحب لديه وعرضه
ولم يبل سربال الدجى فيه ركضه (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه)
(فكلُّ رداء يرتديه جميل)

وقصيدة قطري بن الفجاءة التي مطلعها

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لا تراعي

فقال :

ولما مدت الأعداء باعا وراع النفس كرهم سراعا
برزتُ وقد حسرتُ لها القناعا (أقول لها وقد طارت شعاعا)
(من الأبطال ويحك لا تراعي)

وخمّس الصفي كذلك فاتحة الحماسة وهي

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

فقال

يا للحماسة ضاقت بينكم حيلي وضاق حقي بين العذر والعذل
فقلت مع قلة الانصال والخول (لو كنت من مازن لم تستبح إبلي)
(بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا)
لو أنني برعاة العرب مقترب لهم نزيل ولي في حيهم سكن
ومسني في حمى أبنائهم حزن (إذا لقام بنصري معشر خشن)
(عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا)

والصفي في هذه القصائد لا يبعد عن روح الشاعر في المعنى والتعبير والاحساس والعاطفة ، لأنه كان يختار القصائد التي يرى أنها تعبر عن إحساسه ، ففي تخميسه لقصيدة السموءل يقول :

وعصبة غدر أرغمتها جدودنا فبات ومنها ضدنا وحسودنا
إذا عجزت عن فعل كيد يكيدنا (تعيرنا أنا قليل عديدنا)
(فقلت لها : إن الكرام قليل)
يوازي الجبال الراسيات وقارنا وتبنى على هام المجرة دارنا
ويأمن من صرف الزمان جوارنا (وما ضرنا أنا قليل وجارنا)
(عزيز وجار الأكثرين قليل)

ولا شك في أن الروح في هذه الأبيات واحدة عند الصفي والسموءل ، وأن التعبير والأسلوب وكل شيء لا يختلف في هذه الأبيات الأصلية عما في التخميس ، حتى لنكاد نحس أنها لشاعر واحد .

٣ ـ الزجل :

حين اتسعت رقعة البلاد الاسلامية بالفتوحات الكثيرة شملت أقطاراً عديدة ، واختلط العرب بالأمم وتأثروا بهم في كل شيء ، ضعفت لغة العرب ، ودخل فيها الكثير من الألفاظ الأعجمية وصاروا يجدون صعوبة في التكلم بها ، فتكلموا بلغات عامية جديدة تختلف بعض الاختلاف بين بلد وآخر وتمتاز هذه اللغات ، بسهولتها ، وخلوها من الاعراب ، وكثرة الألفاظ الأعجمية فيها ، واستعمال التعبيرات الشعبية والاصطلاحات اليومية وطغت هذه اللهجات في العصر المغولي حتى زاحمت العربية في كل ميدان ،

وبدأ الشعراء يحاولون أن يكون شعرهم المنتزع من بيئتهم معبراً بنفس

اللغة اليومية التي يتكلمون بها ويتعاملون ، أي أن يكون شعراً عامياً خالياً من الاعراب ، وساعد على ذلك وشجعه السلاطين الأعاجم لصعوبة الفصحى وسهولة العامية وقد امتنع الشعراء والأدباء في بادئ الأمر عن ذلك ، وحاولوا محاربة الأشعار العامية ، واعتبروها انحطاطاً بالشعر ونكسة بالأدب ، ورجوعاً بالفن إلى الوراء ، وظلوا ينظمون الشعر الفصيح ويترفعون عن العامي . لكنهم لم يجدوا بداً ، في آخر الأمر ، من السير في ركاب التطور ، فنظموا الشعر العامي .

والشعر العامي هذا عدة أنواع أهمها أربعة فنون هي : الزجل ، والمواليا ، والكان وكان ، والقوما ومعرفتها ـ كما قال الصفي ـ بالطبع السليم ، وآفتها من الفهم السقيم فليس لها قواعد ثابتة تسير عليها ، ونظم مؤكدة تتبعها بل يعتمد فيها على الذوق والفهم والطبع السليم ولهذا كان من الصعب على الدارس أن يخضعها للدرس والبحث والنقد ومع هذا فهناك قواعد عامة لكل فن ، وميزات ظاهرة يجب أن تتوفر فيه .

وقد ألف صفي الدين كتاباً في الأشعار العامية سماه (العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي) درس فيه فنون هذا الشعر من زجل ، ومواليا ، وقوما وغيره ، وأنواعها وشروطها وتفاعيلها وأوزانها وقوافيها وما يجوز فيها وما لا يجوز ومثل لكل نوع بنماذج من الشعر الأندلسي ونماذج من شعره هو ويعتبر هذا الكتاب الوحيد في دراسة هذه الفنون بالرغم من أنه لم يف بالغرض تماماً فلم يؤلف أحد من قبل الصفي في دراسة هذه الفنون ولا من بعده .

* * *

والزجل أرفع الأشعار العامية رتبة وأشرفها منزلة ، وأكثرها أوزاناً وأرجحها ميزاناً . أوزانه متجددة وقوافيه متعددة .

والزجل في اللغة الصوت ، ويقال سحاب زجل إذا كان فيه رعد ،

ويقال لصوت الأحجار والحديد أيضاً والجماد : زجل[١] والزجل التطريب ورفع الصوت[٢] وخص به التطريب ، وأنشد سيبويه :

له زجل كأنه صوت حاد　　　إذا طلب الوسيقة أو زمير[٣]

اخترع هذا الفن أهل الأندلس فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال حسب لغتهم المستعجمة وأول من أبدع في هذا الفن (أبو بكر بن قزمان) ، فهو وإن كان هذا الفن قد قيل قبله بالأندلس لكنه لم يظهر حلاه وروعته ، ولا اشتهرت معانيه ورشاقته إلا في زمانه فكان هو إمام الزجالين ، وقد رويت أزجاله في بغداد أكثر منها في الأندلس[٤] وقيل إن مخترعه غير هذا ، ومنهم من قال إنه (عمر بن غرلة) وقد استخرجه من الموشح . ومنهم من قال إنه (مخلف بن راشد) ، وكان إمام الزجل قبل (ابن قزمان) ، فلما جاء ابن قزمان نظم السهل الرقيق فمال الناس إليه . وقيل إنه (مدغليس)[٥]

وكانت الأزجال الأولى قصائد كقصائد القريض ، وأبياتاً على عروض الشعر العربي بقافية واحدة ، ولا تختلف عن القصيد إلا باللحن واللفظ العامي ، ويسمونها (القصائد الزجلية) . ثم نوعوا أوزانها وقوافيها وجعلوا لها أقفالاً وأوزاناً ونوعوا في الأوزان وخالفوا فيها فصارت كأوزان الموشح ، بعد أن كانت كالقصيد ، وأصبحت قافية الزجل كذلك منوعة مختلفة .

وقد قسمه مخترعوه أربعة أقسام ، فرقوا بينها بمضمونها أو غرضها وبالأوزان واللزوم : الأول ما تضمن الغزل والنسيب والخمر والزهد ويسمى (الزجل) والثاني ما تضمن الهزل والخلاعة ويسمى (البليق) والثالث

(١) العاطل الحالي ورقة ١٨ (مخطوط)
(٢) القاموس المحيط للفيروز أبادي ، مادة (زجل)
(٣) لسان العرب لابن منظور ، مادة (زجل)
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤
(٥) العاطل الحالي ورقة ٢١ — ٢٢

ما تضمن الهجاء والثلب ويسمى (قرقيا) . والرابع ما تضمن الوعظ والحكمة ويسمى (المكفر)[1]

وأطلقوا على ما أعرب جزء منه وأهمل الجزء الآخر اسم (المزنّم) فهو ملحق بالموشح لاعراب بعضه ، وبالزجل للحن بعضه الآخر فما أعرب هو الموشح وما خلا من الاعراب الزجل ، والمزنم وسط بين هذا وذاك .

ولكل أمة زجل يجري على ألسنة شعرائها ، بما في لغتها من خصائص ومميزات من إدغام بعض الحروف ، ومن مدٍ وإمالة وقطع ، ومن تغيير حرف بآخر ، وغير ذلك فللأندلسيين زجل ، وللمصريين زجل ، وللعراقيين زجل . . .

ويمتاز الزجل بسهولة اللفظ ، وحسن السبك ، والرقة والعذوبة .

* * *

وللصفي أزجال كثيرة أورد منها (أحد عشر زجلاً) في هذا الكتاب ـ العاطل الحالي ـ وقد اتّبع فيها قواعد مخترعي الزجل ، وامتنع ـ كما قال ـ عن العيوب التي يجب ألا يقع فيها الشاعر لئلا يقال إنه اضطر إلى ذلك لضعف قدرته ، فها هو ينظم زجلاً على عروض زجل لشاعر مصري إسمه علي فيقول :

نعشق قمر   قد طلع   في تمامو
عقلي قمر   حين خلع   غيم لثامو
سيد السمر   بالله مص   ذب كلامو
متركّ اللحظ   أحور   مستعرب اللفظ   أسمر

ويقول إن الشاعر رغم أنه نظم ما لا يتبعه أحد في البلاد ، فقد خلص لزوماته كما يجب ، وكانت في كل بيت (إحدى وعشرين قافية) . فزادها الصفي قافيتين وجعلها (ثلاثاً وعشرين قافية)

---

(١) العاطل الحالي ورقة ١٨

ونلاحظ أن أكثر أزجال الصفي منظومة على عروض أزجال معروفة ليبرهن بها على براعته ومهارته ، إذ يزيد عليها ويلتزم ما التزم شعراؤها في زجلهم ، ويجوّد في معانيها .

وألفاظ الصفي في أزجاله سهلة مختــارة ، كثير منها قريب إلى ألفاظ الفصحى ولم نجد في هذه الأزجال - وفي غيرها من فنون الشعر العامي - من الألفاظ العامية والتعبيرات الشعبية ما بقي منتشراً حتى اليوم إلا قليلاً بل قليلاً جداً . فقد وجدنا (اش عليَّ) بمعنى أي شيء عليَّ ، ويراد بها « ليس لي أي دخل » في مثل قوله :

صرتم حكيَّه شرحها نقل إليَّه أنتم هتكتم عرضكم فأنا اش عليَّ

وكلمة (الزغلات) بمعنى الغش في اللعب في مثل قوله :

أي من لعب بقلبي بحكم شطرنج الهوى
وغرني وغلبني بكثرة الزغــلات

ومن ذلك حذف همزة إن وإضافة الواو إلى النون فتكون (وِن) كقوله :

وِن طلب وصفو شعري قال فكري صب لذا جمعو

و « معذب » بمعنى ما أعذب . كقوله :

سيد السمر بالله معـــذب كلامو

ولعل سبب هذا أن الصفي كان يتكلم بلغة الخاصــة ، لغة الأدباء والعلماء ، فهي مهذبة الألفاظ بعيدة عن كلام العامة قريبة إلى الفصحى . وقد وجدنا الصفي يرفع أواخر بعض الكلمات التي يقف عندها ، كما هو في العامية المصرية اليوم فيقول : « كلامو » أي كلامه و « أخاصمو » أي أخاصمه كما في قوله :

نعشق صغير لي شهر سيف عنادو
قلبي الكبير والنظر طوع مرادو

وقوله : وقفت يوم لحبيبي حتى أعتبو وأخاصمو
فقلت ، وقال : جوابي بالغمز بالأجفان

هذا بينما العامية العراقيـــة تحرك هذه الحروف بالفتح فتكون (عنادَه) و (مرادَه) و (أعتبَـه) و (أخاصمَـه) .

ولـكن معظم ألفاظ أزجاله ـ وغيرها من فنون الشعر العامي ـ من الفصيح يبين ذلك قوله :

يا ما لقيت　　من دعج　　ذي المقـله
قلبي يبيت　　منزعـــج　　كل ليـــله
وقد بقيت　　كـنّي مجـ　　ـنون ليـلى

أو قوله

ليس غريب من فارق أوطانو　　أو بعد عن ناظرو المحبوب
إلا من دارو قبـل دارو　　والحبيب عن ناظرو محجوب
حتى عني حجبوه أهلو　　وأسرفوا في جمع حفاضو
والرقيب قد غيبو عني　　حتى عني قيـد ألفاظو
كل يوم لأجلو يغيظ قلبو　　رب يحفظ قلب الذي غاظو

ونجد في هذه الأزجال بعض المحسنات البديعة كقوله في الجناس :

أصير　　إن خطر　　أسير　　في خطر

وأما معانيه فهي بديعة يختارها اختياراً ، ويغوص عليها إلى الأعماق ، ولسنا ندري أكل معاني أشعاره العامية بهذه الجودة أم أن هذه الجودة تختص بما اختاره وأثبته في هذا الـكتاب فحسب ؟

وهذه الأزجال كلها في الغزل والخمريات ما عدا بليقين في الشكوى واحدة في شكوى مشقة الصوم . فمن خمرياته هذا الزجل الجميل :

جنى والـكاس والزهرة والراووق والطيور والسحاب
ستة في مجلس ثلاث تضحك وثلاث في انتحاب

جيت صبـاح اليوم نستجلي　　شمس الراح على وجه الحبيب
وبقيت نجتلي من ألفاظو　　كل معنى غـــريب

ريت عشرة أشيا مقسم قسمين أيش غريب من قريب
در ثغرو ولفظو والأقراط والأقداح والحباب
وشماع خدو والشفق والكاس والشقيق والتراب

ومن أزجاله الغزلية الرقيقة ما نظمه جواباً (لشهاب الدين أحمد) في دمشق :

إش تجد لك بقتلتي غبطة يا الذي تعشقو
لو تدع ما تبقى من عمري كان عليك ننفقو
بالله يستعبد القلوب حسنك يا لطيف اللطيف
جل من لطفك ومن خصك بالفعال الكثيف
وجمع فيك مع قلة إنصافك كل معنى ظريف
قط ما نطلب من الجمال معنى ألا فيك نلحظو
لو تصيب من قديم جمال بالله كان تسرقوا

ومهما يكن فأزجاله خفيفه ، وليس فيها ثقل ولا ما ينبو عن الأذن والذوق .

٤ ـ المواليا :

اخترع هذا الفن أهل واسط ، وله وزن واحد ، من بحر البسيط ـ مستفعلن فعلن مستفعلن فعل ـ ويتكون من بيتين لهما أربع قوافٍ على روي واحد ففي هذا الموالي :

أغنت وأفنت كفوفك في الندى والحرب
في البعد والقرب من في الشرق ومن في الغرب
وفيض جودك وسيفك في العطا والضرب
ذا فرّج الكرب وذا رمى في القلوب الكرب

نجد أن الروي ، وهو حرف الباء متفق في الأجزاء الأربعة كلها في الكلمات : الحرب ، الغرب ، الضرب ، الكرب .

ونظموا فيه باللفظ القوي الجزل في الغزل والمديح والصناعات وأغراض القريض الأخرى ، كقولهم في الغزل :

ما بين أكناف راكس من حمى التنليم
شـــرقي حزوي لبا زات القضا ترسيم
ودون آرام رامــه يسبق التسليم
نبـل يشق المرابر من لحـاظ الريم

وقولهم في المديح

أضحت أنوف القنا ترعف وبيض الهنـد
تضحك وتنتحب الهـامات خوفـاً عند
لقـا سنان ابن عاصم مطعم الافرند
لحم الحجاج ومن أعيا أســاة السند

وكان يجوز فيه الاعراب واللحن وليس معنى هذا أنه يجوز جمع الاثنين في موالي واحد ، كما هو الحال في الزجل المزنم ، فهذا عيب كبير في الموالي وإنما يجوز أن يكون هناك موالي معرب وموالي خالٍ من الاعراب

ولم يزل كذلك حتى اقتبسه أهل بغداد فلطفوه ونعّقوه ورققوه وحذفوا الاعراب منه واعتمدوا على سهولة اللفظ ورشاقة المعنى ، ونظموا فيه الجـد والهزل حتى شاع في الأمصار وانتشر في البلاد وتداوله كل الناس واشتهر باسم البغداديين ونسب اليهم فقيل موالي بغدادي

وسمي بهـذا الاسم لأنه كان يتداوله العبيد والفلاحون لسهولة تناوله وقصره ، فكانوا يتغنون به على النخيل وعند سقي المياه ويقولون في آخر كل صوت - مع الترنيم - يا مواليا ، إشارة إلى أسيادهم فغلب ذلك الاسم عليه وعرف به

وهو يشارك الزجل في اللحن ، وإبدال بعض الحروف ببعضها . ويختص دون الزجل بالامالة خصوصاً في حروف القافية ، كقولهم

أي من سرد الهوى يلعب عـلى فيرد
ومن جعلني مثـــل للشيرد والويرد
مو أقـــدر أصبر على شيطانك المـــيرد
ولا يمكن غضب خيره جرد بـــيرد

فالقافية هنا ممالة الألف في (فيرد والويرد والميرد وبيرد) وأصلها (فارد والوارد والمارد وبارد) .

* * *

وقد أورد الصفي في كتابه العاطل الحالي من موالياته (واحداً وعشرين صوتاً) ، جعلها ثلاثة أقسام

الأول في الجزل القوي ، وسار فيه سيرة المتقدمين قبل أن يلطفه أهل بغداد ، وله في هذا النوع سبعة أصوات واحد في الحماسة وستة في المدح . قال في الحماسة

إن اقتم النقع كنا الضاربين الهـام
وإن أفاضوا الحجى كنا ذوي الأفهام
وما برحنا بارث الفضـــل والالهـــام
تطوى الخناصـــر لنا أو بعقد الابهام

وفي المدح :

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت
والمخضب الأرض والأمواه قـد غارت
هواطل النجب من كفيك قد غارت
والشهب من شهادت طلعتك قـد غارت

أما القسم الثاني في الصناعات المشكلة ، وهو ثلاثة أصوات ، منها صوت فتح كل كلمة منه بحرف من حروف المعجم

أي بدرتمّ ثقل جورك حصل خمري

دع ذاك ردّ زمن سعدي شفا صدري
ضدي طمع ظن عجزي غار في قهري
كم لج مذ نلت وصلك هات لا يدري

والقسم الثالث في الرقيق على طريقة المتأخرين ، وهو أحد عشر صوتاً في الغزل والتهنئة والعتاب والهجاء قال في الغزل

قالت وقد طاوعت أمري وزال الغدر
ووجهها في الدجى خجل لنور البدر
ما ريت ملاح مثلك حاز هذا القدر
تجذف بخن سفينة وأنت فوق الصدر

وقد أخلى الصفي موالياته من الاعراب ، لكنه ميزه بسهولة اللفظ ورقته ، واتبع كل الشروط اللازمة في هذا الفن كما وضعها مخترعوه ، فالصوت يتكون من بيتين وله أربع قواف على روي واحد ، وقد جعله كله في بحر البسيط ، إلى غير ذلك من مميزات مما أوجبه المتقدمون .

٥ - الكان وكان

لهذا الفن وزن واحد وقافية واحدة ، غير أن الشطر الأول من كل بيت يكون أطول من الشطر الثاني ويجب أن تكون قافيته قبل حرف الروي بأحد حروف العلة دائماً .

اخترع هذا الفن البغداديون ، وانتشر إلى سائر البلاد فتداوله الناس ولكنهم لم يبلغوا به مبلغ البغداديين وسمي بهذا الاسم لأن من اخترعوه كانوا ينظمون به الحكايات والخرافات والمراجعات ، فكان قائله يحكي ما كان وكان ، ولفظة (قال) . لذلك قيل له الكان وكان ، إلى أن كثر واتسع

طريق النظم فيه وظهر مثل الشيخ (جمال الدين بن الجوزي) و (شمس الدين ابن الواعظ) وغيرهم فنظموا فيه المواعظ والزهديات والأمثال والحكم وتداولها الناس ، وظل يسمى بهذا الاسم .

وللصفي في هذا الفن عشر قصائد ، خمس في الغزل وواحدة في تقييد عدد قرى الموصل وما جاورها وذكر أسمائها منها

من كان من (باعشيقا) و (باخذ يدا) تعجبو
يحتـاج إلى (بادني) تايبلغ الآمال
وإن قصد (باطناي) أو صوب (باتلي) طلب
يصبر على (برطلي) ويبـذل الأموال

وأما الغزليات فيحكي في واحـدة منها قصة تصور فساد المجتمع وتدهور الأخلاق في عصره ، إذ يصور طريقة النساء الساقطات في الاحتيال على الرجال لاصطيادهم وابتزاز أموالهم يقول فيها

جازت فقلت إن رتني لا بد أن تلعب معي
ذي لعبها وعبثها أنا أعرفـو إسراف
من أبصرتني تهيت وحركت لي راسها
مثقـلة مشيتهـا وهزت الأعطـاف
قلت صباحاً مبارك قالت على من تـكلمو
قلت إن سمع ما أقلو قالت ولا انخاف

ويتغزل في قصيدة بغلام لعب معه الشطرنج وكان الغلام يغشه في اللعب ويغالطه حتى غلبه

أي من لعب بقلبي بحكم شطرنج الهوى
وغرني وغلبني بكثرة الزغـلات

والله قوى أي بيذق غلبت فرزين الرفع
ولو علمت حسبت لك حسبات
جعلت حظي الأسود وتهت بابيضك النقي بزغلك
وإن عذلتك تقل لي السود للسادات

وهناك غزليه من الفراقيات يصف فيها فراق الحبيب ويبين أثر هجره وما يقاسيه من حزن وألم فيقول

أي سادة هجروني وهم نزول بخاطري
لا أوحش الله منكم في سائر الأوقات
أوحشتم العين مني وإنكم في خاطري
فالقلب في النور منكم والعين في الظلمات

وقد اخترع الصفي نوعاً جديداً في هذا الفن لم يسبق إليه ، فقد جمع عشرين بيتاً مختلفة الأغراض متفقه القوافي والأوزان مجهولة القائل ، ونظم هو عشرين بيتاً في قافيتها ووزنها مكملة لها في المعنى فكانت قصيدة كاملة :

أي من يسرو سخطي وكل أحد راضي منو
وتستريح بو الخلايق وأنا معو تعبان
(الخلق ومن خلق الله تصفك عندي بالكرم
ما أدري الزمان تغير أم شوم حظي كان)
أيش أقدر أعمل بحظي وأيش ينفعني الحسد
يعطي الذليل النائم ويحرم اليقظان
(ما هو بحد الصوارم ولا بعشتبك القنا
هذي هدايا تهدى لمن يشا الرحمن)

ونلاحظ أن لغته في هذه القصائد سهلة رقيقة ، قريبة من الفصحى وأن معاني هذه القطع معظمها من المعاني السامية مثل

لم يبق غير خيالي يلوح كالشبح الخفي
أعد بين الأحياء وأنا من الأموات
ودعتموني وسرتم والقلب يتبع ركبكم
أيش كان لو كان جسمي من جملة التبعات
ما مر ما ريت ضدي يقول لي من فرحتو
هنا تشق المرائر وتسكب العبرات
لو لم أسلي نفسي وأروض نفسي بالمنى
لكان قلبي تقطع من بعدكم حسرات
وقفت لما رحلتم حيران بين أضعانكم
أخفض جناح المذلة وأرفع الأصوات
ما أطول ليالي جفاكم ساعاتها مثل السنة
وما أقصر أيام وصلي كأنها ساعات
مالي أرى حسناتي بالسيئات تبدلت
وسيئات الأعادي تبدلت حسنات
نسكت ونصبر عنكم ويفعل الله ما يشا
فالدهر من عاداتو يقلّب الحالات

٦ - القوما :

اخترع هذا الفن البغداديون ، وقيل أن أول من اخترعه (ابن نقطة) برسم الخليفة الناصر العباسي لكنه - في الحقيقة - وجد قبل ابن نقطة .

وكان الناصر يعجب به فيطلب من ابن نقطة أن يتغنى به كثيراً ، ولهذا اشتهر باسمه

ولهذا الفن صورتان ، الأولى ما يتركب بيته من أربعة أقفال ، ثلاثة منها متساوية في الوزن والقافية ، والآخر - وهو القفل الثالث - أطول منها ويكون مهمل القافية مثل

لا زال سعدك جديد	دايم وجـدك سعيد
ولا برحت مهنـا	بكل صوم وعيـد
في الدهر أنت الفريد	وفي صفاتك وحيـد
فالخلـق شعر منقح	وأنت بيت القصيد

نجد أن القافية في البيت الأول في الأجزاء الثلاثة ، الأول والثاني والرابع هي (جديد ، سعيد ، عيد) متساوية مع ما يناظرها من قوافي البيت الثاني وهي (الفريد ، وحيد ، القصيد) بينما تختلف عنها قافية الجزء الثالث في كل من هذين البيتين ، وهي (مهنا) في البيت الأول و (منقح) في البيت الثاني .

وأما الصورة الثانية فهي مركبة من ثلاثة أقفال مختلفة الوزن متفقة القافية القفل الأول أقصر من الثاني ، والقفل الثاني أقصر من الثالث ، من ذلك قول صفي الدين :

صرتم حكيه شرحها ينقل إليّ أنتم هتكتم عرضكم فأنا اش عليّ
أنا اش عليّ صونكم ماهو إليّ موروا اعلموا ايش ردتم خرجتم من يديّ

فنرى في هذين البيتين أن القفل الأول - وهو صرتم حكيه - أقصر من القفل الثاني - وهو شرحها ينقل إليّ - وهو بدوره أقصر من القفل الثالث وهو - أنتم هتكتم عرضكم فأنا ايش عليّ - ونرى كذلك أن القوافي في الأقفال الثلاثة متساوية وهي في البيت الأول (حكيّه ، إليّه ، عليّ) وهي متفقة

أيضاً مع قوافي البيت الثاني وهي (عليّ ، إليّ ، يديّ)

وقد سمي هذا الفن باسم (القوما) لأنه كان يرتل في شهر رمضان عند السحور فيقول المتغني به في نهاية كل بيت : « قوما للسحور » ينبه رب المنزل ، فبقي هذا الاسم .

وكانت معانيه المدح والدعاء ومقاضاة الانعام ، ثم بعد أن شاع وكثر نظموا به في الغزل والزهد والعتاب وسائر أغراض الشعر الأخرى

وكل بيت من أبيات القصيدة ، في هذا الفن ، قائم بذاته ولذا يجوز تكرير القوافي في بيتين من القصيدة الواحدة دون أن يكون في ذلك أي عيب

* * *

وللصفي خمس قصائد في هذا الفن ، اثنان من الصورة الأولى ، ذات الأقفال الأربعة المتساوية الوزن يقول في واحدة

لا زال سعدك جديك	دايم وجدك سعيد
ولا برحت مهنا	بكل صوم وعيد
في الدهر أنت الفريد	وفي صفاتك وحيد
فالخلق شعر منقح	وأنت بيت القصيد
يا من جنانو شديد	ولطف رايو سديد
ومن يلاقي الشدائد	بقلب مثل الحديد

وثلاثة من هذه القصائد في الصورة الثانية ذات الأقفال الثلاثة غير المتساوية ، منها هذه القصيدة

كنا مآلك دون إخوانك وآلك	سلبتنا الله يجعلو أول سؤالك
راموا قتالك والأذى منهم أتى لك	وما نفع عنّا انحرافك وانفتالك

واثنان من هذه القصائد في المدح ونظمها للسحور في شهر رمضان ، وهذا هو الغرض الذي اخترع من أجله هذا الفن -القوما- والثلاثة الباقية في الغزل.

ونلاحظ أن الصفي اتبع كل شروط هذا الفن التي وضعها المتقدمون من الشعراء ومخترعي القوما حتى تكرار القافية الواحدة في بيتين من القصيدة ، كقوله

لا زال قدرك مجيد وظل جودك مديد
ولا برحت موقى كما توقى الوليد
لا زلت في كل عيد تحظى بمجد سعيد
عمرك طويل وقدرك وافر وظلك مديد

فقد كرر في هذين البيتين كلمة مديد ، وليس بينهما إلا بيت واحد .

الفصل الخامس

منزلته في الشعر العربي

وأنشد من شعري لهم كل جزلة ... تحلى بها أسماعهم وتشنف
قصائد في ألفاظهن مقاصد ... من الصخر أقوى بل من الماء ألطف
اذا رام أهل العصر نظماً لمثلها ... وجاءوا بلفظ دونها وتكلفوا
ظننت حبال السحر ما قد أتوا به ... وتلك عصا موسى لها تتلقف

١ – تقليده :

يبدأ الفنان أو الأديب حياته بالتقليد ، فليس لديه من المواهب ما يستطيع أن يكمل عمله الفني ، ومواهبه لا تزال في دور التكوين ، وفنه محتاج إلى اخراج وصقل وتهذيب ووسائل الأداء والتعبير لا تزال ساذجة عنده ، فهو لا يستطيع أن يقوى للوقوف على قدميه ، لذلك يضطر إلى البحث حوله ليجد ما يستعين به على الوقوف والسير ، كالطفل الذي يبدأ تعلم المشي متوكئاً على كل ما يصادفه أمامه ، سواء بسواء فالشاعر يستعين بالمتقدمين من الشعراء ، يقرأ دواوينهم ويحفظ أشعارهم ، ويستوعب معانيهم ، وتطبع صورهم وتعابيرهم في مخيلته فيكوّن ثروة من المعاني والصور ، ونصيباً من الألفاظ والتعابير ، فيخصب خياله ، ويرهف حسه ، ويقوى تفكيره ، ويمكنه أن يسير شيئاً فشيئاً في التجويد ، ويرتقي سلم المجد قليلاً قليلاً . فاذا ما أحس أنه وصل إلى مكان يستطيع أن يظهر فيه بين الناس بمظهر لائق ، وصار في حال يمكنه أن يفخر فيه بما عنده ، يبحث عند ذلك عن شخصيته

وذاته ، ليعرف مواهبه وخصائصه ومميزاته ، فاذا تبين له ذلك تمسك به ولم يفارقه إلى الأبد

وهذا ما مر به الصفي فعلاً ، فحين شبَّ عن الطرق - على حد تعبيره - أصبح لهجاً بالشعر حفظاً ونظماً ، فكان يحفظ شعر الشعراء ويقرأ دواوينهم ويتأثر بهم ؛ بفنونهم وأساليبهم ومعانيهم وأخيلتهم ، ولكنه ، لا ريب ، كان يميل إلى الشعراء الذين يجد بينه وبينه تجاوباً نفسياً واتصالا عاطفياً ، فاختار شعراء كان يقرأ لهم أكثر من غيرهم أمثال : المتنبي وأبي تمام وأبي نواس وزهير والسموءل وغيرهم وقد ظهرت آثار هؤلاء الشعراء في شعره ، فضمن أبياتهم واقتبس معانيهم واستعمل ألفاظهم ، وصار يعتبرهم أساتذته - كل واحد في فنه - يضرب بهم الأمثال ، ويحتج بآرائهم عند اللزوم . وكان يرى أنهم الصفوة المختارة من الشعراء في الأدب العربي ، ويعتقد أن ما وصلوا إليه هو غاية الابداع ، وقمة الفن وذروة المجد ، لذلك كان على الأجيال المقبلة أن تسير سيرهم وتحذو حذوهم وتسلك سبيلهم ، فتقلدهم في كل ما وصلوا إليه ، وتحاكي كل ما قدّموا إلى الشعر العربي من فنون أي أنه كان يدعو إلى المحافظة على عمود الشعر - كما يقول القدماء - فكان صفي الدين نفسه يحرص كل الحرص على أن يبقى فنون الشعر العربي على ما هي عليه دون نقص أو زيادة ، ولا أدل على ذلك من احتواء ديوانه لجميع هذه الفنون في شعره : الحماسة والمديح والرثاء والتعازي والغزل والخمريات والوصف والطرديات والاعتذار والعتاب والشكر والاستعطاف والاخوانيات والهجاء وتقييد العلوم والفنون وغير ذلك . وكان يضطر إلى نظم بعض الأغراض لكي لا يخلو ديوانه منها وهناك الموشح والدوبيت ، وهناك الزجل بأنواعه والمواليا والكان وكان والقوما .

وظل يحافظ على ميزات الشعر العربي وخصائصه ، لم يحاول أن يفلت منها ، ولم يرد أن يتخلص من بعضها أو يغير فيها . فالقصيدة كما هي يلتزم فيها القافية الواحدة ، ويعتمد على وحدة البيت فيها ، ويحافظ على البداية ثم الدخول

مع حسن الانتقال ، ثم الخاتمة فيبدأ هذه القصيدة بالغزل أو بذكر الخمر ، كما كان يفعل الشعراء المتقدمون وربما بدأها بوصف الطبيعة . . . وينتقل بعدها إلى غرضه من مدح أو شكر أو حماسة أو غير ذلك ، وربما ختمها بالفخر بشعره . وفعل ذلك أيضاً في الموشحات ، فلم يترك قوانينها وأصولها ، ولم يغير تفاعيلها وقوافيها وحتى « الخرجة الزجلية » لم يتركها وهذا ما صنعه كذلك بالفنون الشعرية العامية من زجل ومواليا وغيره ، فقد سار سيرة أسلافه دون أن يحيد عنهم قيد شعرة

ومن مظاهر تأثر الصفي بهؤلاء الشعراء المتقدمين وحبه لهم واعجابه بشعرهم ، عنايته بقصائدهم حتى أن شعره امتلأ بشعرهم فضمن الكثير من أبياتهم ففي قوله :

أطاعن فرسان الكلام وتارةً (أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر)

يضمن شطراً للمتنبي من قوله :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر[1]

وهو في قوله :

فكن قائلاً قول السوءل تائهاً بنفسك عجباً وهو منك قليل

(وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول)

يضمن بيتاً من حماسة السموءل ، ويشير إلى ذلك في بيته الأول ويقتبس الكثير من معاني هؤلاء الشعراء وأضرابهم أو يشير إليها ، فقوله :

مثل أهل الجحيم إن تذهب النا ر جلوداً تبدلوا بجلود

مقتبس من بيت أبي نواس الذي أخذ معناه من القرآن الكريم وهو :

كأهل النار إن نضجت جلود أعيدت للشقاء لهم جلود[2]

وهو حين يقول :

---

(١) ديوان المتنبي ج ١ ص ١٤٩

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣٧٤

وقضية صمت القضـــاء ترفعاً   عن فصلها والخصم فيها يحكم

لا شك أنه استعان بمعنى بيت المتنبي الذي قاله لسيف الدولة :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم (١)

ولا ريب أن بيته هذا

أهلاً بشهب في سمـــاء المجلس   هتكت أشعتها حجاب الحندس

مقتبس من بيت ابن المعتز :

انظر إلى حسن هلال بدا   يهتك من أنواره الحندسا (٢)

وقد شطر بعض قصائد هؤلاء الشعراء كملقة امرئ القيس المشهورة ، إذ شطر منها أبياتاً يشكو بها إلى (الملك المنصور) أحد نوابه حين ربط عنده فرسه فأهمله فبات بغير عليق فقال :

رأى فرسي إصطبل موسى فقال لي   (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)

به لم أذق طعم الشعير كأنني   (بسقط اللوى بين الدخول فحومل)

تقعقع من برد الشتاء أضالعي   (لما نسجتها من جنوب وشمأل)

فالصدور في هذه القصيدة للصفي والأعجاز لامرئ القيس وهذا ، دون أدنى ريب ، يبين لنا تعلقه بالشعر القديم أولاً ، واعتماده عليه ثانياً فهو يستعين بهذه الأعجاز على التخلص من القافية وإكمال الوزن ، وهو يوفر بهذا نصف مجهوده الذي يبذله في القصيدة أو أكثر من ذلك ، كما أنه شطّر مقصورة (ابن دريد) المشهورة بطريقة جديدة تعتبر من مبتكراته ..

وخمس الصفي كثيراً من قصائد المتقدمين المشهورة وأبياتهم ، فخمس حماسة السموءل اللامية ، وخمس أبيات قطري بن الفجاءة العينية في الحماسة وخمس نونية ابن زيدون وأبيات ابن زيلاق النونية في الغزل ، وخمس رباعية الشيخ

(١) ديوان المتنبي ج ٣ ص ٢٦٦

(٢) ديوان ابن المعتز ص ١٢٢

مدرك الشيباني التي يتغزل فيها بصبي نصراني . ولا يخفى ما يكسبه في هذا العمل من تدريب على صوغ الشعر واختيار القوافي ، وإكمال الأوزان والبحور ، وتحسين الصور ، إلى غير ذلك مما يستفيد منه حين يخمس أمثال هذه القصائد .

ولكن ، هناك ما هو أهم من هذا وذاك ، فهناك فن المعارضة ، فالشاعر حين يريد نظم قصيدة في موضوع ما ، يختار قصيدة من القصائد المشهورة ، تناسب غرضه وتلائم مطلبه ، وينظم على وزنها وقافيتها وفي موضوعها . . . ويقتبس منها الكثير من المعاني والأخيلة والصور ، ويتضمن الكثير منها من القوافي والألفاظ ولا يخفى ما في هذا العمل من التقليد والمحاكاة والاستعانة بكل ما في القصيدة من مميزات ومحاسن ، وجودة وقوة ، والتخلص مما قد يكون فيها من مظاهر الضعف أو عدم الاتقان .

ومما عارض الصفي ثلاث قصائد مشهورة ، الأولى للمتنبي ، والثانية لأبي تمام ، والثالثة لابن المعتز .

* * *

أما قصيدة المتنبي فهي بائيته التي مدح بها (علي بن منصور الحاجب) التي مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلابيبا [1]

فحين جاء الصفي إلى مصر ، ودخل بلاط الملك الناصر (محمد بن قلاوون) وأراد مدحه لما لقيه من الحفاوة والتكريم تذكر المتنبي وشعره في مصر فمرت بخاطره هذه القصيدة ، وتأملها جيداً - بعد أن استعرض معانيها في مخيلته - فرآها خير ما يحكي حاله ، وأحسن ما يعبر عن إحساسه ، فعارضها بقصيدة مطلعها :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا   فجعلنَ حبات القلوب ذوائبا

---

(١) ديوان المتنبي ج ١ ص ١٢٢

والصفي يبدأ قصيدته هذه بالغزل ، كما فعل المتنبي ، ويستمر في غزله هذا إلى ما يقرب من ربع القصيدة :

وجلونَ من صبح الوجوه أشعة غادرت فود الليـــل منها شائبا
بيض دعاهن الغبي كواعبا ولو استبان الرشد قال كواكبا
سفهن رأي المانويـــة عندما أسبلن من ظلم الشعور غياهبا
وسفرن لي فرأين شخصاً حاضراً شدهت بصيرتـــه وقلباً غائبا
أشرقن في حلل كأن وميضها شفق تدرعه الشموس جلاببا

فالمعاني مستمدة من منبع واحد ، والصور متشابهة عند الشاعرين ، فوصف الفتيات وجمالهن ، وشعرهن ، وملابسهن « فأجاد (صفي الدين) كثيراً ، إذ جعل هذه الملابس شفقاً وهو لون بهي بالعيون والقلوب أما المتنبي فلم يزد على أن قال إن هذه الملابس من الحرير »[1] وقد وصف الشاعران دلال المحبوب ولكن المتنبي اكتفى في ذلك بقوله : « المبديات من الدلال غرائبا » أما الحلي فانه صاغ ذلك المعنى في بيتين [2] :

حلو التعتب والدلال يروعــه عني ولست أراه إلا عاتبـــا
عاتبته فتضرجت وجنـــاته وازورَّ ألحـــاظاً وقطب حاجبا

ثم ينتقل إلى المديح انتقالا جميلاً إذ يقول

ذو مظهر تغدو القلوب لحسنه نهباً وإن منح العيون مواهبـا
لا بدع إن وهب النواظر حظوة من نوره ودعاه قلبي ناهبا
فمواهب السلطان قد كست الورى نعماً وتدعوه القساور سالبـا

ولا شك أن هذا الانتقال الذي لا يفاجىء السامع ولا يستفزه من مستلزمات الشعر الجيد ، شعر الفحول . وقد انتقل المتنبي ـ من قبل ـ إلى المدح بتمهيد جميل أيضاً .

(١) الأدب العربي وتاريخه ج ٣ ص ٢٦٢
(٢) نفس المرجع ج ٣ ص ٢٦٢

ويدخل الصفي في المديح ، كما يدخل المتنبي ، فيقول في الناصر

النـاصر الملك الذي خضعت له   صيد المـلوك مشارقاً ومغاربا
ملك يرى تعب المـكارم راحة   وبعـــد راحات القراع متاعبا

وهكذا يستمر في اسباغ أكرم الصفات وأعظم الفضائل عليه . . ثم ينتقل إلى وصفه بالشجاعة ويفصل ذلك تفصيلاً

كالليث يحمي غابه بزئـــيره   طوراً وينشب في القنيص مخالبا
كالسيف يبدي للنواظر منظراً   طلقاً ويمضي في الهياج مضاربا

ويخرج من هذا الوصف إلى الحماسة ويطيل فيها إذ تبلغ ستة عشر بيتاً

أبـقى (قلاوون) الفخـار لولده   إرثاً وحازوا بالثناء مكاسبا
قوم إذا سئموا الصوافن صيّروا   للمجد أخطار الأمور مراكبا
عشقوا الحروب تيمناً بلقى العدا   فـكأنهم حسبوا العداة حبائبـا

ويستمر في مثـل هذا حتى ينتقل إلى وصف القتال والجلاد في المعارك التي يقودها الناصر في سبيل الاسلام فيفرق جموع المارقين

صرّمت شمـل المارقين بصارم   تبديـه مسلوباً فيرجع سالبا
تطأ الصدور من الصدور كأنما   تعتاض من وطء التراب ترائبا

ويسير في ذلك الوصف الرائع حتى ينتقل إلى وصف كرم الملك الناصر

إن يحرس الناس النضار بحاجب   كان السماح لعين مالك حاجبـا
لم يملأوا فيـك البيوت غرائبا   إلا وقد ملأوا البيوت رغائبـا

ثم يختتم القصيدة بالثناء عليه قائلاً

فطفقت أملأ من ثناك ونشره   عقداً وأملأ من نداك حقائبا
أثني فتثنيني صفاتك مظهراً   عيّاً وكم أعيت صفاتك خاطبـا
لو أن أعضانا جميعاً ألسن   تثني عليك لمـا قضين الواجبا

ونلاحظ هنا حسن التنسيق في قصيدة صفي الدين ، فهو لا ينتقل من غرضه

إلى غرض حتى يشبع غرضه فلا يعود اليه من جديد ، وينتقل بين أغراضه بتدرج جميل وتسلسل بديع ، فمن الغزل إلى المدح بالشجاعة إلى الحماسة إلى وصف القتال وهكذا حتى يختتم القصيدة . وأما المتنبي فنراه يمدح دون نظام ولا تنسيق ، فيمدح بالشجاعة

ملك سنان قناته وبنانه يتباريان دماً وعرفاً ساكبا
يستصغر الخطر الكبير لوفده ويظن دجلة ليس تكفي شاربا

ثم ينتقل إلى وصف ممدوحه بالكرم

كرماً فلو حدثته عن نفسه بعظيم ما صنعت لظنك كاذبا

ثم يعود للشجاعة من جديد

سل عن شجاعته وزره مسالماً وحذار ثم حذار منه محاربا

وبعد ذلك يرجع إلى الكرم من جديد ، وهكذا نرى عنده عدة انتقالات . ويختتم قصيدته بالثناء قائلاً :

خذ من ثنايَ عليك ما أسطيعه لا تلزمنّي في الثناء الواجبا
فلقد دهشت لما فعلت ودونه ما يدهش الملك الحفيظ الكاتبا

وإلى كل ذلك نجد أن الصفي أطول نفساً من المتنبي فقصيدة الصفي بلغت (واحداً وستين بيتاً) في حين أن قصيدة المتنبي بلغت (أربعين بيتاً) فقط . وقد قلد الصفي المتنبي في البداية والخاتمة ، فالفاتحتان غزل والخاتمتان ثناء ، والمعنى في الخاتمتين يكاد يكون واحداً .

واتبع صفي الدين أبا الطيب حتى في مواضع التصريع في قصيدته ، فهو عند المتنبي في المطلع وفي أوائل القصيدة في قوله :

حاولن تفديتي وخفن مراقبا فوضعن أيديهن فوق ترائبا

وكذلك في أواخرها في قوله :

لبيك غيظ الحاسدين الراتبا إنا لنخبر من يديك عجائبا

فكان التصريع عند الصفي في المطلع أيضاً وفي أوائل القصيدة في قوله

بيض دعاهن الغبيُّ كواعبا ولو استبان الرشد قال كوا كبا

وفي أواخرها في بيته :

لم يملأُوا فيك البيوت غرائبا إلا وقد ملأُوا البيوت رغائبا

ووجدنا المتنبي يبدأ عدة أبيات متتالية من قصيدته بالتشبيه بالكاف :

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدي إلى عينيك نوراً ثاقبا

كالبحر يقذف للقريب جواهراً جوداً ويبعث البعيد سحائبا

كالشمس

فلم يفت الصفي ذلك فقال :

كالغيث يبعث من عطاء وابلاً سبطا ويرسل من سطاه حاصبا

كالليث يحمي غابه بزئيره طوراً وينشب في القنيص مخالبا

كالسيف ...

ولا يخفى أن الصفي استفاد كثيراً من معاني المتنبي وألفاظه وقوافيه في قصيدته هذه وإن كان الاستاذ محمود مصطفى يرى « أن معاني الحلي أكثر كما أن أسلوبه رصين . . وأسلوبه واشارته دقيقة غير ممعنة في الغرابة ... »(١)

* * *

أما قصيدة أبي تمام فهي الرائية التي رثى بها (محمد بن حميد الطوسي) التي مطلعها

كذا فليجلَّ الخطب وليفدح الأمرُ فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ(٢)

وهي من أجمل مراثي الطائي وأصدقها عاطفة ومن المراثي المشهورة في الأدب العربي وحين توفى (الملك الناصر) وجد الصفي أن هذه القصيدة تستطيع أن تعبر عن حزنه وألمه فعارضها بقصيدته التي مطلعها

وفى لي فيك الدمع إذ خانني الصبرُ وأنجد فيك النظم إذ خذل النثرُ

---

(١) الأدب العربي وتاريخه ج ٣ ص ٢٦٣ .

(٢) ديوان أبي تمام ص ٣٦٨

ويمضي الصفي في تصوير الفاجعة وما خيم على الناس إزاءها من حزن ، ويصور كيف سادهم الأسى بل لقد أظلمت كل الأقطار الاسلامية :

فان أظلمت أرض الشام لحزنه فلم يخل من ذاك الصعيد ولا مصر

وينتقل الصفي بعد هذا إلى ذكر صفات الفقيد الفاضلة وخلقه الكريم ، فيصفه بالشجاعة في شعر حماسي جميل :

ولم يغن عنه الجأش والجيش واللهى وفرط النهى والحكم والنهي والأمر
ولا الخيل تجري بين آذانها القنا لحرب العدى والدهم من دمهم حمر
لدى معرك خاضت به الخيل في الوغى من الدم فيما خاضت البيض والسمر

ويطيل في هذا وفي وصف الفقيد بكل بر وتقى حتى ينتهي إلى وصف كرمه

كأن أديم الأرض قُدَّ من اسمه فما وجدت إلا وفيها له ذكر
وما كان يدري من تيمم جوده ونكب لج البحر أنهما البحر

ويمضي في التغني بهذا الكرم بمعاني طريفة وصور رائعة ثم لا ينسى أن يذكر أن القدر محتم وأن الموت لابد منه

وكيف يرد الطبُّ أمراً مقدراً إذا كان ذاك الأمر ممن له الأمر

والفقيد لم يمت ، لما خلف من ذكر طيب وأخلاف كأنهم الأنجم الزهر

وإن لنا من بعده من سليله مليكاً به عن فقده يحسن الصبر
فان غاب ذاك البدر عن أفق ملكه فقد أشرقت من نجله أنجم زهر

ويختتم القصيدة بالبكاء عليه والترحم له :

سأبكيك بالأشعار حتى إذا وهت سلوك عقود النظم أنجدني النثر
عليك سلام الله ما ذكر اسمكم وذلك بين الناس آخره الحشر

وإذا رجعنا إلى أبي تمام وجدناه ينتقل ، بعد تصوير الحزن وكبر الفاجعة إلى ذكر محامد الفقيد فيصفه بالكرم في أبيات قلائل

وما كان إلا مال من قل ماله وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر

ثم يصفه بالشجاعة في شعر حماسي رائع ، ولا جرم فرثيه مات شهيداً في معركة للدفاع عن الاسلام

فتىً مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وينتقل بعد ذلك إلى ذكر غدر الأيام ومساءات الدهر

لئن أبغض الدهر الخؤون لفقده لعهدي به ممن يحب له الدهر
لئن غـدرت في الروع أيامه به فما زالت الأيام شيمتها الغــدر

ويختتم قصيدته بالتسليم عليه :

عليك سلام الله وقفـاً فانني رأيت الـكريم الحر ليس له عمر

فالقصيدتان من نفس الدرجة في الجودة ، في جزالة الشعر ودقة التعبير وصدق العاطفة ، فـكل منهما يرثي انساناً تصله به عاطفة الحب ، وكل منهما يحس نحو فقيده إحساساً صادقاً بالفقد فيجزع لذلك ، ويحزن ويتألم ولا يجد ما يعبر به إلا شعره فيرثيه أعظم رثاء

ويظهر لنا أن نفس الصفي أطول من نفس أبي تمام ، ففي حين كانت قصيدة الصفي (خمسة وخمسين بيتاً) كانت قصيدة أبي تمام (واحداً وثلاثين بيتاً) ولـكن مما لا شك فيه أن الصفي تأثر بمرثية أبي تمام وأفاد منها وإلا لما عارضها وقد ظهر تأثره بمظاهر عديدة ، فالمعاني التي يطرقانها واحدة ، وفي القصيدتين حماسة كثيرة ، ووصف الاثنان الدهر ومصائبه والدنيا وأقدارها ، واختتم الشاعران قصيدتيهما بالسلام على الفقيد . وكرر أبو تمام كلمة « فتى » في بداية خمسة أبيات :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
فتى

فلم يفت ذلك صفي الدين وكررها في أول سبعة أبيات

فتى كان مثل الدهر بطشا وبسطة يرجي ويخشى عنده النفع والضر
فتى طبق الأرض البسيطة جوده ففي كل قطر من نداء بها قطر
فتى

وهكذا كان يعارضه ويجري على نمطه في المعاني وفي الصياغة وطريقة التعبير ولا ريب في أن الفضل لأبي تمام ، فهو السابق لا من حيث الزمن فحسب ولكن من حيث الابداع الفني أيضاً

* * *

وأما قصيدة ابن المعتز فهي القصيدة التي يهجو بها آل البيت ومطلعها :

ألا من لعين وتسكابها تشكي الأذى وبكاها بها (١)

وليست معارضة الصفي لها معارضة الاعجاب وإنما معارضة رد ومناقضة ، فقد طلب نقيب الأشراف بالعراق ، (تاج الدين الآوي) ، من صفي الدين أن يرد على ابن المعتز ويفند مزاعمه فقال الصفي ارتجالاً في مجلسه :

ألا قل لشر عبيد الإله وطاغي قريش وكذابها
وباغي العباد وباغي العناد وهاجي الكرام ومغتابها
أأنت تفاخر آل النبي وتجحدها فضل أحسابها

وقصيدة ابن المعتز ضعيفة وتضم بعض أفكاراً يناقض بعضها بعضاً وعدتها أربعون بيتاً أكثر من عشرين منها في معاني عائمة ، يدور فيها حول الموضوع ولا يدخل صميمه ولا يحس بذلك إلا بعد أن يقطع نصف الشوط فيقول :

نصحت بني رحمي لو وعوا نصيحة برّ بأنسابها
وقد ركبوا بغيهم وارتقوا بزلاء تردي بركابها

فيظهر نفسه بمظهر النصيح الذي يريد الخير لأقاربه ، ولكنه سرعان ما يدلُّ بفطرسته ويزهو بمظاهر خداعه فيقول :

---

(١) ديون ابن المعتز ص ٥ .

دعوا الأسد تفرس ثم اشبعوا بما تدع الأسد في غابها
قتلنا أميـــة في دارها ونحن أحق بأسلابها

ثم يناقض ابن المعتز نفسه في معتقده فيقول : إنهم ورثوا ثياب النبي ولا يجوز أن يرثها العلويون ، في حين أن مذهبه لا يسمح بوراثة الأنبياء ويعترف بأن للعلويين رحماً لكنه يقول إن العباسيين أحق بهذا الرحم لأنهم أبنـــاء عم النبي :

ونحن ورثنا ثيـــاب النبي فـكم تجذبون بأهدابها ؟
لـكم رحم يا بني بنتـــه ولـكن بنو أولى بهـــا

ويدل على العلويين بأن أباهم ثبت في (يوم حنين) حين تفرق عن النبي الناس وظل يدافع عنه ، ونسي أن علياً كان معه في موقفه ذاك ويختتم قصيدته بقوله :

وأقسم أنـكم تعلمون بأنا لهـــا خـــير أربابها

وقد بدأ الصفي قصيدته بهجاء ابن المعتز ، لـكنه جاء مع هجائه هذا بما يبين له أن له أن العلويين خير منه ، فمن خبر المباهلة إلى نص القرآن بأن الله طهر آل بيت الرسول

بكم باهل المصطفى أم بهم فرد العـــداة بأوصابهـا
أعنـكم نفى الرجز أم عنهم لطهر النفوس وألبـــابهـا

ويسير الصفي في حججه القوية واحدة تلو الأخرى ، دون غموض وابهام ، ويرد على آراء ابن المعتز واحداً واحداً فيقول :

وقلت ورثنا ثيـاب النبي فـكم تجذبون بأهدابهـا ؟
وعندك لا يورث الأنبيـــاء فكيف حظيتم بأثوابها ؟
فـكذبت نفسك في الحالتين ولم تعلم الشهد من صابهـا

فالصفي يجادل جدلاً منطقياً ، يأخذ المسألة ويقلبها على شتى الوجوه ، يقدم لها المقدمات ويستنتج النتائج ، ويعطي بعد ذلك الحـكم يريه أنه كذب

نفسه في الحالتين إذ يدّعي بوراثة أثواب النبي في حين أن معتقده لا يسمح بوراثة الأنبياء ، وهذا تناقض في مسألة واحدة ويذكره بأن جده (ابن عباس) لا يرضى بهذا فقد كان مع الامام علي (ع) في خلافه مع معاوية ، وقد حاول الامام أن يجعله أحد الحكمين ، لكن أعداءه لم يرضوا بذلك لأنهم يعرفون تقديره لابن عمه وأيمانه بأحقيته في الخلافة ؟ وثقته بأنه على حق في كل أعماله .

أجدك يرضى بما قلته وما كان يوماً بمرتابها
وكان (بصفين) من حزبهم لحرب الطغاة وأحزابها
وقد شمّر الموت عن ساقه وكشّرت الحرب عن نابها
فأقبل يدعو إلى حيدر بارغابها وبارهابها
وآثر أن ترتضيه الأنام من الحكمين لأسبابها
ليعطي الخلافة أهلاً لها فلم يرتضوه لايجابها

وكان ابن عباس يصلي طول حياته مع الناس شأنه كشأن أي واحد منهم في حين أن علياً كان إمام الناس يصلي في صدر المحراب ، فصلى ابن عباس خلفه :

وصلى مع الناس طول الحياة وحيدر في صدر محرابها
فهلاّ تقمصها جدكم إذا كان إذ ذاك أحرى بها

ويعيد اليه قصة الشورى التي نظمها (عمر بن الخطاب) (رض) لاختيار خليفة المسلمين فكان علي من الستة الذين اختارهم في حين لم يكن ابن عباس منهم :

وإذ جعل الأمر شورى لهم فهل كان من بعض أربابها
أخامسهم كان أم سادساً وقد جليت بين خطابها

ويرد على ادعاء ابن المعتز أنهم أحق بها لأنهم أبناء عمه

وقولك أنتم بنو بنته ولكن بنو العم أولى بها
بنو البنت أيضاً بنو عمه وذلك أدنى لأنسابها

فيذكره أن بني البنت هؤلاء هم أيضاً بنو عم الرسول . وبذلك يكون نسبهم

إلى الرسول أقرب لأنهم يرتبطون به عن طريق البنت وطريق العم .

وبعد كل هذا يخرج بنتيجة هي أن الخلافة ليست من شأنه وقد تقمصها ساعة واحدة ثم طردوه منها شر طردة فليترك الكلام فيها

فدع في الخلافة فصل الخلاف فليست ذلولاً لركابها
وما ساورتك سوى ساعة فما كنت أهلاً لأسبابها
وكيف يخصوك يوماً بها ولم تتأدب بآدابها

ويرد عليه حين يقول أنهم قتلوا أسود أمية بأن الذي صنع ذلك (أبو مسلم الخراساني) الذي كان موالياً للعلويين . فيقول له

وقلت : بأنكمُ « القاتلون ... أسودَ أمية في غابها »
كذبت وأسرفت فيما ادعيت ولم تنهَ نفسك عن عابها
فكم حاولتها سَراةٌ لكم فرُدت على نكص أعقابها
ولولا سيوف (أبي مسلم) لعزت على جهد طلابها
وذلك عبدٌ لهم لا لكم رعى فيكم قرب أنسابها
فجازيتموه بشر الجزاء لطغوى النفوس وإعجابها

ويقارن الصفي بعد كل هذا بين خلق العلويين العاملين العابدين الراكعين الساجدين وبين خلق العباسيين اللاهين العابثين :

هم الزاهدون هم العابدون هم الساجدون بمحرابها
هم الصائمون هم القائمون هم العالمون بآدابها
هم قطب ملة دين الاله ودور الرحى حول أقطابها

ويختتم قصيدته بتقديم النصح إلى ابن المعتز بترك هذه الأمور ، والاهتمام بما هو فيه من اللهو بالغانيات والسكر ، وقول الشعر في تعاطي الخمر ووصف مجلسها ومدح ترك العبادة والصلاة :

عليك بلهوك بالغانيات وخلِّ المعالي لأصحابها
ووصف العذار وذات الخمار ونعت العقار بألقابها

وشعرك في مدح ترك الصلاة   وسعي السقاة بأكوابها
فـذلك شأنك لا شأنهم   وجري الجيـــاد بأحسابها

نلاحظ من كل هذا أن قصيدة الصفي ، وإن كانت أبياتها بقدر أبيات قصيدة ابن المعتز ، إلا أنها اشبعت الغرض ، فقد تحدث في صميم الموضوع ولم يحم حوله

وبالاضافة إلى هذا فهناك قصائد أخرى عارضها الصفي لـكنها تأتي بعد هذه القصائد في الأهمية . . فقد عارض (وصف وادٍ) للشاعر (المنازي) الذي يقول فيه :

وقانا لفحـــة الرمضاء وادٍ   سقاه مضاعف الغيث العميم

فقال الصفي في وصف وادٍ خصيب :

وواد تسـكر الأرواح فيه   وتخفق فيـه أرواح النسيم
به الأطيار قد قالت وقالت   كلاماً شافياً داء الـكليم
تسلسل في خمائـــله مياهٌ   يقد أديمها قـــد الأديم
مروج للقلوب لهـا امتزاج   كـأن عيونها أيدي الـكريم

كما نجد القصيدة الـكافية من قصائد (درر النحور في مدائح المنصور) على وزن وقافية قصيدة (الشريف الرضي) المشهورة التي يقول فيها

يا ظبية البان ترعى في خمائله   ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

وقد بدا الصفي قصيدته هذه بالغزل ، وقد زادت أبيات الغزل على خمسة عشر بيتاً يقول فيها

كفي القتال وفـكي قيد أسراك   كفاك ما فعلت بالناس عيناك
كلّت لحاظك مما قد فتكت بنا   فمن ترى في دم المشاق أفتاك ؟

ونجد أن الصفي قد أفاد من قصيدة (الشريف الرضي) لفظاً ومعنى

ويجب ألا لا يفوتنا أن نشير إلى الموشحات الـكثيرة التي عارضها الصفي ونظم على غرارها من موشحات الشعراء الذين تقدموا عليه .

٢ - ابداعه :

لقد اختلف النقاد والكتاب في معنى الابداع ، فنهم من رأى أنه هو أن يخلق الشاعر أو الفنان شيئاً من العدم ، فينتج أثراً لم يكن له وجود من قبل ، فهذه الكلمة مرادفة لكلمة الخلق فالشاعر حين يحس إحساساً ما ، ويعبر عن هذا بقصيدة يبرزها إلى الوجود إنما يبدع خلقاً سوياً في عالم الأدب، لم يكن موجوداً قبل لحظات ومن قائل إنه ايجاد الفنان أو اختراعه شيئاً جديداً له مميزات جديدة وخصائص جديدة وكل شيء فيه جديد ، لم يكن يعرفه أحد قبل أن يوجده ، كأن يخترع شاعر فناً من الفنون الشعرية لم يكن معروفاً من قبل ، كالذي اخترع فن الوشح ، أو فن الزجل فهذا الفن جديد لم يكن قبل مخترعه معروفاً في الشعر العربي . ومنهم من قال : الابداع بمعنى الاجادة والاتقان . . . فالشاعر يبدع في قصيدة يصف فيها الطبيعة عندما يكون وصفه دقيقاً صادقاً يعبر عما أحس به من مجالي الطبيعة وفتنتها ويصور لنا المنظر وكأنه أمامنا بألوانه وبهائه ورونقه وجماله وأنواره وظلاله ، فنعجب به وكأننا ننظر إليه وهناك فريق من الفنانين يرى أن الابداع ليس معناها الخلق من العدم وإنما قد يكون الأثرالأدبي موجوداً من قبل لكن المبدع ينفث فيه الحياة فيجعله متحركاً حياً وسواء أكان معنى الابداع هذا أو ذاك فقد هيأت الظروف لصفي الدين أن يبدع في الشعر فيخلد شعره رغم السنين ، وسيظل خالداً أبد الآبدين .

فقد أبدع الصفي بالرغم من أن عصره لم يكن عصر إبداع ، بل لم يكن عصر شعر وأدب ، فهو عصر انحطت فيه كل مظاهرالحياة وتأخرت وتدهورت الحضارة الاسلامية وفسدت ، ومات الشعر وأصبح جسداً بغير روح ، ولم يعد له ذلك المجد القديم وتلك السطوة ، ولم يبق فيه ذلك الجمال وتلك البهجة ، ولم يكن هناك أحد ممن يشجعه ويرعاه ، ويحمي أبطاله من غائلات الزمن ،

فترك الشعراء الشعر ، وأهمل الأدباء الأدب وانشغلوا في خضم الحياة باحثين عن الرزق فكيف يمكن أن يوجد من الشعراء من ينهض بالشعر ، ومن يجوّد بله من يبدع ويخترع ؟

ومع هذا فقد وجد الصفي فأبدع وخلد ، وجد إذ ساعدته ظروف عديدة على أن يقف للتيار الجارف ويثبت للعاصفة الهوجاء ، فظل محافظاً على بهاء الشعر وجماله ورونقه ورقته وجزالته وفصاحته ولعل من هذه الأسباب :

١ ـ ذلك التراث الأدبي العظيم الذي ورثه عن أجداده الطائيين من شعراء وأدباء أمثال : (حاتم الطائي) و (أبي تمام) و (البحتري) و (السنبسي) وغيرهم فكونت عنده موهبة كامنة في النفس وطبيعة شعرية سهلة مواتية .

٢ ـ تلك النهضة الأدبية التي كانت مزدهرة في الحلة يوم ولد فيها الصفي فشب في ظل دنيا معطرة بشذا الأدب فواحة بعرف العلم فاستطاع أن يشبع رغبته الأدبية ويروي غليله ، فصقلت موهبته وتهذب طبعه .

٣ ـ وقد توفر له ما لم يتوفر لغيره من الشعراء من الغنى الوفير والحسب الطريف والنسب التليد ، فكان يرفل في بحبوحة من العيش وعز ونعيم لا يشغله شاغل في نهاره أو ليله من مشاغل الحياة الكثيرة فاهتم بشعره وفنه ومال بكليته إلى موهبته وإشباع رغبته .

٤ ـ وتلك الثقافة الواسعة التي تثقف بها ، نظرياً من الكتب الكثيرة التي قرأها ، وعملياً من رحلاته وسفراته وتنقلاته بين مختلف البلاد وجوسه خلال مختلف المجتمعات والطبقات والشعوب وهذا كان الصفي الشعلة التي نقلت الأدب إلى الأجيال التي جاءت بعده وكان القبس الذي ظل يتلألأ في ذلك الظلام الدامس حتى أضاء الدنيا في العصور المتأخرة فهو ، وشعراء قلائل ، حافظوا على روح الشعر العربي ، واستطاعوا أن يخلصوه من الفناء المحقق والموت الأكيد كل هذا ساعد الصفي على الابداع في الشعر بكل نواحي الابداع

فقد أبدع لنا قصائد تعتبر من روائع الشعر وفرائد القصيد فهذه قصيدته في الحماسة :

سلي الرماح العوالي عن معالينا ... واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا ؟
وسائلي العرب والأتراك ما فعلت ... في أرض قبر (عبيد الله) أيدينا
لما سعينا فما رقّت عزائمنا ... عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد ... دنّا الأعادي كما كانوا يدينونا
بضمر ما ربطناها مسومة ... إلا لنغزو بها من بات يغزونا

هذه القصيدة ملأى بكل معنى جليل ، وفكر راقٍ ، وخيال خصب ، وأسلوبها جزل قوي متدفق فياض .

وأما قصيدته التي يحرض بها (الملك الصالح) على التخلص من المغول فهي إنذار حربي ، لا شك في ذلك ، يستنهض الهمم ويحرض على الوثوب ويدفع الأمة كلها دفعاً إلى قتال قوم اغتصبوها حقها وساموها الخسف ولكن هذا كله مشرب بالحكمة فالعاطفة عنده تتزاوج مع العقل ، والحس لديه يتمازج مع الفكر ، فتأتي القصيدة ناضجة عقلاً وقلباً .. فكراً وعاطفة . يقول فيها

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ... ولا ينال العلى من قدّم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب ... قضى ولم يقض من إدراكها وطرا
لابد للشهد من نحل يمنّعه ... لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا
لا يُبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ... ولا تتم المنى إلا لمن صبرا
وأحزم الناس من لو مات من ظمأٍ ... لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

يا أيها الملك الباني لدولته ... ذكراً طوى ذكر أهل الأرض وانتشرا
كانت عداك لها دست فقد صدعت ... حصاة جدك ذاك الدست فانكسرا
فاوقع إذا غدروا سوط العذاب بهم ... يظل يخشاك صرف الدهر إن غدرا

وارعب قلوب المدى تنصر بخذلهم   إن النبيّ بفضل الرعب قد نصرا
ولا تكدر بهم نفساً مطهرة   فالبحر من يومه لا يعرف الكدرا
ظنوا تأنيك عن عجز وما علموا   أن التأنيَ فيهم يعقب الظفرا

وهــذه مدائحه للرسول جاء فيها بصفحة فخار ناصعة تدل دلالة واضحة على إيمانه العميق ، وإجلاله الخالص للرسول ، وحبه لآل بيته الكرام وهو في كل هذه القصائد وغيرها كثيراً مايبدع في التعبير عن شعوره أصدق تعبير ، فيوجد شيئاً من العدم ، ويجيد في ايجاد هذا الأثر ويتقن صنعته ، ويبعثه حياً يبلغ أسمى مكانة بين الآثار الأدبية الأخرى .

أما ما أبدعه من الفنون ولم يكن موجوداً ، بالرغم من حبه المحافظة على الفنون القديمة في الشعر العربي ، فقد اخترع ما أضافه إلى سجل المخترعين من الشعراء والأدباء . ولما كان مولعاً بالصناعة أيما ولوع ، لانتشارها في عصره والتزام الشعراء إياها في شعرهم ونثرهم أبدع في اختراع الجناس المجنح ، فالجناس التام في البلاغة يتـكون من تجانس كلتين في اللفظ واختلافهما في المعنى ، ولـكن الصفي اخترع جناساً تتلاحق فيه ثلاث ألفاظ متشابهة ذات معان مختلفة . وقد نظم قصيدة مرصعة بهذا الجناس :

سل سلسل الريق لِم لَم يرو حر ظما   بل بلبل القلب لمــا زاده ألما
قد قدّ قدُّ حبيبي حبل مصطبري   أنْ أنَّ إنْ أجتني جرماً فلا جرما
مذ مــلَّ ملل قلبي في تمتبه   لو كفَّ كفكف دمعاً منه سال دما

واخترع الصفي كذلك فناً في الموشح سماه (الموشح المضمن) ، وهو أن ينظم موشحة يضمنها قصيدة لأحد الشعراء المتقدمين ، كما ضمن غزلية أبي نواس البائية في موشحته :

وحق الهوى ما حلت يوماً عن الهوى   ولـكنَّ نجمي في المحبة قد هوى

وما كنت أرجو وصل من قتلي نوى ... وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى

ليس في الهوى عجبُ ... إن أصابني النصَبُ
« حامل الهوى تعبُ ... يستخفه الطربُ »

ومن أطرف مبتكرات الصفي في هذا الباب ما سماه : (تضمين البيت) وهو تضمينه لمقصورة ابن دريد المشهورة - هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي - التي يقول في مطلعها :

يا ظبيـة أشبه شيء بالمها ... ترعى الخزامى بين أشجار النقا
أما ترى رأسي حاكى لونـه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى
(١)

فقد نظم الصفي قصيدة يشكر بها إنعام ولدي (الملك المنصور نجم الدين غازي ابن ارتق) وهما : (ناصر الدين محمد) و (عماد الدين علي) إذ قدما له جواداً أصيلاً ، فجعل نصف أبيات هذه القصيدة من مقصورة ابن دريد هذه . وبالرغم من أن قصيدة الصفي مقصورة أيضاً إلا أنه لم ينظمها على نفس وزن قصيدة ابن دريد التي نظمها في تام الرجز أي « مستفعلن مستفعلن مستفعلن » فقد نظم الصفي قصيدته في مجزوء الرجز « مستتفعلن مستفعلن » ومع هذا فان الصفي استطاع أن يختار أبياتاً لابن دريد تتوفر فيها القافية التي يحتاجها بعد حذف ما يزيد عن الوزن الذي تتطلبه قصيدته فكان يأخذ ثلثي بيت ابن دريد ثم يأتي ببيته هو ، ثم يردفه بثلثي بيت آخر لابن دريد ، ثم يجيء ببيت له وهكذا . . . حتى كانت القصيدة ثلاثة وثلاثين بيتاً (٣٣) سبعة عشر منها لابن دريد ، وستة عشر للصفي ، وهي على النحو التالي :

برق المشيب قـد أضا ... بعارض مثـل الأضا
يشبّـه اشـتعاله ... « بالنار في جزل الغضا »(٢)

---

(١) شرح مقصورة ابن دريد ص ٤

(٢) كل ما بين هذه الاقواس « » من شعر ابن دريد

« واتخـــذ التسهيد عيني مألفاً لمـــا جفـــا »
وكنت ذا بأس فـــذ حانـــدني صرف القضا
« رضيت قسراً وعلى القسر رضىً من كان ذا »
لي أسوة (بابن الزبـــير) إذ أبى حمـــل الأذى
« و (ابن الأشج) القيـــل ساق نفسه إلى الردى »
وهكذا جـــد أبو الخـــير لادراك المـــنى
« وقـــد سما قبـــلي (يزيد) طالباً شأو العلى »
وقـــد رمى (عمرو) بسهم كيده قلب العدى

وقد اختتم القصيدة ببيتين من شعر ابن دريد :

« فإن أعش صاحبت دهري عالماً بما انطوى »
« وإن أمت فـكل شيء بلغ الحـــد انتهى »

وهناك ما هو أطرف من هذا ، فقد أرسل الصفي قصيدة لأحد أصدقائه يذكره فيها بالوقائع التي قدم فيها الصفي له النجدة ، وهو اليوم في حاجة إلى نجدته فلا ينجده . ولم ينظم الصفي من هذه القصيدة سوى صدر المطلع وصدر الختام ، أما بقية الأبيات فليست من شعره ، فقد عمد إلى عشرين بيتاً من لامية العجم للطغرائي - وهو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي بن محمد ابن عبد الصمد المتوفي سنة ٥١٥ - التي مطلعها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل   وحلية الفضل زانتني لدى العطل(١)

فأخذ أعجازها وخرج لها عشرين صدراً اختارها من أعجاز قصيدة أبي الطيب المتنبي التي يعاتب بها سيف الدولة الحمداني ، والتي أولها :

وا حر قلباه ممن قلبـــه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم
ما لي أكتم حباً قد برى جسدي   وتدعي حب سيف الدولة الأمم(٢)

(١) ديوان الطغرائي ص ٥٤   (٢) ديوان المتنبي ج ٣ ص ٣٦٢

« وقد ناسب الصفي بينها مناسبة عجيبة توافق غرضه ، فجاءت وكأنه نظمها بنفسه في هذه المناسبة »(١) استمع إليه يقول :

قل للخلي الذي قد نام عن سهري (ومن بجسمي وحالي عنده سقم)(٢)
« تنام عيني وعين النجم ساهرة »(٣) (واحر قلبـــاه ممن قلبه شبم)
« فالحب حيث المدى والأسد رابضة » (فليت أنا بقـــدر الحب نقتسم)
« فهـــل تعين على غي همت به » (في طيـــه أسف في طيـــه نعم)
« حب السلامة يثني عزم صاحبه » (إذا استوت عنده الأنوار والظلم)
« فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً » (ليحدثن لمن ودعتهم نـــدم)
« رضى الذليل بخفض العيش يخفضه » (وقـد نظرت اليه والسيوف دم)
« إن العلى حدثتني وهي صادقة » (إن المعارف في أهل النهى ذمم)

وقد اختتم الصفي هذه القصيدة بأبيات تشير إلى هذا التضمين وهي :

« ويا خبيراً على الأسرار مطلعاً » (فيك الخصام وأنت الخصم والحكم)
« قد رشحوك لأمر لو فطنت له » (تصافحت فيه بيض الهند واللمم)
فافطن لتضمين لفظ فيك أحسبه (قد ضمن الدر إلا أنه كلم)

٣ - منزلته :

كان الصفي يتمتع بمكانة ممتازة في المجتمع ، ولا عجب فهو ابن أسرة من أكرم الأسر العربية تمتد أصولها إلى قبيلة طيء وهو يمتاز بأكرم الصفات وأفضل الخلق ، وقد وهبه الله عقلاً كبيراً وعلماً غزيراً ومالاً وفيراً . وكان

(١) ديوان صفي الدين ص ٣٤
(٢) الأشطر التي بين هذين القوسين ( ) للمتنبي
(٣) الأشطر التي بين هذه الأقواس « » للطغرائي

آباؤه وأقاربه ذوي مراكز هامة ومكانة ممتازة في الحلة فقد كان خاله (صفي الدين ابن حمزة) صدر الحلة - كما مر بنا - لهذا كله كان يستطيع أن يدخل أي بلد من البلدان العربية معززاً مكرماً، مقدراً محترماً. وقد اختار ماردين وطناً له، للهدوء الذي كانت تتمتع به حين رحل من العراق، فأكرمه السلاطين الأرتقيون وأعلوا قدره واشتاق له سلاطين البلاد الأخرى وقدره الناس واحترمه العلماء وقربه الملوك.

وكان الصفي مقدراً عند هؤلاء السلاطين كأنه واحد منهم، وكان يقضي معهم أكثر أوقاته وكانوا لا يرضون أن يفارقهم.. ويحضر معهم مجالس الأنس والطرب والخمر والشراب، وكان لا يخيب له رجاء عندهم، وعرف الناس ذلك فصاروا يرجونه لقضاء حاجاتهم. وكان حين يمدح هؤلاء السلاطين يطلب أن يقضوا بعض حاجات الناس، وقد أثقل مرة على الملك الصالح بعدة حاجات فقضاها جميعاً، فقال:

رعى الله ملكاً ما رمتني بربعه مرامي النوى إلا بلغت مراميا
وكم حاجة حاولتها من جنابه وألحفت في قولي له وخطابيا
فلم يلق الحاحي بحب وإنما أجاد التغاضي إذ أسأت التقاضيا

ومما يدل على منزلته أنه كان يرد على هدايا الملوك بهدايا مثلها، فقد أرسل إليه (الملك الأفضل) صاحب حماة تحفاً وهدايا، فأرسل له الصفي قصيدة ومعها مملوك تركي وقماش من ماردين، ومطلع هذه القصيدة:

سوى حسن وجهك لم يحلُ لي وغيرك في القلب لم يحلُلِ

ويقول فيها:

وكفّرت عن زلة الانقطاع بأحسن من كان في منزلي
فأرسلته راجياً أنه يمحص عن زلة المرسل

* * *

وإلى هذا كله كانت منزلته الأدبية لا تقل عن منزلته الاجتماعية بأي حال لأن شاعريته لم تكن عادية ، فهو شاعر فحل ، ذو طبيعة مواتية سهلة ، وموهبة طبيعية فطرية لا تبخل عليه شاعريته ولا تتعبه ، وتمنحه ما يريد حيث يريد دون تعب وإرهاق ودون جهد أو تكلف . وكثيراً ما ارتجل الشعر فكان يتدفق من خاطره تدفق العين الثارة ، ويجري على لسانه جريان الماء السلسال ومن طريف ما يروى في ذلك أنه رد على قصيدة ابن المعتز ارتجالاً في مجلس نقيب الأشراف بالعراق بقصيدة قوية طويلة ...

وظل يصف مجلس السلطان الملك الصالح في المساء ، حين تحضر الشموع لتضيء المجلس ، وصفاً جميلاً ، والتزم ذلك لمدة شهر يرتجل كل يوم قصيدة رائعة منها هذه القصيدة :

أنجوم روض أم نجوم سماء   كشفت أشعتها دجى الظلماء
أشرفن في حلل الظلام فخدقت   حـدداً لهن كواكب الجوزاء
من كل هيفاء المعاطف قومت   قـداً كقد الصعدة السمراء

وأسمعه (الملك المؤيد) وزناً طويلاً وقافية معينة وأخبره أن جماعة من الشعراء حاولوا أن ينظموا فيه فأخطأوا فارتجل الصفي هذه القصيدة على نفس الوزن :

إن قصر لفظي فان طولك قد طال   يا من فعل البر والجميل كم قال

والصفي من الارتجال غير هذا كثير ، وخاصة في المقطوعات ، فالمقطوعات الهجائية كان يقولها بسرعة تدهش السامع ، فهو حاضر البديهة ، مسيطر على اللغة والنظم ، لا يكابد فيه عسراً ولا يلاقي عنتاً ، واللغة في يديه كالعجينة في يد المثال الماهر يصنعها كيف يشاء ، ويكيفها حسب ما يريد ، وكأن ألفاظ اللغة مرصوصة أمامه يختار ما يحتاج في أي وقت ، فهو حين ينظم الشعر لا تتعبه قافية أو يشكل عليه تعبير ، فشاعريته من النوع الفذ الفريد الذي لا

يتأتى لكل إنسان . وكان شعره من النوع الذي يعجب السامعين فيسري على كل لسان وينتشر في كل مكان . ولذلك ذاع صيته ، وتناقل الناس شعره . وحفظوه ، وصار الملوك يخطبون وده ليخلدهم في شعره وها هو يصور ذلك مخاطباً الملك المنصور

لقد حسد الأقوام لفظي وفضله وقد غبطوا إحسانه ولسانيا
ولولاك لم تمن الملوك بمنطقي ولا خطبوا مدحي لهم وخطابيا
ولولاك لم يُعرف مُسمّايَ بينهم ولا أصبح اسمي في الممالك ساميا
ولاسيما لما رأوني راغباً عن الرفد لا أبغي من المال باقيا

فهو يبين لنا أن الملوك تعنى بشعره وتخطب وده ، وأن اسمه يدوي في سائر الممالك ، وهو راغب عن هؤلاء الملوك لا يمدحهم ولا يفد اليهم . ويقول أيضاً :

وبك استعذب الملوك كلامي ورعوا حق حرمتي وعهودي

ولهذا السبب طلب منه الملك الناصر أن يجمع ديوان شعره فجمعه في بلاطه وكان صفي الدين شاعر عصره ، وكبير الشعراء في ذلك الزمان دون منازع ، وقد اعترف بهذا معاصروه فقال الصفدي : « وهو شاعر عصرنا على الاطلاق» وصرح بمثل هذا كل من كتب عنه أو ترجم له وكان الشعراء والأدباء والعلماء يحترمون منزلته ويهابون موهبته ويعجبون بعلمه وأدبه ، وينظرون اليه جميعاً بعين الاكبار والاجلال ، ويرون أنه هو الذي حافظ على روح الشعر العربي بجميع مميزاته وخصائصه وصفاته وأن شعره لا يقل في أي حال من الأحوال عن شعر الفحول المتقدمين أمثال المتنبي وأبي تمام والبحتري وغيرهم وربما كان هناك من يفضله على من سبقوه إذ قال فيه الشاعر (جمال الدين بن نباته المصري)

يا سائلي عن رتبة (الحليّ) في نظم القريض وراضياً بي أحكم
الشعر حليان : ذلك (راجح) ذهب الزمان به ، وهذا قيّم[1]

(١) ديوان ابن نباته ص ٤٧٨ .

بل يذهب إلى أبعد من هذا فيفضله حتى على البحتري

حبذا من إمام لفظ وفعل   نشر الذكر في البلاد دعاته
ناظم يشتكي (الوليد) قعوداً   حين تتلو رواته أبياتـــه[1]

وقد قال فيه (الشيخ شمس الدين عبداللطيف) : « ما نظم الشعر مثله أحد من المتقدمين والمتأخرين » وهذا القول وإن كان فيه الكثير من المبالغة ، إلا إنه يصور لنا منزلة الصفي بين أدباء عصره وعند نقاد زمانه ، فقد كانوا يقدمونه على جميع الشعراء ، ويرفعونه إلى أعلى المراتب ، ويسمون بشعره إلى أرقى منزلة

وقد عرف الصفي منزلته هذه فكان يدل بها في شعره ، وكان غالباً ما يختتم قصيدته مفتخراً بموهبته وشاعريته ، سواء أكانت القصيدة حماسة أو مدحاً أو رثاءً أو شكراً أو غير ذلك ، يقول في خاتمة قصيدة مدح بها (الملك المنصور)

فلئن رحلت فقد تركت بدائعاً   غصبت فصول الحكم من لقمان
وخريدة هي في الجمال فريدة   فهي الغريبة وهي في الأوطان
معتادة نهب الحليل صداقها   نخراً على الأكفاء والأقران
لا عيب فيها،وهو شاهد حسنها،   إلا تبرجها بكل مكان

وحين يرثى الملك الناصر يقول مفتخراً بشعره :

ولما نظمت الشعر فيك قلائداً   تمنت نجوم الليل لو أنها شعر

أو يقول مبيناً أن رثاءه خالد ، يكسب الخلود حين يرثي به أحداً ؛ قال في رثاء القاضي (شهاب الدين محمد) كاتب السر بدمشق

فسوف ترثيك مني كل قافية   بها لذكرك بين الناس تخليد
وأسمع الناس أوصافاً عرفت بها   حتى كأنك في الأحياء موجود

(١) ديوان ابن نباته ص ٧٣ .

وقد يتمالى فيفضل شعر نفسه على شعر أكابر الشعراء ممن سبقوه . . . فها هو يزري بشعر بشار :

كسوتك من قشيب الشعر برداً يهجن شعر (بشار بن برد)

ويقول إن قصيدته تفخر على قصائد المتنبي :

على(أبي الطيب) الكوفي مفخرها إذ لم أصغ مسكها في مثل كافور

وقد يرجع إلى أبعد من ذلك فيرجع إلى الحطيئة ولبيد بن ربيعة ، فيفضل شعره على شعرهما وشعر سواهما :

فاستمعها بكراً حماها ضياء الحسن مني من ظلمة التقليد
هجنت شعر كل من نطق الضاد جميعاً لا (جرول) و (لبيد)

أما أهل عصره فهم في اعتقاده لا يمكن أن يصلوا إلى مرتبته :

إذا رام أهل العصر نظماً لمثلها وجاءوا بلفظ دونها وتكلفوا
ظننت حبال السحر ما قد أتوا به وتلك عصا موسى لها تتلقف

وربما غالى في فخره بشعره فعده منزهاً عن العيب :

يسامرني في الفكر كل بديعة منزهة الألفاظ عن قدح عائب

فهو مؤمن بالنقد ، وبأن الشعر الجيد هو الذي يقف ثابتاً راسخاً أمام النقاد ، فيعلو قدره وتسمو منزلته :

والشعر كالتبر يخفى حين تنظره عين الغبي ويغلو حين ينتقد

فليس كل انسان يعرف قيمته ويقدر جماله :

والشعر ثوب ليس يعرف قدره من بعد صاحبه سوى بزاز

وبالرغم من أن الصفي كان يقول الشعر على طبيعته :

صغت القريض ولم أقله تكلفاً لكنه طبع لدي غريز

إلا أنه كان ـ أحياناً ـ ينقح الشعر ويهذبه ، استمع إليه يبين رأيه في ذلك :

ليس لغات العرب لفظ الفرس كأنني لضيقه في حبس
فاترك الشعر شديد اليبس وإنما أجيل فيه حدسي

فان تعب ما قلته بالأمس   فلم أرد إلا زوال اللبس
وإنما نقحت شعر نفسي   وليس نظم الشعر شاه المس

وهكذا كان شعر الصفي ، وهكذا كانت منزلته ، وهكذا كان يعرف منزلته العظيمة ، ومكانته الرفيعة بين شعراء عصره وشعراء سائر العصور .

٤ - تأثيره في أخلاقه :

كل مبرز في ناحية من نواحي النشاط الانساني لابد أن يشغل الناس ، ويذيع صيته بينهم ، ولابد أن يكون له معجبون ، ويكون هناك من يقلده في هذا النشاط فيتتلمذ عليه ويتأثر به . وصفي الدين الذي طبقت شهرته الآفاق وذاع شعره في مختلف البلاد ، لا ريب في أنه أثر في كثير ، أو قليل ، من الشعراء الذين جاءوا بعده .

ولو كان تأثير الصفي هو محافظته على روح الشعر العربي فقط لكفى ، فانه وصل بين الشعراء المتقدمين وبين من جاء بعده من أجيال ، ولولاه لانقطعت الصلة وبقيت هناك حلقات مفقودة وفصول ناقصة فهو الذي حافظ للشعراء على ميزات الشعر العربي القوي الرصين الجزل المتين ، السهل الرقيق ، بكل أغراضه وكافة فنونه وجميع أنواعه . ولابد أنه قد تتلمذ على الصفي شعراء كثيرون ممن كانوا فرسان النهضة الحديثة في الأدب العربي والمدقق في دواوين الكثير من هؤلاء الشعراء يجد آثار الصفي واضحة في شعرهم دون منازع ، فهناك من ضمن أشعاره ، واقتبس معانيه ، ألا تجد معي أن قول (أحمد شوقي) في رثائه لمحمد فريد :

كل حي على المنية غادي   تتوالى الركاب والموت حادي
كرة الأرض كم رمت صولجانا   وطوت من ملاعب وجياد[1]

---

(١) الشوقيات ج ٣ ص ٥٥

مقتبس من قول الصفي في رثاء قاضي القضاة بماردين (شمس الدين عبدالله ابن المهذب)

غير أن الأيام بالخلــق تجري   لبلوغ الآجال جري الجيــاد
كيف ترجو المقام والخلق سفر   نحن ركب وحادث الدهر حادي

وهناك أيضاً من شطر أو خمس أبياته. فهذا الشاعر الحلي الملا عباس بن القاسم بن ابراهيم الزيوري المتوفى سنة ١٣١٥هـ ، خمس أبياته في الامام علي فقال

صفي ذو الأصل مذ حدثت عمّا   بــه الرحمان خصكم وعمّــا
فقلت لمن به الانعام تمّـا   (أمير المؤمنين أراك إما)
(ذكرتك عند ذي حسب صفى لي)

براك الله للمخـــلوق آيا   تحبك كي يبين لهـا السجايا
فتمتاز الهـداة من البغايا   (وها أنا مخـبر عنك البرايا)
(فأنت محك أولاد الحـلال)

وقد كان لمخترعات الصفي الشعرية أثر في الشعراء الذين خلفوه أيضاً . وكان له تلاميذ في فن (البديعة النبوية) إذ حذا حذوه كثير من أسلافه حتى زادوا على ثلاثين شاعراً منهم ابن حجة الحموي ، والموصلي ، والشماع والسيوطي وغيرهم ممن مر ذكره ، فقد نظموا بديعيات على غرار بديعيته يمدحون بها الرسول . وكان للصفي في هذا الفن تلاميذ من شعراء النصارى نظموا القصائد البديعية في مدح المسيح ورسله ، أشهرهم (الخوري نيقولادس الصائغ) . (والمطران جرمانوس فرحات) ... والعجيب أن هؤلاء الشعراء لم يبزوا الصفي ولم يزيدوا على ما جاء به ، بل ظل نجم الصفي متلالئاً لماعاً يبهر نوره الناظرين دون أنوارهم أجمعين

وأثر الصفي كذلك بفن (الروضة) الشعرية في شعراء كثيرين جاءوا بعده ، بالرغم من أن شاعرين قد سبقاه إلى هذا الفن هما (أبو زيد

عبدالرحمن محمد الفازازي اليجفشي) الأندلسي المتوفى سنة (٦٣٧هـ) صاحب (القصائد العشريات) و(مجد الدين أبو عبدالرحمن الشافعي) البغدادي صاحب (القصائد الوتريات) . إلا أن قصائد الصفي ، الأرتقيات ، هي التي استطاعت أن تؤثر في الشعراء ، فتجعلهم ينظمون هذا الفن معترفين بأنهم يريدون أن يفعلوا ما فعله الصفي في أرتقياته ، ويصلوا إلى بعض ما وصل اليه في هذه القصائد العظيمة فهو أشهر من هذين الشاعرين اللذين سبقاه ، وشعره أوسع انتشاراً وأذيع صيتاً ، وأكثر سرياناً من شعرهما وتتلمذ على الصفي في هذا الفن كثير من الشعراء منهم (محمد الغلامي الموصلي) وله روضة في مدح (أحمد الجليلي) الموصلي ، والشيخ (ابراهيم يحيى العاملي) وله روضة يمدح بها الشيخ علي الفارسي أمير جبل عامل و (الشيخ صالح التميمي البغدادي) وله روضة في مدح الشيخ محمد علي الحويزي ، و(الحاج جواد بزقت الكربلائي) وله روضة في مدح الامام (علي بن أبي طالب) ، و(الشيخ حسن مصبح) وله ثلاث روضات واحدة في الغزل والأخرى في مدح الامام (علي بن أبي طالب) والثالثة في رثاء الامام (الحسين بن علي) وهؤلاء الشعراء لم يبلغوا أيضاً ما بلغه الصفي أرتقياته من حسن السبك وجمال الأسلوب ورشاقة اللغة وعذوبة الألفاظ والبعد عن التكلف .

خاتمــة

ولد صفي الدين الحلي السنبسي الطائي في الحلة ، تلك المدينة التي أسسها المزيديون سنة (٤٩٥ هـ) وحملت مشعل الحضارة الاسلامية ردحاً من الزمن غير يسير ، وظلت ترقى سلم المجد حتى ولد الصفي سنة (٦٧٧ هـ) وكان العالم الاسلامي يومذاك يتخبط في ظلام دامس بعد أن خيم الركود على الحياة الاسلامية وعم القلق والاضطراب في جميع نواحي الحياة سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية وأدبية وكانت الحلة لا تزال نهضتها العلمية مزدهرة لم تمسها يد المغول بسوء بالرغم من تدمير مراكز العلم والحضارة والمدنيــة الاسلامية في العراق وخراسان .

وتربى الصفي في الحلة تربية ناعمة فيها كل ما في حياة أبناء الأشراف من عز وغـنى ، فكان يتعلم الفروسية ويتدرب على الرمي بالسهام وصيد الحيوانات والطيور وكان يمارس الألعاب المسلية (كالنرد والشطرنج) وقد بدأ تعليمه وتثقيفه منذ نعومة أظفاره ، فحفظ القرآن ودرس علوم الدين من فقه وأصول وتفسير وحديث ... وتلقى العلوم الأخرى من تاريخ وأخبار العرب وأيامهم وجغرافية وفلسفة ، وتعلم علوم العربية من نحو وصرف وعروض وبيان ، ومال إلى قرض الشعر فنظمه وجود فيه ولم يتعد العقد الأول من عمره بعد

وكان الصفي يعتز باسلامه ، ويفخر به ، ويذهب مذهب أهل بلده ويتعصب لعقائدهم الشيعية ، يحب آل علي ولا يرى غيرهم أحق بامامة المسلمين إلا أنه ما كان يتعرض لغيرهم بسوء ، ولا يجيز بحبهم كره سواهم من الصحابة والتابعين ، شأنه في ذلك شأن معتدلي الشيعة

وقد عاش الصفي عقدين من حياته في وطنه ، إلا أنه اضطر إلى مغادرته بعد قتل خاله (صفي الدين بن محاسن) واشتراكه في معارك للأخـــذ بثأره فالتجأ إلى ماردين وعاش في كنف الملوك الأرتقيين مدة غير قصيرة ، ومدحهم بقصائد طوال ووقف شعره عليهم وكان يحضر معهم مجالس اللهو والشراب فيصفها بشعر رقيق جميل ، ويخرج معهم للصيد فيبدع القصيد والأراجيز في وصف تلك الرحلات واشتغل بالتجارة وجال البلاد وطاف الأقطـار ، ورحل إلى كل مكان فزار الحجاز وأدى فريضة الحج ، وغادر الحجاز إلى مصر .

وكان له في مصر أصدقاء كثيرون ، منهم (جمال الدين محمد بن نباتة المصري) الشاعر و (صـــلاح الدين الصفدي) الأديب المؤرخ و (القاضي علاء الدين بن الأثير) كاتب السر وهو الذي قدمه إلى الملك الناصر ، فاحتفى به وأكرمه وطلب منه أن يجمع ديوان شعره فجمعه في بلاطه وعاد من مصر إلى ماردين ثم إلى العراق وظل يتنقل من بلد إلى بلد حتى وافته منيته سنة (٧٥٠ هـ) .

وقـــد خلف الصفي تراثاً أدبياً خالداً فيه آثار نثرية وآثار شعرية ، فأما آثاره الشعرية فهي ديوانه ، ودرر النحور في مدائح الملك المنصور ، والـكافية البديعية .

فأما ديوانه فقد جمعه بنفسه في مصر وضمن فيه أكثر شعره ، وقسمه اثني عشر باباً ، تحتوي على ثلاثين فصلاً ، كل فصل في فن من فنون الشعر المختلفة وقد طبع هذا الديوان عدة مرات . وهناك كثير من النسخ الخطية مبعثرة في مصر والعراق وايران وغير ذلك من البلاد .

وأما (درر النحور في مدائح المنصور) فهي القصائد الأرتقيات التي نظمها في الملك المنصور في ماردين حين لجأ اليه فأحسن وفادته وأجزل صلته . ويضم (تسعاً وعشرين قصيدة) مرتبة على حروف الهجاء كل قصيدة (تسعة وعشرون بيتاً) ، كل بيت منها يبدأ بنفس حرف الروي فيكون للقصيدة قافيتان ،

وشعرها جميل ليس فيه تعسف أو تكلف . وقد قال الصفي إنه أول من نظم هذه القصائد في هذا الفن ، غير أني وجدت شاعرين لهما مثل ذلك كانا متقدمين على الصفي بزمن غير قصير ، أولهما العلامة الفقيه (أبو زيد عبدالرحمن الفازازي اليجفشي الأندلسي) المتوفى سنة (٦٣٧ هـ) ، وله (القصائد العشريات) في النصائح الدينية والحكم والزهد وثانيهما (مجد الدين أبو عبد الله محمد البغدادي الشافعي) المشهور بالوتري المتوفى سنة (٦٦٢ هـ) وله (الوتريات) في مدح الرسول وسماها (معدن الافاضات في مدح أشرف الكائنات) . ولعل الصفي أول من نظم مثل ذلك في مدح الملوك والسلاطين ، أو لعله لم يطلع على آثار من سبقه في هذا الفن .

وأما البديعية ، فهي القصيدة التي مدح بها النبي ونظمها على وزن وقافية بردة البوصيري وقد ضمنها أنواع البديع فجعل في كل بيت نوعاً أو نوعين منه ، وهي (١٤٥) بيتاً تشتمل على (١٥١) نوعاً من أنواع البديع . ويقول الصفي انه هو الذي اخترع هذا الفن وحذا حذوه كثير من الشعراء فيما بعد ، والواقع انه سُبق الى هذا الفن ، ولكنه أول من نظم البديعية في مدح الرسول الكريم (ص) .

وقد مر شعر الصفي في مراحل ثلاث : الأولى مرحلة الصبا ، أيام كان يعيش في الحلة شاباً مترفاً مدللاً ، وكان شعره في طور التكوين ، فكان يقلد الشعراء المتقدمين ويحذو حذوهم ويفيد من قصائدهم ، وكان شعره في هذا الطور سهلاً لا تكلف فيه ولا تعقيد ، يقتصر على بعض الأغراض . والمرحلة الثانية أيام كان يعيش في ماردين ، فكان شعره وقفاً على الأرتقيين ، إذ مدحهم بكثير من القصائد الجميلة ، وقد ظهر في شعره التعقيد والصناعة البديعية والمحسنات اللفظيـــة ، وأول ما ظهر ذلك في قصائده الأرتقيات . وأما المرحلة الثالثة فهي التي كان يقول فيها الشعر في مختلف الأقطار ؛ في العراق وماردين ومصر والحجاز والشام ، منذ أن بدأ يرحل للتجارة حتى

وفاته وقد ظهر التعقيد في شعره أثناء هذه الفترة بجلاء ووضوح ، وتزايد حبه للصناعة حتى أصبح لا هم له إلا ترصيع شعره بأنواع التجنيس والمطابقة والاستعارات والتشبيهات . ونظم القصائد المعجمة والمهملة والقصائد التي تقرأ طرداً وعكساً أو عمودياً وأفقياً ، حتى أنه اخترع (الجناس المجنح) وقد زادت أغراضه في هذه الفترة أيضاً فزاد الزهد والتصوف والأدب والحكم والمجون ، حتى تكاملت موضوعات شعره وقد جمع ديوانه في هذه المرحلة ، في بلاط الملك (الناصر محمد بن قلاوون)

ويمتاز شعر الصفي في جميع مراحله بكثرة الصناعات البديعية فيه ، وانتشار روح الحماسة ، فبالاضافة إلى القصائد الكثيرة والمقطوعات الجمة من شعر الحماسة نحس بالروح الحماسية في أكثر موضوعات شعره كالمديح والرثاء والاخوانيات وحتى الغزل ويمتاز كذلك بروح المبالغة فنجده يزيد في تهويل الصورة التي يريد أن يعرضها لنا كما كان ذلك منتشراً في عصره . وكان هذا الشعر في أسلوب رقيق جميل متين رصين ، فلم يتأثر الصفي بضعف أساليب عصره وإنما تأثر بقوة أساليب أسلافه من فحول الشعراء . وأما ألفاظه فكانت عربية فصيحة موسيقية سهلة ليس فيها غريب والصفي يهتم بمعانيه ، وهو مفتن بالغوص باحثاً عن المعنى الجميل ، فيرسم الصورة الرائعة ويختار لها أليق إطار .

وطرق الصفي كل أبواب الشعر من حماسة ومدح ورثاء واخوانيات وغزل وخمريات ووصف وطرديات وغير ذلك ولم يقتصر الصفي على القصيد فحسب بل طرق الفنون الأخرى المستحدثة في الشعر العربي ، كالموشح الذي أجاد فيه إذ نجد له (١٢) موشحة جميلة سلك فيها ما سلكه الوشاحون القدماء ، ثم انه اخترع فناً جديداً من الموشح سماه الموشح المضمن ، ويضمن فيه إحدى قصائد الشعراء المتقدمين كما وجد عنده الموشح المجنح وهناك الفنون الشعرية العامية وهي (الزجل) و (الموالي) و (الكان وكان) و (القوما) ،

وقد نظم الصفي منها نماذج لم تخرج عما أوجبه فيها مخترعوها من شروط ، وقد ضاع أكثر هذه الأشعار فلم نعثر إلا على نماذج قليلة ذكرها الصفي في كتابه (العاطل الحالي) الذي درس فيه هذه الفنون .

وقد بدأ الصفي حياته الشعرية بتقليد غيره من الشعراء المتقدمين الذين كان يعجب بهم ويحفظ شعرهم . وتأثر بهم وبان هذا الأثر في تضمينه شعرهم واقتباسه معانيهم وتخميسه لأشعارهم ومعارضته لقصائدهم ... ولكن سرعان ما استطاع الصفي أن يكون له شخصية خاصة في الشعر فأبدع القصائد الرائعة والمعاني الجميلة ، واخترع الفنون الطريفة ، حتى أصبحت له منزلة عظيمة بين شعراء عصره لا تدانيها منزلة ، واشتهر في الآفاق وطار صيته ، فأحبه الناس ورغب الملوك في مدحه وتقريبه اليهم . فأصبح أكبر شعراء عصره دون منازع . وكان له تلاميذ عديدون أثر فيهم فاقتبسوا معانيه وضمنو أبياته وخمسوا قصائده ، ونهجوا نهجه في مختلف فنون الشعر كالبديعيات وغيرها .

* * *

وإذا كان من اللازم على المتقدمين ببحوث علمية أن يأتوا فيها بجديد من عندهم فانني أستطيع أن أقول إن هذا العمل المتواضع الذي أتقدم به ، إن هو إلا ثمرة مجهودي الشخصي ، إذ لم يكتب أحد عن الصفي شيئاً ذا بال ، وكل ما كتب نتف يسيرة جداً لا تسمن ولا تغني من جوع . وقد استطعت أن أكتب عنه هذا البحث مستمداً في تصوير حياته ومراحلها المختلفة ، وثقافته المتنوعة وعقيدته ، على ديوانه الذي أمكنني بواسطته أن أكشف عن كثير من النواحي المختلفة وأما شعره فقد درسته دراسة طويلة ، وعشت معه زمناً غير قصير ، مع مختلف آثاره الشعرية حتى استطعت أن أقدم هذا البحث الذي تناول شعره ومختلف فنونه وأغراضه وبين نواحيه المختلفة المتعددة

ويعلم الله أنني لم أقل هذا زهواً أو فخراً ، فليس في العلم زهو أو فخر ، وإنما قلته لاحقاق الحق ، فيجب أن تمتاز البحوث العلمية بالحق والصراحة

ويعلم الله أني ما فكرت في يوم من الأيام أن أجعل هذا البحث غاية من الغايات أو هدفاً من الأهداف ، أو نهاية شوط كنت أجدُّ لأبلغه ، وإنما كنت ولا أزال ، أفكر في أن هذا البحث إن هو إلا باب أستطيع أن ألج منه عالم البحث والدرس والجد ، وأصل به عهداً يتصف بالعمل المستمر والجهد المضني ، لأستطيع أن أكشف عن بعض الكنوز الأدبية الكثيرة ، والمواهب الشعرية المغمورة في وطني والله أسأل أن يلهمني الصواب وأن يهديني سواء السبيل .

مراجع البحث

أ — المخطوطة :

١ ـ أبيات شعرية ـ مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٩٦٦ .

٢ ـ أعيان العصر وأعوان النصر ـ صلاح الدين الصفدي .
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٠٩١ تاريخ

٣ ـ أنوار الربيع في أنواع البديع ـ علي خان ـ
نسخة مخطوطة في مكتبة دار المعلمين العالية برقم ٤٨٦ ع

٤ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير عمادالدين أبو الفداء ج ١٣
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١١١٠ تاريخ

٥ ـ تاريخ ماردين ـ عبدالسلام المارديني قاضي ماردين .
مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٨١٣ تاريخ

٦ ـ درر النحور في مدائح الملك المنصور ـ صفي الدين الحلي
مخطوطتان بدار الكتب المصرية برقم ٣٩٤٨ أدب ورقم ٣٢١ أدب

٧ ـ ديوان صفي الدين الحلي ـ صفي الدين
أربع نسخ مخطوطة بدار الكتب المصرية وأرقامها ٥٣٥ و ١٣٦٩ و١٣٩٩و٥٠٩٥ أدب

٨ ـ ديوان صفي الدين الحلي ـ صفي الدين
نسخة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٢٢٤٧

٩ ـ العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي — صفي الدين
نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٢٩٦٥ أدب

١٠ - الكافية البديعية — صفي الدين
مخطوطتان بدار الكتب المصرية برقم ١٢٨ بلاغة و٥٦٧ بلاغة
١١ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي - أبو المحاسن بن تغري بردي
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٢١٢٦ تاريخ
١٢ - الوافي بالوفيات — صلاح الدين الصفدي
مخطوطة لدى الاستاذ سيد العقاد

ب — المطبوعة

١ - أمل الآمل — محمد بن الحسن بن علي الحر العامل
طبعة محمد حسن الكربلائي سنة ١٣٠٧هـ — العراق
٢ - الأدب العربي وتأريخه — محمود مصطفى ج ٣ ط . البابي الحلبي ١٩٣٧
٣ - البداية والنهاية لابن كثير — مطبعة السعادة — مصر
٤ - تاريخ آداب اللغة العربية — جرجي زيدان طبع مطبعة الهلال
٥ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري — آدم متز
ترجمة الدكتور عبدالهادي أبي ريدة — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧
٦ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة - المنسوب إلى كمال الدين بن الفوطي البغدادي، نشر وتحقيق الدكتور مصطفى جواد . بغداد
٧ - خزانة الأدب ونهاية الأرب — تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي .
المطبعة الخديوية بمصر سنة ١٢٩١ هـ
٨ - الحيوان — عمرو بن بحر الجاحظ طبع الساسي ١٣٢٣ هـ
٩ - دائرة المعارف الاسلامية — العربية
١٠ - » » » — الانكليزية مواد : (ماردين) و(أرتق)
١١ - دار الطراز — لابن سناء الملك المصري طبع دمشق ١٩٤٩

١٢ - دراسات في تاريخ المماليك البحرية — علي ابراهيم حسن مطبعة الاعتماد ١٩٤٤

١٣ - الدرر الكامنة لاعلام المائة الثامنة شهاب الدين بن حجر العسقلاني طبعة دائرة المعارف الاسلامية بالهند

١٤ - الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ أحمد حمدي . مصر ١٩٤٩

١٥ - ديوان ابن المعتز — المطبعة المحروسة ، مصر ١٨٩١

١٦ - ديوان ابن نباتة المصري — مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٥

١٧ - ديوان أبي تمام الطائي — طبع بيروت سنة ١٣٢٩ هـ

١٨ - ديوان أبي نواس — المطبعة العمومية ١٨٩٨

١٩ - ديوان صفي الدين الحلي — طبعة دمشق ١٣٠٠ هـ

٢٠ - ديوان صفي الدين الحلي — طبعة بيروت ١٨٩٣ م

٢١ - ديوان صفي الدين الحلي طبعة النجف — المكتبة العلمية ١٩٥٦

٢٢ - ديوان الطغرائي — مطبعة الجوائب قسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ

٢٣ - ديوان المتنبي — شرح العكبري طبعة الحلبي بمصر ١٩٣٦ م

٢٤ - رحلة ابن بطوطة المطبعة الأزهرية

٢٥ - رحلة ابن جبير مطبعة ليدن — الطبعة الثانية

٢٦ - العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي — صفي الدين الحلي نشر لجنة الاستشراق في مجمع العلوم والآداب في ألمانيا (ولهلم هونرباخ)

٢٧ - العبر وديوان المبتدأ والخبر — ابن خلدون طبعة بولاق ١٢٨٦ هـ

٢٨ - العمدة في صناعة الشعر ونقده — ابن رشيق القيرواني مصر ١٩٢٥ م

٢٩ - الفن ومذاهبه في النثر العربي — الدكتور شوقي ضيف طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — مصر ١٩٤٩م

٣٠ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب - الشيخ عبدالحسين أحمد الأميني النجفي طبع الحيدري — طهران .

٣١ ـ فوات الوفيات — ابن شاكر الكتبي طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ
٣٢ ـ القاموس المحيط — لمجد الدين الفيروز أبادي — طبعة السعادة ١٣٣٢ هـ
٣٣ ـ القصائد الأرتقيات — صفي الدين الحلي — المطبعة الوهبية ١٢٨٣ هـ
٣٤ ـ القصائد الأرتقيات « « « المطبعة الأزهرية للطوخي ١٢٩٩هـ
٣٥ ـ القصائد العشريات في النصائح الدينية — أبو زيد عبدالرحمن الفازازي اليجفشي الأندلسي — طبعة الحلبي ١٣٤٤ هـ
٣٦ ـ الكامل في التاريخ — ابن الأثير المطبعة الأزهرية ١٣٠١ هـ
٣٧ ـ لسان العرب — أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور
٣٨ ـ المدائح النبوية في الأدب العربي — الدكتور زكي مبارك مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٥ م
٣٩ ـ معجم البلدان — ياقوت الحموي طبعة ليبزج ١٨٦٧ م
٤٠ ـ معدن الافاضات في مدح أشرف الكائنات — مجدالدين محمد بن أبي بكر الوتري طبعة بيروت ١٩١٠م
٤١ ـ مقامات الهمذاني — طبعة بيروت ١٨٨٩م
٤٢ ـ مقدمة ابن خلدون — طبعة بولاق ١٣٩٦ هـ
٤٣ ـ مقصورة ابن دريد —أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد. الهند ١٣٤٤هـ
٤٤ ـ الموشح في الأندلس والمشرق — الدكتور محمد مهدي البصير مطبعة المعارف بغداد سنة ١٩٤٦
٤٥ ـ النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ـ جمال الدين بن تغري بري طبعة دار الكتب المصرية .
٤٦ ـ وفيات الأعيان ـ ابن خلكان طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ
٤٧ ـ يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر ـ أبو منصور عبدالملك الثعالبي طبعة دمشق .

فهرس الأعلام

[أ]

[ب]

الفهرس

صفحة

الفصل الرابع — الفنون المستحدثة

الفصل الخامس — منزلته في الشعر العربي

اعتذار

بالرغم من العناية الفائقة لتجنب وقوع الأخطاء فقد وقعت بعض الهنات البسيطة مما لا يخفى على القارئ الفطن، فنرجو المعذرة

تحت الطبع

للمؤلف

حيـدر الحلي

ثمن النسخة ٣٥٠ فلس